الإمتاع والمؤانسة

الجزء الثالث

تأليف

أبو حيان التوحيدي

تحقيق

أحمد أمين وأحمد الزين

الكتاب: الإمتاع والمؤانسة.. الجزء الثالث

الكاتب: أبو حيان التوحيدي

تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

التوحيدي ، أبو حيان

الإمتاع والمؤانسة.. الجزء الثالث / أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٥٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٥٧ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٦٦٨ / ٢٠٢٠

الإمتاع والمؤانسة

الجزء الثالث





بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشيخ، وصل الله قولك بالصواب، وفعلك بالتوفيق، وجعل أحوالك كلها منظومةً بالصلاح، راجعةً إلى حميد العاقبة، متألفةً بشوارد السرور، ووفَّر حظك من المدح والثناء، فإنهما ألذُّ من الشهد والسلوى، ومدَّ في عمرك لكسب الخير، واستدامة النعمة بالشكر، وجعل تلذذك باصطناع المعروف، وعرفك عواقب الإحسان إلى المستحِق وغير المستحق، حتى تَكْلَف ببث الجميل، وتشْغَف بنشر الأيادي، وحتى تجد طعم الثناء، وتطرب عليه طرب النشوان على بديع الغناء، لا طرب[1] البرَدَانيِّ على غناء عَلْوَة جارية ابن عَلُّويه في درب السِّلْق[2] إذا رفعت عقيرتها فغنَّت بأبيات السَّرويِّ: [3]

بالورد في وجنتيك مَنْ لطمك؟	ومَن سقاك المُدام لِم ظلَمكْ؟
[خلَّاك لا تستفيق من سُكرٍ	توسِع شتمًا وجفوة خَدَمَك]
مُعَقْرب الصُّدْغ قد ثملْتَ فما	يمنع من لثْم عاشِقِيك فمك؟
[تجُرُّ فضل الإزار مُنْخَرق النـ	ـعلَينِ قد لوَّث الثرى قدَمك
أظلُّ من حَيْرةٍ ومن دَهَشٍ	أقول لما رأيتُ مبتَسَمك]
بالله يا أقحَوان مَضْحَكه	على قضيب العقيق مَن نظَمك؟

ولا طرب ابن فَهْم[٤] الصوفي على غناء «نهاية» جارية ابن المغنِّي إذا اندفعت بشدوها: [٥]

أستودع الله في بغداد لي قمرًا بالكرْخ من فلك الأزرار مَطلعُهُ
ودَّعتُه وبودِّي لو يودِّعني صفو الحياةِ وأنِّي لا أودِّعُه

فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض، وتمرغ في التراب، وهاج وأزبد، وتعفَّر[٦] شعره، وهاتِ[٧] من رجالك من يضبُطه ويمسكه، ومن يجسُر على الدنو منه، فإنه يعَضُّ بنابه، ويخْمِش بظفره، ويركل برجله، ويخرِّق المرقَّعة قطعةً قطعةً، ويلطِم وجهه ألف لطمة [في ساعة]، ويخرج في العباءة[٨] [كأنه] عبد الرازق المجنون صاحب الكيل في جيرانك بباب الطاق.

ولا طرب ابن غيلان البزاز على ترجيعات «بلَّوْر» جارية ابن اليزيدي المؤلِّف بين الأكباد المحرَقة، والمحسن إلى القلوب المتصدِّعة والعيون الباكية إذا غنت:

أعطِ الشبابَ نصيبَه ما دمتَ تُعذَر بالشبابِ
وانعم بأيام الصِّبا واخلع عِذارك في التصابي

فإنه إذا سمع هذا منها انقلبت حماليق عينيه وسقط مغشيًّا عليه، وهاتِ الكافور وماء الورد، ومن يقرأ في أذنه آية الكرسي والمعوِّذتين، ويُرْقى بِهَيَا شَراهيا. [٩]

ولا طرب أبي الوزير الصوفي [القاطن] في دار القطن[١٠] عند جامع المدينة على «قلم القضيبية»[١١] إذا تناوأتْ[١٢] في استهلالها، وتضاجرتْ[١٣] على ضُجْرَتها، وتذكَّرت شجوَها الذي قد أضناها وأنضاها وسلبها منها[١٤] وأنساها إياها. [١٥] ثم اندفعت وغنَّت بصوتها المعروف [بها]:

أقول لها والصبحُ قد لاح نوره | كما لاح ضوء البارق المتألقِ
شبيهُك قد وافَى وحان[١٦] افتراقنا | فهل لك في صوتٍ ورطلٍ مُروَّقِ؟
فقالت حياتي في الذي قد ذكرتَه | وإن كنتَ قد نغَّصْته بالتفرُّق

ولا طرب الجراحي أبي الحسن مع قضائه في الكرخ، وردائه المحشَّى، وكمَّيه المفدَّرين،[١٧]ووجنتيه المتخلِّجتَين،[١٨] وكلامه الفخم، وإطراقه الدائم؛ فإنه يغمِز بالحاجب إذا رأى مِرْطًا،[١٩] وأمَّل أن يقبِّل خدًّا وقرطًا؛[٢٠]على غناء شُغْلة:

لا بدَّ للمشتاق من ذكر الوطن | واليأس والسلْوة من بعد الحزَنْ

وقيامتُه[٢١] تقوم إذا سمعها ترجِّع في لحنها:

لو أن ما تبتليني[٢٢] الحادثاتُ به | يُلقَى على الماء لم يُشْرَب من الكَدَرِ

فهناك ترى شيبةً قد ابتلت بالدموع، وفؤادًا قد نزا[٢٣] إلى اللهاة، مع أسفٍ قد ثقَب القلب، وأوهن الرُّوح، وجاب الصخر،[٢٤] وأذاب الحديد. وهناك ترى والله أحداق الحاضرين باهتة، ودموعهم متحدرة،

وشهيقهم قد علا رحمةً له، ورقةً عليه، ومساعدةً لحاله، وهذه صورةٌ [إذا] استولت على أهل مجلس وجدتَ لها عدوى لا تُملَك، وغايةً لا تُدرك، لأنه قلَّما يخلو إنسانٌ من صبوة أو صبابة، أو حسرةٍ على فائت، أو فكرٍ في مُتمنَّى، أو خوفٍ من قطيعة، أو رجاءٍ لمنتظر، أو حزنٍ على حالٍ، وهذه أحوالٌ معروفة، والناس [منها] على جديلةٍ(٢٥) معهودة.

ولا طرب ابن غسَّانَ البصري المتطبب إذا سمع ابن الرَّفاء يغني:

وحياةِ مَنْ أهوَى فإني لم أكن   أبدًا لأحلف كاذبًا بحياته

لأخالفنَّ عواذلي في لذتي   ولأسْعِدنَّ أخي على لذَّاته

وابن غسان هذا مليح الأدب، وهو الذي يقول في ابن نصرٍ العامل – وقد عالجه من علة فلم يتفقده ولم يقض حقه:

هبِ الشعراءَ تعطيهم رِقاعًا   مزوَّرةً كلامًا عن كلامِ

فلِمْ صلة الطبيب تكون زُورًا   وقد أهدى الشفاءَ من السَّقامِ

عجبتُ لمنْ نمتْه(٢٦) أرضُ لؤم   وبخلٍ لِمْ يُعَدُّ من الكرامِ؟

نُسِبتَ إلى السماجة لا لشيءٍ   سوى نقصان لؤمك في اللئام

عَنى بها أنه من أصبهان. (٢٧) وكان آخر حديث ابن غسان ما عرفته،(٢٨) فإنه غرَّق(٢٩) نفسه في كِرْداب(٣٠)كلْواذَى، وذلك لأسباب تجمعت عليه من صَفَر اليد، وسوء الحال، وجَرَبٍ أكل بدنَه، وعشقٍ أحرق كبده على غلام «الآمديِّ الحلاويِّ» بباب الطاق، وحيرة عَزَب

معها عقلُه، وخذله رأيه، وملَكه حينه. ونسأل الله حسْن العُقبى بدرْك المُنى، وليس للإنسان من أمره شيء، وما هو آئضٌ[31] إليه فهو مملوكٌ عليه، يصرِّفه فيما يصرِّف فيظن أنه أتى من قبله، ولعمري من غُلِّط غَلِط، ومن غولط غالط، والكلام في هذا غاشٌّ،[32] والإغراقُ فيه مُوسْوِس، والإعراض٣٣ عنه أجلب للأنس، وما أحسنَ ما قال القائل:

إذا استعفيتُ من أسر الليالي تصرِّفني فأسري في خلاصي[34]

ولولا طيش[35] القلم، وتسحُّب الخاطر، وشرود الرأي، ما عثرْتُ بهذا الموضع، ولا علِقْت بهذا الحبل، نعم.

ولا طرب ابن نُباتة الشاعر على صوت الخاطف إذا غنَّتْ:

تلتهب الكفُّ من تلهُّبِها وتحسُر العينُ إن تقصَّاها

كأنَّ نارًا بها محرَّثةً[36] تهابُها[37] مرةً وتغْشاها

نأخذها تارةً وتأخُذنا فنحن فرسانُها وصَرْعاها

ولا طرَب ابن العَوْذيِّ[38] إذا سمع غناء تَرَف[39] الصابئة في صوتها عند نشاطها ومَرَحها، وهواها حاضر، وطرْفها إليه ناظر:

لَبِّ الهوى كلما دعاكا ولاحِ في الحبِّ من لحاكا

من لام في الحُبِّ أو نهاكا فزِدْه في غيِّك انهماكا

إن لم تكن في الهوى كذاكا نال[40] لذَّاتِه سواكا

ولا طرب المعلِّم غلام الحُصْري شيخ الصوفية إذا سمع ابن بُهلولٍ يغني في رحبة المسجد بعد الجمعة وقد خف الزحام:

وقــال لــي العــذولُ تسـلَّ عنهـا   فقلــت لــه: أتــدري مـا تقــول؟

هــي الــنفسُ التــي لا بــدَّ منهـا   فكيــف أزول عنهــا أو أَحُــولُ؟

ولا طرب ابن الغازي على جارية العمِّيِّ[٤١] في مجلسها الغاصِّ بنبلاء الناس بين السورَين: [٤٢]

يَلْحَــى ولــو أرَّقــه ميعــادُ   أو رَاعَــه الإعــراضُ والإبعــادُ

أو هــرَّه الأعــداءُ والحسَّــادُ   أو سَــلَقَتْه الألسُــنُ الحِــدادُ

ما[٤٣]لامَ من ليس له فؤادُ

ولا طرب ابن صُبْر[٤٤] القاضي قبل القضاء على غناء درَّة جارية أبي بكر الجرَّاحيِّ في درب الزعفراني التي لا تقعد في السنة إلا في رجب، إذا غنَّت:

لسـتُ أنسـى تلـك الزيـارةَ لمَّـا   طرقتْنــا وأقبلــتْ تتثنَّــى

طرقــتْ ظبيــةُ الرُّصــافة لــيلًا   فهي أحلى مَن جسَّ عُودًا وغنَّى

كــم ليــالٍ بتْنــا نلَــذُّ ونلْهــو   ونُســقَّى شــرابَنا ونُغنَّــى

هجرتْنــا فمــا إليهــا سـبيلٌ   غيــر أنــا نقــول: كانــت وكنَّــا

وإذا بلغت «كانت وكنا» رأيتَ الجيب مشقوقًا، والذيل مخروقًا، والدمع منهملًا، والبال منخذلًا، ومكتومَ السر في الهوى باديًا، ودليل العشق على صاحبه مناديًا.

ولا طرب ابن حجَّاج الشاعر على غناء قِنْوَة البصرية، وهي جارته٤٥ وعشيقته، وله معها أحاديث، ومع زوجها أعاجيب. وهناك مكايدات، ورميٌ ومعايَرات، وإفشاء نكات؛ إذا أنشدت:

يـــا ليتنـــي أحيـــا بقربهمـــو   فـــإذا فقـــدتُهم انقضـــى عُمُـــري

ثم ثنَّت بصوتها[٤٦] الآخر:

هبينـــي امـــرأً إمَّـــا بريئًـــا ظلمتِـــه   وإمـــا مســـيئًا تـــاب بعـــد فأعتَبـــا

فكنـــتُ كـــذي داء تبغَّـــى لدائـــه   طبيبًـــا فلمـــا لـــم يجـــده تطبَّبـــا

ولا طرب ابن معروف قاضي القضاة على غناء عُلَيَّة إذا رجَّعت لحنها في حلقها الحلو[٤٧] الشجي بشعر ابن أبي ربيعة:

أنيري مكان البدر إن أفل البدرُ   وقومي مقام الشمس ما استأخَر الفجرُ

ففيك من الشمس المنيرة نورُها   وليس لها منك المحاجر والثغرُ[٤٨]

ولا طرب ابن إسحاق الطبري على صوت [دُرَّة] البصرية إذا غنت:

يـــا ذا الـــذي زار ومـــا زارا   كأنـــــه مقتـــــبسٌ نـــــارا

قـــام ببـــاب الـــدار مـــن زهـــوه   مـــا ضـــرَّه لـــو دخـــل الـــدارا

لــو دخـــل الـــدار فكلمتُـــه بحـــاجتي مـــا دخـــل النـــارا

نَفســي فــداه اليــوم مــن زائــرٍ مــا حــلَّ حتــى قيــل قــد ســارا

ولا طرب ابن الأزرق الجَرجَرائي على غناء سُنْدُس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد إذا تشاجت وتدلَّلت، وتفتَّلتْ(٤٩) وتقتَّلت، وتكسَّرت وتيسَّرت، وقالت: أنا والله كسلانة مشغولة القلب بين أحلام أراها رديئةً، وبختٍ(٥٠) إذا استوى التوى، [وأملٍ] إذا ظهَر عثَر. ثم اندفعت وغنَّت:

مجلـــس صَـــبَّيْن عميـــدَين ليســـا مـــن الحـــب بخِلْـــوَيْنِ

قـــد صـــيَّرا رُوحَيهمـــا واحـــدًا واقتســـماه بـــين جســـمَين

تنازعـــا(٥١) كأسًـــا علـــى لـــذَّةٍ قـــد مزَجاهـــا بـــين دمعَـــيْن

الكـــأس لا تحسُـــن إلا إذا أدرْتَهـــا بـــين مُحبَّـــيْنِ

ولا طربَ ابن سمعون [الصوفي] على ابن(٥٢) بُهلول إذا أخذ القضيب وأوقع(٥٣) ببنانه الرخص، ثم زلزل الدنيا بصوته الناعم، وغُنَّتِه الرخيمة، وإشارته الخالبة، وحركتِه المدَغدغة،(٥٤) وظَرْفه البارع، ودَماثته الحُلْوة، وغنَّى:

ولو طاب لي غَرسٌ لطابتْ ثمارُه ولو صحَّ لي غيبي لصحَّتْ شهادتي

تزهَّدتُ في الدنيا وإني لراغبٌ أرى رغبتـــي ممزوجـــةً بزهـــادتي

أيا نفسُ ما الدنيا بأهلٍ لحبها دعيهـــا لأقـــوامٍ عليهـــا تعـــادتِ

ولا طرب ابن حيَّوَيه[٥٥] على غلام[٥٦] الأمراء إذا غنَّى:

قد أشهدُ الشاربَ المعذَّلَ[٥٧] لا معروفُـــهُ مُنْكـــرٌ ولا حَصْـــرُ

فـــي فتيـــةٍ ليِّنـــى المـــآزر لا ينسَوْن[٥٨] أخلاقهم[٥٩] إذا سكروا

وغلام الأمراء هو الذي يقول فيه القائل:

أبـــو العبـــاس قـــد حـــجَّ وقـــد عـــاد وقـــد غنَّـــى

وقـــد علَّـــق عنَّـــازًا[٦٠] فهـــذا هُـــمْ كمـــا كنَّـــا

وأصحابنا يستملحون قوله «هم» ها هنا، ويرونه من العيِّ الفصيح.

ولا طرب أبي سليمان المنطقي إذا سمع غناء هذا الصبي الموصلي النابغ الذي قد فتن الناس وملأ الدنيا عيارةً[٦١] وخسارةً، وافتضح به أصحاب النسك والوقار، وأصناف الناس من الصغار والكبار، بوجهه الحسَن، وثغره المبتسِم، وحديثه الساحر، وطَرْفه الفاتر، وقدِّه المديد،[٦٢] ولفظه الحلو، ودَلِّه الخَلُوب، وتمنُّعه المُطمِع، وإطماعِه الممنِّع،[٦٣]وتشكيكِه في الوصل والهجر، وخلْطه الإباء بالإجابة، ووقوفه بين لا ونعم. إن صرحتَ له كنَى، وإن كنَيتَ له صرَّح، يسرقك منك، ويردُّك عليك، يعْرفك منكرًا لك، وينكرك عارفًا بك. فحاله حالات، وهدايته ضلالات، وهو فتنة الحاضر والبادي، ومُنْية[٦٤] السائق والهادي؛ في صوته الذي هو من قلائده:

عرفـتَ الـذي بـي فـلا تَلْحَنـي فلـيس أخـو الجهْـل كالعـالِم

وكنـــتُ أخوِّفُـــه بالـــدُّعا[٦٥] وأخشـــى عليـــه مـــن المـــآثِم

فلـــو كنـــتُ أبصـــرتُ مـــثلًا لـــه إذا لمـــتُ نفســـي مـــع اللائـــم

فلمـــا أقـــام علـــى ظُلمـــه تركـــتُ الـــدعاء علـــى الظـــالم

ولا طرب أبي عبد الله البصري على إيقاع ابن العَصَبي إذا أوقع بقضيبه وغنَّى بصوته:

أنســـيتَ الوصـــلَ إذ بتـــ ـــنا علـــى مرقـــد ورْدِ

واعْتنقْنـــا كوِشـــاحٍ وانتظمْنـــا نظـــمَ عِقْـــدِ

وتَعَطَّفْنـــا كغُصْنـــ ـــين فقـــدَّانا[٦٦] كقـــدِّ

وبسبب[٦٧] هذا ونظائره عابه[٦٨] الواسطي وقدح في دينه وألصق به الرِّيبة،[٦٩] واستحلَّ في عِرْضه الغِيبة، ولقَّبه بالمنفِّر عن المذهب، وقاطع الطريق على المُسترشِد.

ولا طرب ابن الوراق على رَوْعة[٧٠] جارة ابن الرَّضيِّ في الرُّصافة، إذا غنت:

وحـقِّ محـلِّ ذكـرك مـن لسـاني وقلبـي حـين أخلـو بالأمـاني

لقـد أصـبحت أغـبِطُ كـلَّ عـينٍ تعاينُهـا فتسـعد بالعِيـانِ

ولا طرب السِّنْدواني[٧١] على ابن الكرْخيِّ إذا غنى:

هجرْتنـي ثـم لا كلَّمْتِنـي أبـدًا إن كنتُ خُنتكِ في حالٍ من الحال

فـلا انتجيـتُ نجيًّـا فـي خيـانتكم ولا جـرت خطرةٌ منه[٧٢] على بـالِ

فسـوِّغيني المُنـى كيمـا أعـيشَ بهـا ثـم احبسي البذل ما أطلقْتِ آمالي

أو ابعثـي تَلَفًـا إن كنـتِ قـاتلتي إلـيَّ منـك بإحسـانٍ وإجمـالِ

ولا طرب الحريري الشاهد على حلية جارية أبي عائذ الكرْخيِّ «إذا أخذت في هزارها»[٧٣] واشتعلت بنارها وغنَّت:

قالـت بُثينـة لمَّـا جئـتُ زائرَهـا[٧٤] سـبحانَ خالقنـا مـا كـان أوْفاكـا!

وعدْتَنا موعدًا تـأتي[٧٥] لنـا عَجِلًا وقـد مضـى الحوْل عنا ما رأيناكـا

إن كنتَ ذا غرضٍ أو كنت ذا مرضٍ أو كنـتَ ذا خُلَّـةٍ أخـرى عـذرناكا

ولا طرب أبي سعيد الصائغ على جاريته ظَلوم إذا قلبتْ لحنها إلى حلقها واستنزلتْه[٧٦] من الرأس، ثم أوقعتْ فغنَّت:

فيـا لـكِ نظـرةً أودت بعقلـي وغـادر سـهمُها منـي جريحـا

فليـتَ مليكتـي جـادت بـأخرى وأعلـم أنهـا تَنْكـا القروحـا

فإمـا أن يكـون بهـا شـفائي وإمـا أن أمـوت فأسـتريحا

ولا طرب الزُّهْري[٧٧] على خَلوب جارية أبي أيوب القطَّان إذا أهلَّت واستهلَّت، ثم اندفعت وغنَّت:

إذا أردتُ سُـلُوًّا كـان ناصـركم قلبـي ومـا أنـا مـن قلبـي بمنتصِـر

فأكثروا أو أقِلُّوا من إساءتكم[٧٨] فكـلُّ ذلـك محمـولٌ علـى القَـدَرِ

وضعتُ خدي لأدنى من يُطيف بكم حتى احتُقِرْتُ وما مثْلي بمحتقَر

وأبو عبد الله المرزباني شيخنا إذا سمع هذا جُنَّ واستغاث، وشق الجيب وحَوْلَق[٧٩] وقال: يا قومُ، أما ترون إلى العباس بن الأحنف ما يكفيه أن يفجُر حتى يكفر؟ متى كانت القبائح والفضائح والعيوب والذنوب[٨٠] محمولةً على القدر؟ ومتى قدَّر الله هذه الأشياء وقد نهى عنها؟ ولو قدَّرها كان قد رَضِي بها، ولو رضي بها لما عاقب عليها. لعن الله الغزل إذا شِيب بمجانة، والمجانةَ إذا قُرِنَت بما يقدح في الدِّيانة! ورأيت أبا صالح الهاشمي يقول له: هوِّن عليك يا شيخ، فليس هذا كلُّه على ما تظن، القدَر يأتي على كلِّ شيء ويتعلَّق بكل شيء ويجري بكل شيء، وهو سر الله المكتوم، كالعلم[٨١] الذي يحيط بكل شيء. وكلُّ ما جاز أن يحيط به علمٌ جاز أن يجري به قدَر، وإذا جاز هذا جاز أن ينشره خبر، وما هذا التضايق والتحارج في هذا المكان. والشاعر يهزِل ويجِدُّ، ويقرُب ويبعُد، ويصيب ويخطئ، ولا يُؤاخَذ بما يؤاخَذ به الرجلُ الديَّان، والعالِم ذو البيان.

ولا طرب ابن المهديِّ على جارية بنت خاقان المشهورة بعَلْوَة إذا غنَّت:

أُرَوَّع[٨٢] حين يأتيني الرسولُ وأُكْمَد[٨٣] حين لا يأتي الرسولُ

أؤمِّلُكم وقد أيقنتُ أنِّي إلى تكذيب آمالي أؤُولُ

ولا طرب أبي طاهر بن المقنَّعيِّ(٨٤) المعدَّل على عَلْوان(٨٥) غلامِ ابن عُرْس، فإنه إذا حضَر وألقَى إزارَه وحلَّ أزراره، وقال لأهل المجلس: اقتَرحوا واسْتَفْتِحوا فإني ولَدُكم بل عبدُكم لأخدُمكم(٨٦) بغنائي، وأتقرَّب إليكم بولائي، وأساعدَكم(٨٧) على رُخْصي وغلائي. من أرادني مرةً أردتُه مرات، ومن أحبني رياءً أحببتُه إخلاصًا، ومن بلَغ بي بلغْتُ به. لم أبخل عليكم بحُسْني(٨٨) وظَرْفي، ولم أنْفَس(٨٩) بهما عليكم، وإنما خُلِقْت لكم. ولِمَ أُغاضِبُكم(٩٠) وأنا آمُلُكم غدًا إذا بَقَل(٩١) وجهي، وتدلَّى سِبالي، وولَّى جَمالي، وتكسَّر خدي، وتَعوَّج قدِّي، ما أصنع؟ حاجتي والله إليكم غدًا أشدُّ من حاجتكم إليَّ اليوم. لعن الله سوءَ الخُلق، وعسر الطباع، وقلة الرعاية، واستحسان الغدر! فيمرُّ في هذا وما أشبهَه كلامٌ كثير، فلا يبقى من الجماعة أحدٌ إلا ويَنْبض عِرْقُه، ويَهَشُّ فؤادُه، [ويذكو طمعُه]، ويَفْكَه قلبه، ويتحرك ساكنُه، ويَتدغْدغ رُوحه.(٩٢) ويومئُ إليه بقُبلته، ويغمِزه بطَرْفه، ويخصه بتحية، ويَعِده بعطية، ويقابله بمِدْحة، ويضمن له منحة، ويعوِّذه بلسانه، ويفضِّله على أقرانه، ويراه واحد أهل زمانه. فيُرى ابنُ المقنَّعِيِّ وقد طار في الجو، وحلَّق في السُّكاك،(٩٣) ولَقَط بأنامله النجوم. وأقبل على الجماعة بفرح الهشاشة،(٩٤) ومرح البشاشة،(٩٤) فيقول: كيف ترون اختياري؟(٩٥) وأين فِراستي من فِراسة غيري؟ أبى الله لي إلا ما يزينُني ولا يَشينُني، ويزيد في جمالي ولا ينْقُص من حالي، ويُقِر عَيْني ولُبِّي، ويَقْصِم ظهْر عدوِّي. هاتِ يا غلام ذلك الثوب الدَّبِيقيَّ،(٩٦) وذلك البُرْد الشَّطَوِي،(٩٧) وذلك الفَرُّوجَ(٩٨) الرومي، وتلك السُّكَّة(٩٩) المطيَّبة، والبخورَ المدَّخَر في الحُقَّة(١٠٠) وهاتِ الدينار

الذي فيه مائة مثقالٍ أهداه لنا أمس أبو العلاء الصيرفي فإنه يكفيه لنفقة أسبوع، ما أحسنَ سِكَّته وأحلى نقشَه! ما رأيتُ في حسْن استدارته شِبْهًا. [١٠١]وعَجِّل لنا يا غلامُ ما أدركَ عند الطَّبَّاخ، من الدَّجاج والفِراخ، والبَوارِد[١٠٢] والجَوْزِيَّات[١٠٣] وتَزايين المائدة. وصِلْ ذلك بشراء أقراطٍ[١٠٤] وجُبنٍ[١٠٥]وزيتون من عند كبل[١٠٦] البقال في الكرخ، وقطائف حبَش، وفالُوذَج عمر، وفُقَّاع[١٠٧] زُرَيق، ومُخَلَّط[١٠٨] خراسان من عند أبي زُنْبُور، ولو كنا نشرب لقلنا: وشراب صَرِيفِين[١٠٩]من عند ابن سُورِين،[١١٠] ولكن إن أحببتم أن أُحْضر بسببكم ومن أجلكم فليس في الفُتُوَّة أن أمنعكم من أَرَبكم[١١١] بسبب ثِقْل رُوحي وقلة مساعدتي، لعن الله الشهادة فقد حجبتني عن كل شهوةٍ وإرادة، وما أعرف في العدالة إلا فوْت الطَّلَبَةِ[١١٢] والعُلالة.

وما أحسنَ ما قال من قال:

مـا العـيش إلا فـي جنـون الصِّبَا	فـإنْ تـولَّى فجنـون المُـدامْ

هذا كله يمر وما هو أشجى منه وأرق، وأعجب وأظرف. ثم يندفع عَلْوان ويغنى في أبيات بشار:

ألا يـا قـوم خلُّـوني وشـاني	فلسـتُ بتـاركٍ حـبَّ الغـواني
نَهـوْني يـا عُبَيْـدة عـن هـواكم	فلـم أقبـل مقالـة مَـن نهـاني
فـإن لـم تُسْـعِفي فعِـدِي ومَنِّـي	خـداعًا لا أمـوت علـى بِيـانِ[١١٣]

ولا طرب أبي سعيد الرَّقيِّ على غناء مذْكُورة إذا اندفعت وغنَّت:

سُـــرِرْتُ بهجـــرك لمـــا عَلِمْـــتُ ... بـــأن لقلبـــك فيـــه سُـــرُورا

ولـــولا سُـــرورك مـــا ســـرَّني ... ولا كـــان قلبـــي عليـــه صـــبورا

ولكـــن أرى كـــلَّ مـــا ســـاءني ... إذا كـــان يُرضـــيك ســـهلًا يســـيرا

ولا طرب ابن مَيَّاس على غناء حَبَابة جارية أبي تمَّام إذا غنت:

صَـــدذْنا كأنَّـــا لا مـــودة بيننـــا ... على أن طـرْف العين لا بـدَّ فاضـحُ

ومَـــدَّ إلينـــا الكاشـــحون عيـــونَهم ... فلـم يبْـدُ منَّـا مـا حوتْـه الجـوانحُ

وصافحتُ من لاقَيتُ في البيت غيرَها ... وكلُّ الهوى مني لمن لا[114] أصافحُ

وحَبَابة هذه كانت تنوح أيضًا، وكانت في النَّوْح واحدةً لا أخت لها، والناس بالعراق تهالكوا على نوحها، ولولا أني أكره ذكره لرقَعْت الحديث به. وقدم من شاش[115] خراسانَ أبو مسلم – وكان في مرتبة الأمراء – فاشتراها بثلاثين ألف درهم مُعِزِّية،[116]وخرج بها إلى المشرق، فقيل إنها لم تعشْ به إلا دون سنةٍ لكمَدٍ لَحِقها، وهوًى لها ببغداد ماتت منه.

ورأيتُ لها أختًا يقال لها صبابة، وكانت في الحُسن والجمال فوقها، وفي الصنعة والحِذْق دونها، وزلزلت هذه بغداد في وقتها، ولم يكن للناس غير حديثها، لنوادرها، وحاضر جوابها، وحِدَّة مزاجها، وسرعة حركتها، بغير طيش ولا إفراط، وهذه شمائل إذا اتفقت في الجواري

الصانعات المُحسِنات خلبْن العقول، وخلَسْن القلوب، [وسعَّرْن الصدور]، وعجِلْن بعُشَّاقهنَّ إلى القبور.

ولا طرب الكِنانيِّ المُقْرئ الشيخ الصالح على غناء هذه(١١٧) في صوتها(١١٨) المعروف بها:

عهودُ الصِّبا هاجتْ ليَ اليومَ لوعةً	وذكـرُ سُـلَيمَى حـين لا ينفـع الـذِّكرُ
بأرضٍ بها كان الهوى غير عازبٍ	لدينا وغَضٌّ(١١٩) العيش مُهتَصَرٌ نَضْرُ
كأنْ لم نعِشْ يومًا بأجْراع بِيشَةٍ	بأرضٍ بها أنشا(١٢٠) شَبيبتنا الدهر
بلى إن هذا الدهرَ فرَّق بيننا	وأيُّ جميـعٍ لا يفرِّقـه الـدهر؟

ولا طربَ غلامٍ بابا على جارية [أبي] طلحة الشاهد(١٢١) في سوق(١٢٢) العطش إذا غنَّت:

ليـتَ شـعري بـك هـل تعـ	ـلمُ أنـي لـك عـاني؟
فلقـدْ أسـرَرْتُه مِنـ	ـك وأَطلعـتُ الأمـاني
وتوهَّمتُـك فـي نفـ	ـسي فناجـاك لسـاني
فاجتمعنـا وافترقنـا	بالأمـاني فـي مكـانِ

ولو ذكرتُ هذه الأطراب من المستمعين، والأغانيَّ من الرجال والصبيان والجواري والحرائر؛ لطال وأَمَلَّ، وزاحمتُ كلَّ من صنَّف كتابًا في الأغاني والألحان، وعهدي(١٢٣) بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة.

وقد أحصينا – ونحن جماعةٌ في الكرخ – أربعمائةٍ وستين جاريةً في الجانبين،[١٢٤] ومائةً وعشرين حُرَّة، وخمسةً وتسعين من الصِّبيان البُدُور، يجمعون بين الحِذق والحُسن والظَّرْف والعِشرة. هذا سوى مَن كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزَّته وحَرَسه ورُقبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نَشِط في وقت، أو ثَمِل في حال، وخلع العِذار في هوًى قد حالفه وأضناه، وترنَّم وأوقع، وهزَّ رأسَه، وصعَّد أنفاسه، وأطرب جُلَّاسه، واستكتمهم حالَه، وكشف عندهم حجابَه، وادعى الثقة بهم، والاستِنامة إلى حِفاظِهم.

ثم إني أرجع إلى مُنْقَطع الكلام في الصفحة الأولى من هذا الجزء الثالث، وأَصِلُه بالدعاء الذي أسأل الله أن يقبله فيك، ويحققه لك وبك! وأقول: وأبقاك لي خاصةً، فقد تعصَّبْتَ لي غائبًا وشاهدًا، وتعمَّمْتَ[١٢٥] بسببي سرًّا وجهرًا، وبدأتَ بالتفضل، وعُدْتَ بالإفضال، وتظاهرتَ بالفضل. فإن استزدتُك فللنَّهم[١٢٦] الذي قلَّما يخلو[١٢٧] منه بشر، وإن تَظَلَّمْتُ فللدَّالَّة التي تَغْلَط بها الخدم،[١٢٨] وإن خاشنْتُ[١٢٩] فللثقة بحسْن الإجاب،[١٣٠] وإن غالظتُ[١٣١] فلعلمي بغالِب الحِلم وفرْط الاحتمال. وما افترق الكرمُ والتغافلُ قط، وما افترق المجدُ والكَيْس قط، وليس إلا أن يظلم السيد نفسَه لعبده في الحقوق اللازمة وغير اللازمة، ويُعرض عن الحجة وإن كانت له. والناس يقولون: الحقُّ مر، وأنا أقول: السُّؤدد مر، والرئاسة ثقيلة، والنزولُ تحت الغَبْن شديد. لكن ذلك كلَّه منْبِت العزِّ، ودليلٌ على صحة الأصل، وبابٌ إلى اكتساب الحمد، وإشادةِ الذِّكر، وإبعاد الصِّيت. ومُكْرِم النفس بإهانة المال، وبذل الجاه،

وإيثار[١٣٢] التواضع؛ أربح تجارةً، وأَحمَى حريمًا، وأعزُّ ناصرًا من مُهين النفس بصيانة المال، وحبْس الجاه، واستِعمال التكبر. هذا ما لا يشك فيه أحد وإنْ أباه طِباعُه، ولم يساعده اختياره، وكان في طينه يُبْس، وفي مَنْبِته شوك، وفي عِرْقِه خَوَر، وفي خُلُقه تيه.

وقد رأيت ناسًا من عظماء أهل الفضل والمروءة عابوا مذهب الرجل الذي ماكس في شيء تافهٍ يسير اشتراه، قيل له: أنت تَهَب أضعاف هذا، [فما هذا المِكاس]؟! فقال: هذا عقلي أبخَل به، وتلك مروءتي أجود بها.

وأكثر الناس الذين لم يَغُوروا في التجارب، ولا أنجدوا[١٣٣] في الحقائق، يرون هذا حكمةً تامة، وفضيلةً شريفة.

فأما الذين ذكرتُهم في أول الحديث فإنهم قالوا: لا تتم المروءةُ وصاحبُها ينظر في الدقيق الحقير، ويعيد القول ويبدئه في الشيء النَّزْر[١٣٤] الذي لا مردَّ له ظاهر، ولا جدوى حاضرة.

وذكروا أيضًا أن العقل أشرف من أن يُذال[١٣٥] في مثل هذه الحال، ويُستخدم على هذا الوجه، قالوا: هذا وما هو في بابه بالكيس أشبه، والكَيْس يُحمَد في الصِّبْيان، وهو من مبادئ اللؤم، وفوائح صدأ الخُلُق، وقد قال الأول:

وقد يَتغَابَى المرءُ عن عُظْم مالِه ... ومن تحت بُرْدَيه المغيرة أو عمرُو[١٣٦]

ولذلك يقال للحيوان الذي لا ينطق: هو كَيِّس.

هذا والله الصدق، فإني سمعت بمكة أعرابيًّا يقول: ما أَكْيَس هذا القطَّ؟![137]

قالوا: ولذلك لا يقال للشيخ المجرِّب والحكيم البليغ والأصيل في الشرف والمشهور بالزَّماتة[138] والسكينة: كَيِّس. والكَيْس هو حدة الحس في طلَب المَثالة ودفع الكريهة وبلوغ[139]الشهوة. والحسُّ بعيدٌ من العقل، والعالي في الحس كأنه يرتقي في وادي الحيوان الذي لا نطق له،[140] والعالي في العقل كأنه مطمئِنٌّ في وادي المَلَك الذي لا حسَّ له، والملَكُ لم يَعْدَم الحِسَّ لنقصه ولكن لكماله لأنه غني عنه، كما أن الحمار لم يعدَم العقل لكماله ولكن لنقصه. [ولما لم يُرَد من الحمار أن يكون إنسانًا جُبِل على ما هو له وبه كاملٌ في نقصه، أي هو كاملٌ بما هو به حمار، وناقص بما ليس هو به إنسانًا.] ولما لم يُرَد من الإنسان أن يكون حمارًا حُفِظ عليه ما هو به إنسان، ودُرِّج إلى كمال الملَك الذي هو به شبيه، وهذا التدريج طريقه على الاختيار [الجيد] والتوفيق السابق.

وبَعُدْتُ – جعلني الله فداك – عن منهج القول وسَنَن[141] الحديث، وأطعتُ داعية الوَسْواس، وذهبتُ مع سانح الوهم، وقد قيل: «الحديثُ ذو شجون.»

وقد قال الأول:

ولما قضينا من منًى كلَّ حاجةٍ ومسَّح بالأركان من هو ماسحُ

أخـذنا بـأطراف الأحاديـث بيننـا وسـالتْ بأعنـاقِ المَطِـيِّ الأبـاطحُ

فأرجع [وأقول]:

قد أوصلت إليك الجزأين الأول والثاني على يد غلامك فائق، وهذا الجزء – وهو الثالث – قد والله نفثْتُ[١٤٢] فيه كلَّ ما كان في نفسي من جِدٍّ وهزل، وغثٍّ وسمين، وشاحبٍ ونضير، وفكاهةٍ وطيب، وأدبٍ واحتجاج، واعتذارٍ واعتلال واستدلال، وأشياءَ من طريف[١٤٢] المِمالَحة على ما رُسم لي، وطُلب مني. ولأنه آخر الكتاب ختمتُه برسالة وصلتُها بكلامٍ في خاصِّ أمري ستقف عليه، وتستأنف نظرًا في حالي، يكون – إن شاء الله – كظني بك، ورجائي فيك. وفيه بعض العربدة[١٤٤] لم أخرج منه إلى كفرانٍ لنعمة، ولا جحدٍ لإحسان، ولا سْترٍ ليدٍ، ولا إنكارٍ لمعروف، ولا شكٍّ في عناية. وإنما تكلمت على مذهب المُدِلِّ المُقِلِّ الذي يبعثه إقلالُه على تجاوز قدره بالدالَّة، ويَريعُ[١٤٥] به إدلالُه عن حُسن أدبه بفرط الثقة. وربَّ واثقٍ خَجِل، وبالله المَعاذُ من ذلك! وفي الحالين صاحب هذا المذهب لا يخلو من ولاءٍ صحيح المُعْتقَب، وعقيدةٍ كسبيكة الذهب. وأنت بكرم[١٤٦] طِباعك وسَعَة باعك تَجبُر نقصي، وتأسو ما غثَّ[١٤٧] من جراحي، وأمات اهتمامي. ومن كان إحسانُك إليه مشكورًا، وتعذيرك[١٤٨] عنده مستورًا لخليقٌ أن يكون على بالك خاطرًا، وبلسانك مذكورًا. والسلام.

وها أنا آخذُ في نشر ما جرى على وجهه إلا ما اقتضى من الزيادة في الإبانة والتقريب، والشرح والتكشيف.

وقد جمعتُ لك جميع ما شاهدته في هذه المدة الطويلة، ليكون حظك من الكرم والمجد موفورًا، ونصيبي من اهتمامك بأمري وجذبِك بباعي وإنقاذِك إياي من أسري تامًّا، فظني واعدٌ بأنك تبلغ بي ما آملُه فيك وتتجاوزه وتتطاول إلى ما فوقه، لأزداد عجبًا مما خصك الله به وأفردك فيه، وأتحدثَ على مر الأيام بغريبه، وأحُثَّ كل من أراه بعدك على سلوك طريقك في الخير، ولزومِ منهاجك في الجميل، والدينونة بمذهبك المستقيم، وأكايد أصحابنا ببغداد وأقول [لهم]: هل كان في حسبانكم أن يطلُع عليكم من المشرق من يزيد[١٤٩] ظَرفه على ظَرْفكم، «ويبعُد[١٥٠] بعلمه على علمكم»، ويُبرز هذا التبريز في كل شيء تفخرون[١٥١] به على غيركم؟ فأناظرهم فيك وبسببك[١٥٢] لا مناظرة الحنبليين مع الطبريين، وأتعصب لك لا تعصب المُفضَّليين[١٥٣] والبُرْغُوثيين.[١٥٤] وأجادل من أجلك لا جدل الزيديين[١٥٥] مع الإماميين. وأَدَّعي في فضائلك الظاهرة والباطنة دعوى أقوى من دعوى الشِّيعِيين. وأضرب في ذلك كلَّ مثَل، وأستعينُ بكل سجع، وأروي كل خبر، وأنشد كل بيت، وأعبِّر كل رؤيا، وأقيم كل برهان، وأستشهد كلَّ حاضرٍ وغائب، وأتأول كلَّ مُشْكِل وغامض، وأضيفُ إليك الآية بعد الآية، والمعجزةَ بعد المعجزة، وأَنْصَلِتُ [١٥٦] لكل ضريبة، وأدَّعي كلَّ غريبة. هذا، ولا أخلط كلامي بالهزل، ولا أَشِين دعواي بالمُحال، ولا أُبعِد الشاهد، ولا أتعلَّق بالمُسْتعجِم، ولا أَجنح إلى التلفيق والتلزيق. وكيف لا أفعل هذا ولي في قول الحق فيك مندوحة، وفي تقديم الصدق على غيره كفاية، وفي نشر المَطْويِّ من فضلك بلاغ؟ وإنما يميل إلى

الكذب من قَعَد به الصدق، ويتيمَّم بالصعيد من فاته الماء، ويحلُم بالمُنْي من عَدِم المتمنَّى في اليقظة. فأما أنت وقد ألبسك الله رداء الفضل، وأطلعك من مَنْبتٍ كريم، ودرَّجك من بيتٍ ضخم، وآتاك الحكمة، وفتق لسانك بالبيان، وأَتْرع[١٥٧] صدرك بالعلم، وخلَط أخلاقك بالدَّماثة، وشهَرك بالكرم، وخفَّف عليك النهوض بكل ما يُكسِبك الشكر من القريب والبعيد، وبكل ما يَدَّخر لك الأجر عند الصادر والوارد، حتى صرتَ كهفًا لأبناء الرجاء ومَفْزعًا لبني الآمال؛ فبابُك مَغْشيٌ مَزُور، وفِناؤك مُنْتاب، وخِوانُك[١٥٨] محضور، وعلمك مقتبَس، وجاهك مبذول، وضيفُك محدَّث، وكتبك مستعارة، وغَداؤك حاضر، وعَشاؤك معجَّل، ووجهك مبسوط، وعفوك محمود، وجِدُّك مشكور، وكلُّ أمرك قائمٌ على النهاية، وبالغٌ الغاية. والله يزيدك ويزيدنا بك، ولا يبتلينا بفقد ما أَلِفناه منك، بمنِّه وجوده!

هوامش

(١) في «أ»: «ولا طرب».

(٢) في كلتا النسختين: «السلقي»، والياء زيادة من الناسخ. ودرب السلق محلة ببغداد.

(٣) في «ب»: «الشروي» بالمعجمة.

(٤) في نسخة: «ابن قثيم».

(٥) في «أ»: «لتشدوها»، وهو تحريف.

(٦) في «أ»: «وتعرف»، وهو تحريف. ووردت هذه الكلمة والتي بعدها في «ب» مطموستي الحروف تتعذر قراءتهما.

(٧) في «أ»: «وهاب وجالك»، وهو تحريف. كما وردت هذه العبارة في «ب» غير واضحة.

(٨) في «أ»: «الحكاية»، ووردت هذه الكلمة مطموسة الحروف في «ب». ولعل صواب الكلمة ما أثبتنا بدليل ما سبق في قوله: «ويخرق المرقعة ... إلخ.»

(٩) هيا شراهيا: كلمة عبرانية معناها «يا حي يا قيوم» كما في المصباح وفي القاموس مادة (شره). أشر إهيا، بفتح الهمزة والشين: كلمة يونانية معناها الأزلي الذي لم يزل، والناس يغلطون ويقولون «أهيا شراهيا»، وهو خطأ على ما يزعمه أحبار اليهود.

(١٠) في كلتا النسختين: القطان. والذي وجدناه في محلات بغداد دار القطن لا القطان، وإليها يُنسب الدارقطني.

(١١) القضيبية: نسبة إلى القضيب الذي توقع به.

(١٢) في «أ»: «تناوت»، وفي «ب»: «تبارت»، وهو تحريف في كلتا النسختين. والصواب ما أثبتنا كما يدل عليه الكلام الآتي بعد. وتناوأت: أي تثاقلت وتظاهرت بالإعياء والتعب من ناء بالحمل ينوء.

(١٣) وتضاجرت على ضجرتها: أي تظاهرت بالضجر زيادة على ما فيها منه. وفي كلتا النسختين: وتخاطرت، مكان قوله «وتضاجرت»، وهو تحريف لا معنى له. وفي «أ»: على صخرتها، وهو تحريف أيضًا.

(١٤) سلبها منها: نظير قول المؤلف في وصف بعض الغلمان المغنين في [الجزء الثالث – المقدمة] «يسرقك منك».

(١٥) أنساها إياها: أي أنساها نفسها.

(١٦) في «ب»: «وحار»، وهو تحريف.

(١٧) كذا في كلتا النسختين، ولعله من التفدير في الثوب، أي الزيادة والفضل. وهو دخيل كما يظهر لنا، إذ لم نجده فيما لدينا من كتب اللغة، غير أن ذلك مستعمل في بعض بلاد مصر ويطلقون عليه الفدار بفتح الفاء، أي الزيادة. أو لعل صوابه: «المفزرين» بالزاي المشددة، أي المشقوقين، فإن شق الكمين لا يزال معروفًا حتى اليوم في أقبية أهل العلم والقضاء.

(١٨) المتخلجتان: أي المضطربتان المرتعشتان، ويكون ذلك من الضعف وكبر السن.

(١٩) المرط من ملابس النساء معروف، وفي كلتا النسختين: «شرطًا»، وهو تحريف، إذ لم نجد له معنى يناسب السياق.

(٢٠) في كلتا النسختين: «وفرطًا» بالفاء، وهو تصحيف.

(٢١) في «أ»: و«قيامه يقوم.» ووردت هذه العبارة في «ب» غير واضحة الحروف.

(٢٢) في «أ»: «تنتابني»، وهو تحريف.

(٢٣) في «أ»: «نزل»، وهو تحريف.

(٢٤) جاب الصخر: قطعه.

(٢٥) الجديلة: الطريقة.

(٢٦) في «أ»: «نموت»، وهو تحريف.

(٢٧) يشير إلى شهرة أهل أصبهان بالبخل.

(٢٨) في «ب»: «علمته».

(٢٩) في «أ»: «عرف»، وهو تصحيف.

(٣٠) في «أ»: كردان (بالنون)، وهو تحريف. والجرداب كلمة فارسية معناها دوامة الماء وهي وسط البحر ولجته التي يدوِّم عليها الموج، وهي بالجيم. ولعل العرب كانوا ينطقونها بالكاف.

(٣١) آئض: أي راجع.

(٣٢) في «أ»: «حاش»، بالحاء والشين المعجمة. وفي «ب»: حاس، بالحاء والسين المهملة. ولم نجد لواحدة منهما معنًى يناسب السياق، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٣٣) في كلتا النسختين: «والإفراج»، وهو تحريف.

(٣٤) ورد هذا البيت في «أ» هكذا:

إذا استعقب رقي من ليالٍ   تصرفي فأسرني في خلاصي

وفيه تحريف ظاهر.

(٣٥) في «أ»: «طعس»، وهو تحريف.

(٣٦) حرث النار: حركها. وفي كلتا النسختين: «محرشة» بالشين، وهو تصحيف.

(٣٧) في «أ»: «شهابها»، وهو تحريف.

(٣٨) لعله نسبة إلى العوذ من بني أسد. والذي في كلتا النسختين: ابن العودي، بالدال المهملة، ولم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب.

(٣٩) في «أ»: «شرف». وما أثبتناه عن «ب» وهو الأرجح أن يكون من أسمائهن.

(٤٠) في كلتا النسختين: «فإن بلداته»، وهو تحريف لا معنى له.

(٤١) في كلتا النسختين: «عمي» بدون ألف ولام، ولعل صوابه ما أثبتنا. والعمِّيُّ نسبة إلى العمِّ بطن من تميم.

(٤٢) بين السورين: محلة كبيرة كانت بكرخ بغداد وكانت من أحسن محالِّها وأعمرها. وقد وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين بعد قوله «العمي»، واللائق إثباتها في هذا الموضع.

(٤٣) في «ب»: «من لام»، وهو تحريف.

(٤٤) كذا ضُبِط هذا الاسم بالعبارة في شرح القاموس.

(٤٥) في «أ»: جاريته، وهو تحريف.

(٤٦) في «أ»: صورتها.

(٤٧) هنا كلمة مطموسة في «أ» قبل هذه الكلمة.

(٤٨) في «أ»: «والشعر».

(٤٩) تفتلت: أي تلوت. وفي كلتا النسختين: «وتقبلت»، وهو تصحيف إذ لا يناسب معناه سياق ما هنا. ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله بعد: «وتقتلت»، أي تثنت في مشيتها.

(٥٠) في «أ»: «ونجيب»، وهو تصحيف.

(٥١) هذه الكلمة مطموسة في «أ».

(٥٢) على ابن بهلول: أي على غناء ابن بهلول.

(٥٣) في «أ»: «ورفع»، وهو تصحيف.

(٥٤) الدغدغة والزغزغة: كلا اللفظين بمعنًى واحد، وقد استعارها هنا لما يلزم ذلك من معنى الخفة والسرور وانبساط النفس.

(٥٥) في «أ»: «حيومة» بالميم، وهو تحريف.

(٥٦) على غلام: أي على غناء غلام.

(٥٧) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين بالدال المهملة، وهو تصحيف.

(٥٨) ورد هذا البيت في «أ» أكثر حروفه مهملة من النقط.

(٥٩) في «ب»: «أحلامهم»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٦٠) العنَّاز: طبل كان يعلقه المخنَّثون وأصحاب الغناء في أعناقهم. والذي في «أ»: «وقد عانق غبارًا.»

(٦١) العيارة: تخلية المرء نفسَه وهواها لا يردعها ولا يزجرها.

(٦٢) في «أ»: المدير، وهو تصحيف.

(٦٣) في كلتا النسختين: «الممتع» بالتاء، وهو تصحيف. وما أثبتناه هو مقتضى سياق الكلام.

(٦٤) في «أ»: وفتنة، وهو تبديل من الناسخ لتكرره مع ما قبله.

(٦٥) كذا في «ب». والذي في «أ»: ولست أخوفه باللقا، والمعنى عليه غير مستقيم.

(٦٦) في «أ»: «قعدا»، وهو تحريف.

(٦٧) في «أ»: وليست، وهو تحريف.

(٦٨) في «أ»: «بغاية»، وهو تصحيف.

(٦٩) في «أ»: «الزينة»، وهو تصحيف.

(٧٠) في «ب»: زرعة، وهو تحريف. وروعة من أسمائهن.

(٧١) في «أ»: السنودي، وفي «ب»: «السسودي». ولم نجد هاتين النسبتين فيما راجعناه من كتب الأنساب، ولعل الصواب ما أثبتناه. والسندواني نسبة إلى السندية وهي قرية بنواحي بغداد.

(٧٢) في «أ»: منى، وهو تحريف.

(٧٣) كذا وردت هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين في كلا الأصلين، ولم نتبين معناها، ولعله تحريف صوابه «إذا خلعت من عذارها».

(٧٤) كذا في «ب»، والذي في «أ»: أكبرها، وهو تحريف.

(٧٥) في «ب»: ينتابنا، وفي «أ»: فتأتنا، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٧٦) عبارة «أ»: واسترسلت من الرأس.

(٧٧) كذا في «ب»، والذي في «أ»: الزنديري، وهو تحريف إذ لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب.

(٧٨) في «أ»: «من أسى بكم»، وهو تحريف.

(٧٩) حولق: أي أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.

(٨٠) في «أ»: «من الذنوب».

(٨١) هذه الكاف ساقطة من «أ».

(٨٢) في كلتا النسختين: «أودع»، وهو تحريف.

(٨٣) في «أ»: «وأكره»، وهو تحريف.

(٨٤) في «أ»: ابن المنيعي، وهو تحريف إذ لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من معجمات النسب.

(٨٥) في «أ»: «علون»، وهو تحريف.

(٨٦) في «أ»: «لقدمكم»، وفي «ب»: «أفديكم». وما أثبتناه هو ما كتبه المصحح في «ب» في حاشية الصفحة.

(٨٧) في «أ»: «وأشاعركم»، وهو تحريف.

(٨٨) في «أ»: «تجسى»، وهو تحريف.

(٨٩) أنفس بهما عليكم، أي أضن.

(٩٠) في «ب»: «أعاصيكم»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٩١) في «أ»: «ثقل» بالثاء المثلثة، وهو تصحيف. وبقل وجه الغلام: أي خرجت لحيته.

(٩٢) الدغدغة والزغزغة كلا اللفظين بمعنى واحد، والمراد هنا انبساط الروح وهشاشته.

(٩٣) السكاك: الجو. وفي «أ»: الشكاك بالشين المعجمة، وفي «ب»: «السكال» باللام في آخره، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٩٤) في «أ»: «السياسة» مكان «الهشاشة»، وهو تحريف.

(٩٥) في «أ»: «أخباري»، وهو تصحيف.

(٩٦) الدبيقي من دق الثياب، منسوب إلى قرية بمصر كان يُنسَج فيها اسمها دبيق.

(٩٧) الشطوي: نسبة إلى شطا قرية بمصر كانت تُنْسج فيها هذه الثياب.

(٩٨) الفروج: قباء فيه شق من خلفه.

(٩٩) في «ب»: «الشيكة»، وهو تحريف. والسك: ضرب من الطيب معروف، وقد ذكره صاحب نهاية الأرب في الجزء الثاني عشر، الطبعة الأولى. وذكر كيفية عمله وتوسع في ذلك فانظره.

(١٠٠) ١٠٠ في «أ»: «مع الحقة»، وقوله «مع» خطأ من الناسخ.

(١٠١) في كلتا النسختين: «شيئًا».

(١٠٢) في «ب»: «والنواد»، ولعل المراد بالبوارد ما يُؤكل من الأطعمة باردًا.

(١٠٣) الجوزيات: أنواع من الأطعمة تُصنع من الجوز. وفي كلتا النسختين: والجوزايات، وهو تحريف.

(١٠٤) في كلتا النسختين: «قيراط»، ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق، ولعل صوابه ما أثبتنا. والأقراط جمع قِرط بكسر أوله وسكون ثانيه، وهو نوع من الكراث يقال له كراث المائدة.

(١٠٥) في «أ»: و«خبز»، وهو تحريف.

(١٠٦) كذا ورد هذا الاسم في كلتا النسختين، ولم نتبين وجه الصواب فيه بعد طول المراجعة والبحث.

(١٠٧) الفقاع: شراب يُتخذ من الشعير.

(١٠٨) مخلط خراسان: طعام يُصنع من أنواع شتى.

(١٠٩) صريفين: من قرى بغداد، تُنسب إليها الخمر.

(١١٠) كذا ورد هذا الاسم في كلتا النسختين.

(١١١) في «ب»: «من لذتكم»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(١١٢) في كلتا النسختين: «الطينة»، وهو تحريف.

(١١٣) بيان بكسر الباء: مصدر باينه أي فارقه، أي لا أموت على قطيعة وفرقة.

(١١٤) عبارة «أ»: «مني لم أصافح»، وهو تحريف.

(١١٥) في كلتا النسختين: «ساس» بمهملتين، وهو تصحيف. والشاش بمعجمتين: قرية بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون.

(١١٦) في «أ»: «عرية»، وفي «ب»: «غزية»، وهو تحريف في كلتا النسختين إذ لم نجد ذلك فيما راجعناه من الكتب المؤلفة في النقود، ولعل صوابه ما أثبتنا. والمعزية نسبة إلى معزِّ الدولة البويهي.

(١١٧) هذه: أي صبابة السابق ذكرها.

(١١٨) في «ب»: «وضربها»، وهو تحريف.

(١١٩) في «أ»: «وغصن».

(١٢٠) في «أ»: «أنسا»، وهو تصحيف. وأنشا: أي أنشأ بالهمز.

(١٢١) عبارة «أ»: «السناهيقي»، وهو تحريف.

(١٢٢) سوق العطش: محلة كبيرة كانت ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلَّى، وقيل: إن سوق العطش كانت بين باب الشماسية والرصافة.

(١٢٣) في كلتا النسختين: «فلعهدي»، واللام زيادة من الناسخ.

(١٢٤) في «أ»: «الخلتين»، وهو تحريف.

(١٢٥) في «أ»: «وتنعمت بسنتي»، وهو تحريف في كلا اللفظين. والمراد بتعمَّمت وتعصَّبت واحد، إذ إن مأخذ اللفظين من العصابة والعمامة اللتين كانتا تُلبسان في الحرب يعلِّم بهما الفارس نفسه بين الأقران، فتُجُوِّز في معنيَيهما واستُعملا في انتصار المرء لصديقه ودفاعه عنه في الحرب وفي غيرها.

(١٢٦) في نسخة: «فللشره»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(١٢٧) في «ب»: «يخلص»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(١٢٨) في «أ»: «يغلط بها الحزم.» ولهذه العبارة معنى غير مستبعد، غير أن ما أثبتناه في صلب الكتاب أظهر وأشهر.

(١٢٩) في «أ»: «حاسبت»، وفي «ب»: «حاشيت»، وهو تصحيف في كلتا النسختين، إذ لا معنى لكلا اللفظين يناسب السياق. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(١٣٠) الإجاب (بهمز فجيم): الإجابة.

(١٣١) في كلتا النسختين: «غالطت» بالطاء المهملة، وهو تصحيف.

(١٣٢) في «أ»: «وإتيان».

(١٣٣) في «أ»: «ولا اتحذوا»، ووردت هذه الكلمة في «ب» مطموسة الحروف يُتعذَّر قراءتها. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(١٣٤) في «أ»: «المتردد»، وهو تحريف.

(١٣٥) في «أ»: «يدال» بالمهملة، وهو تصحيف.

(١٣٦) يريد المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، ويشير إلى ما كانا يُعرفان به من الدهاء والذكاء. وفي «أ»: ابن عمرو، وهو تحريف.

(١٣٧) في «أ»: الفظ، وهو تصحيف.

(١٣٨) في «أ»: بالرماية، وهو تصحيف. وفي «ب»: بالديانة. وما أثبتناه أنسب بقوله بعدُ: والسكينة.

(١٣٩) في «ب»: واتباع.

(١٤٠) في «أ»: الذي ينطق له، وهو تحريف لا يستقيم به المعنى.

(١٤١) في «أ»: «عن سنن»، وقوله «عن» زيادة من الناسخ، والصواب ما أثبتنا.

(١٤٢) في «أ»: «بقيت»، وهو تصحيف.

(١٤٣) في نسخة: «من حديث».

(١٤٤) في «أ»: «الغرفدة»، وهو تحريف.

(١٤٥) يريع: أي يرجع. وفي «أ»: «ويرفع»، ولا معنى له يناسب السياق.

(١٤٦) في «أ»: «تكثر من»، وهو تحريف.

(١٤٧) في «أ»: «ما غب»، وهو تصحيف. وغث الجرح: أي سال غثيثه، وهو مِدَّته وقيحه.

(١٤٨) وردت هذه الكلمة في «أ» مهملة الحروف من النقط، ووردت في «ب»: «وتقديرك»، وما أثبتناه هو مقتضى السياق. والتعذير: التقصير.

(١٤٩) في «أ»: «يرتد طرفه على طرفكم»، وهو تصحيف في هذه الكلمات الثلاث.

(١٥٠) كذا وردت هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين في «أ»، والمعنى عليها مستقيم. والذي في «ب»: «وينقد بعلمه في علمكم»، وفي قوله «وينقد» بالقاف والدال تصحيف ظاهر صوابه: «وينفذ».

(١٥١) في «ب»: «محزون»، وهو تحريف.

(١٥٢) في كلتا النسختين: «وبسننك»، وهو تصحيف.

(١٥٣) المفضليون: فرقة تُنسب إلى المفضل بن عمرو من الشيعة الإمامية، يقولون بأن الإمامة بعد موسى بن جعفر قد انتقلت إلى ابنه محمد بن موسى. والمفضليون أيضًا فرقة أخرى تُنسب إلى المفضل الصيرفي، وهذا قد قال إن جعفر بن محمد إله، فطرده ولعنه. والبرغوثيون فرقة من النجارية أصحاب محمد بن الحسين النجار، والبرغوثية هذه تُنسب إلى

محمد بن عيسى الملقب ببرغوث. والذي في كلتا النسختين: والمرعوشيين، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا. انظر «الملل والنحل» و«خبيئة الأكوان» و«معالم الدين».

(١٥٤) المفضليون: فرقة تُنسب إلى المفضل بن عمرو من الشيعة الإمامية، يقولون بأن الإمامة بعد موسى بن جعفر قد انتقلت إلى ابنه محمد بن موسى. والمفضليون أيضًا فرقة أخرى تُنسب إلى المفضل الصيرفي، وهذا قد قال إن جعفر بن محمد إله، فطرده ولعنه. والبرغوثيون فرقة من النجارية أصحاب محمد بن الحسين النجار، والبرغوثية هذه تُنسب إلى محمد بن عيسى الملقب ببرغوث. والذي في كلتا النسختين: والمرعوشيين، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا. انظر «الملل والنحل» و«خبيئة الأكوان» و«معالم الدين».

(١٥٥) الزيديون: أصحاب زيد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم. وهذه الفرقة تقول: إن الإمامة لأولاد فاطمة لا يشاركهم فيها أحد ولا يسوِّغون إمامة غيرهم. والإمامية فرقة من الشيعة تقول إن الإمامة لعلي بن أبي طالب بعد محمد صلى الله عليه وسلم نصًّا وتصريحًا وإشارة إليه بالعين.

(١٥٦) في «أ»: «وأتصلب»، وهو تصحيف.

(١٥٧) في «أ»: «ودع»، وهو تحريف.

(١٥٨) في «أ»: «وجوابك»، وهو تصحيف.

الليلة التاسعة والعشرون

قال الوزير – أعز الله نصرَه،[1] وأطاب ذكرَه، وأطار صيتَه – ليلةً: أحبُّ أن أسمع كلامًا في قول الله عز وجل: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، فإن هذا الإيجاز لم يُعْهد في كلام البشر.

فكان من الجواب: إن الإشارة في «الأول» إلى ما بدأ الله به من الإبداع [والتصوير]، والإبراز والتكوين. والإشارةَ في «الآخِر» إلى المصير إليه في[2] العاقبة على ما يجب في الحكمة من الإنشاء والتصريف، والإنعام والتعريف، والهداية والتوقيف. وقد بان بالاعتبار[3] الصحيح أنه عز وجل لمَّا كان محجَّبًا عن الأبصار ظهرتْ آثاره في صفحات العالَم وأجزائه، وحواشيه وأثنائه،[4] حتى يكون لسانُ الآثار داعيًا إلى معرفته، ومعرفتُه طريقًا إلى[5] قصده، وقصدُه سببًا للمكانة عنده والحُظْوة لديه. على أنه في احتجابه بارز، كما أنه في بروزه محتجِب، وبيان هذا أن الحجاب من ناحية الحس، والبروز من ناحية العقل، [فإذا طُلب من جهة الحس وُجِد محجوبًا، وإذا لُحِظ من جهة العقل] وُجِد بارزًا. وهاتان الجهتان ليستا له تعالى، ولكنهما للإنسان الذي له الحسُّ والعقل، فصار بهما كالناظر من مكانين، ومن نظر إلى شيءٍ واحدٍ من مكانين كانت نسبتُه إلى المنظور إليه مفترِقة. وإنما شق هذا الأمر على أكثر الناس واختلفوا فيه لأنهم راموا تحقيق ما لا يُحَسُّ

بالحس، ولو راموا ذاك بالعقل المحض بغير شَوْبٍ من الحس لكان المَرُوم يسبق الرائم، والمطلوب يلوح قُبالة الطالب من غير شكٍّ [لابس، ولا ريبٍ مُوحش، لأنه ليس في العقل والمعقول شكٌ]، وإنما الريب والشك والظن والتوهم كلها من علائق الحس وتوابع الخِلْقة. ولولا هذه العوارض لما اغبرَّ وجه العقل، ولا علاه شحوب، ولبقي على نَضرته وجماله[٦] وحُسنه وبهجته. ولما كان الإنسان مَفيض[٧] هذه الأعراض في الأول، صار مفيض٧ هذه الأحوال في الثاني، فاستعار من العقل نورَه في وصف الأشياء الجسمية جهلًا منه وخطأ، واستعار من ظلام الحسّ في وصف الأشياء الرُّوحانية عجزًا منه ونقصًا، ولو وُفِّق لوضع كلَّ شيء موضعه ونَسبه إلى شكله، ولم يرفع الوضيع إلى محل الرفيع، ولم يضع الرفيعَ في موضع الوضيع.

فلما بلغ الحديث هذا الحد، عجِب الوزير وقال: ما أعذبَ هذا المورد! وما أعجب هذا المشهد! وما أَبعد هذا المقصد! وما أرى لمصنِّفٍ[٨] من الموحِّدين متصرَّفًا في هذا النوع إلا لهذه العِصابة الكريمة المخصوصة باليقظة.[٩]

وسأل عن جُشَمَ في اسم الرجل ما معناه.

فكان من الجواب: إن أبا سعيد السيرافي الإمام ذكر عن ابن الأعرابي أنه يقال: «رجلٌ عظيمُ الجُشَم.» يعني وَسَطه، ومنه سُمِّي جُشَم.

وقال: ما الحِمْحِم؟ وما الخِمْخِم؟[10] فقيل: أما الحمحم فبَقْلٌ يهيج في أول الصيف، وينبت فيؤكل في ذلك الوقت، وأما الخمخم فبَقْلٌ آخرُ خبيثٌ منْتن الريح.[10]

وقال: فأرة المِسْك، أتقولُها بالهمز؟

فكان من الجواب: حكاه ابن الأعرابي بالهمز.

قال: عارِضَا الرجل ما يُعنَى بهما؟

قيل: قال أبو سعيد السيرافي: هما شَعر خدَّيه، ولو قلت [لأمرد]: امسح عارضَيْك، كان خطأً.

وقال: سمعتُ اليوم في كلام ابن عُبَيد: لَايَثَه، وظننت أنه أراد: لاوَثَه، من اللَّوْث [لَوْث] العمامة.

فقيل: بل يقال: لَايَثَه، إذا تشبَّه بالليث.

وقال: ما الشاكِد؟

فقيل: المُعْطِي من غير مكافأة.

قال: أوَتَهمز الكلمة؟[11]

فقيل: إني لو لم أَهمز لكان مُفاعَلةً من كفَيْتُ.

قال: والثانية[١٢] تكونُ من كفَأْتُ الإناء، فما معناه؟

قيل: قال أبو سعيد: كأنه قلَب الحالَ إليه بالمِثل.

قال: الذَّوْد، ما قدْر عدده من الإبل؟ فكان من الجواب أن ابن الأعرابي قال: الذود ما بين الثلاثة إلى العشرة، وإذا بلغت العشرين أو قاربت فهي قِطعةٌ وصُبَّةٌ وفِرْقةٌ وصِرْمةٌ حتى تبلغ الثلاثين والأربعين. ثم هي حُدْرة وعَكَرة وعَجْرَمة حتى تبلغ مائة، ثم هُنَيْدة، فإذا بلغت مائتين فهي خِطْر،[١٢] وكذلك الثلاثمائة. فإذا بلغت أربعمائة فهي عَرْجٌ إلى الألف، والجماعة عُرُوج. فإذا كثرت عن الأربعين والخمسين فبلغت مائةً وزادت فهي جُرْجُور، وإنما سُمِّيت جُرْجورًا لجَرَاجِرِها وأصواتها. وقد تستعير العرب بعضَ هذا فتجعله في بعض.

وقال: ما الفرق بين القَبْص والقَبْض؟ فقيل: القبص لعددٍ ما كان قليلًا أو كثيرًا. قال ابن الأعرابيّ: وأنشدني العامريُّ لابن مَيَّادة:

عَطـاؤكمُ قَـبْصٌ ويَحْفِـن غيـرُكم وَلَلْحَفْن أَغْنى للفقير من القَبْصِ

وقال: القبص بأطراف الأصابع، والقبض بالكف، والحَفْن بالكف والراحةُ إلى فوق مفتوحةٌ قليلًا. هذا لفظه.

وقال: الإلُّ الذي هو العهد هل يُجمع؟ فقيل: حكى ابن الأعرابي في جمعه فقال: إلالٌ وأُلول.[١٤]

وقال: آمَ الرجل ماذا؟ فقيل: هذا على وجوه: يقال: آمَ الرجلُ يَئُوم أُوَامًا من العطش. ويقال: آمَ الرجلُ يَئُوم إيامًا[١٥] وهو الدخان. وآم الرجلُ يئيم إذا بقي بغير حليلة، والأيِّم مستعملٌ في الرجل والمرأة.

قال: هذا نمط مفيد، ويجب أن يُجمع منه جزءٌ أو جزأان ليسهل على الطرْف المَجَال فيه، فإن الكتب الطوال مُسْئِمة، وإذا تداخل اللطيف بالكثيف وما رقَّ بما غلُظ نبتِ النفْس ودبَّ الملل،[١٦] والإنسانُ كسَلُه من طينه، ونشاطُه من نفسه، والطين أغلب من النفْس.

فكان الجواب: السمع والطاعة للأمر المشرِّف.

قال: هات حديثًا يكون مَقْطعًا للوداع، فإن الليل قد عبَس وجهُه، وجنَح كاهِله، وأهدَى إلى العين سِنةً تسرق الذهن وتَسْبِي الرأي.

فكان من الجواب أنه مر بي اليومَ حديثٌ يُضارِع ما جرى منذ ليالٍ في فساد الناس وحُئُول الزمان، وما دهَم الخاصَّ والعامَّ في حديث الدين الذي هو العمود والدِّعامَة في عِمارة الدارَين، وقد طال تعجُّبي منه، وصحَّ عندي أن الداء في هذا قديم، والوجعَ فيه أليم.

قال: فهات فتشْبيبُك[١٧] قد رغَّب شديدًا، وغرامُك١٨ قد بعث[١٩]جديدًا.

فكان [من ذلك] الحديثِ أن محمد بن سلَّام قال فيما حدَّثنا به أبو السائب القاضي عتبة بن عبيد الله قال: حدثنا السكري أبو سعيد

قال: قال محمد بن سلَّام: سمعتُ يونس يقول: فكَّرت في أمرٍ فاسمعوه. قلنا: هاتِه. قال: كلُّ من أصبح على وجه الأرض من أهل النار إلا أمتَنا[٢٠] هذه، والسلطان ومن يُطيف به هَلْكى إلا قليلًا، فإذا قَطعْت هذه الطبقة حتى تبلغ الشأْم فأكَلَة ربًا وباغيةٌ وشَرَبة خمرٍ وباعتُها إلا قليلًا. فإذا خلَّفْت هذا الرمل حتى تأتي رمل يَبْرين وأعلام الروم فلا غسل من جنابة، ولا إسباغ وضوء، ولا إتمام صلاة، ولا علمَ بحدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ إلا قليلًا. فإذا صرتَ إلى الأمصار فأصحاب هذه الكراسيِّ ليس منهم إلا ذئبٌ مُسْتغِرٌّ[٢١] بذنَبه، يَختِلك[٢٢] عن دينارك ودرهمك، يكذِب، ويبخس في الميزان، ويطفِّف في المكيال، إلا قليلًا. فإذا صرْت إلى أصحاب الغلَّات الذين كُفُوا المئونة وأُنعم عليهم [وجدتَهم] يُمسي أحدهم سكران ويصبح مخمورًا، إلا قليلًا، ومعي واللهِ منهم[٢٣] قطيعٌ في الدار. فإذا صرتَ إلى قومٍ لم يُنْعم عليهم بما أُنعم على هؤلاء وهم يشتهون ما يَشتهي هؤلاء؛ فواحدٌ لصٌّ، وآخر طرَّار،[٢٣] وآخرُ مستقْفٍ،[٢٥] إلا قليلًا. فإذا صرتَ إلى أصحاب هذه السواري،[٢٦] فهذا يشهد على هذا بالكفر، وهذا يَبْرأ من هذا. والله لئن لم يعمَّنا الله برحمته إنها للفضيحة.

فقال الوزير: لقد شرَّدتَ النومَ عن عيني، وملأت قلبي عجبًا، فإن الأمر لكما قال، فإذا كان هذا قولَه في عصره، وشجرةُ الدين على نضارة أغصانها وخضرة أوراقها ويَنْع ثمارها؛ فما قوله – تُرَى – فينا لو لَحِقنا وأدرك زماننا؟ إنا لله وإنا إليه راجعون!

هوامش

(١) في «أ»: «رهطه».

(٢) في «أ»: «والعاقبة»، وهو تحريف.

(٣) في «أ»: «الاعتبار» بسقوط الباء، وهو تحريف.

(٤) في «أ»: «وأثباته»، وهو تصحيف.

(٥) في «أ» «في» مكان «إلى»، وهو تحريف.

(٦) في «أ»: «وكماله».

(٧) مفيض بفتح الميم في الموضعين: أي موضع فيض هذه الأعراض وتلك الأحوال.

(٨) في «أ»: «لصنف»، وهو تحريف.

(٩) في «أ»: «بالثقة».

(١٠) كذا ذكر المؤلف في تفسير هذين اللفظين، وقال أبو حنيفة: الحمحم والخمخم واحد. وقال ابن البيطار في الخمخم بالخاء المعجمة: هو اسم عربي لنبات شكله شكل الأنجرة السوداء، إلا أنه أشد خضرة منها، وأغصانه حمر كأغصانها إلا أنها أصلب، ومنابته الوديان والمسايل، وعليه شوك دقيق لصَّاق بكل ما يعلق به من ثوب أو غيره ولا يؤذي اللامس، وكثيرًا ما تنبت هذه النبتة بظاهر القاهرة تحت الجبل الأحمر في مسيل هناك بالقرب من قلعة الجبل. وذكر في الحمحم بالمهملتين أنه هو النبات المعروف بلسان الثور عند أهل الشام وديار بكر، وقال في التعريف بلسان الثور إنه نبات خشن أسود يشبه في شكله ألسنة البقر. وذكر في الحمحم

أنه سمعهم ينطقونه بضم المهملتين. وفي نسخة: «ما الجمجم؟» بجيمين مكان الحمحم بحاءين مهملتين، والجمجم بجيمين عروق تشبه في شكلها ومقدارها عروق الجزر البري المُسمَّى عند أهل الشام الشقاقل.

(١١) يريد بالكلمة: المكافأة.

(١٢) ورد في كلتا النسختين قوله «فقيل» بعد قوله «والثانية»، وهي زيادة من الناسخ لا مقتضى لها هنا.

(١٣) في «أ»: «حظرة»، وفي «ب»: «حطم»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(١٤) لم نجد الألول جمعًا للإلِّ بمعنى العهد فيما راجعناه من كتب اللغة، والذي وجدناه «إلال» كما هنا و«آلال».

(١٥) الإيام بالياء بمعنى الدخان، أصله الواو ثم قُلِبت الواو ياء كما في كتب اللغة.

(١٦) في «أ»: «ورث الحال»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(١٧) في «ب»: «فنسيبك»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(١٨) في كلتا النسختين: «وغرابك» بالباء، وهو تحريف.

(١٩) قد بعث جديدًا: أي بعث غرامًا جديدًا في نفسي. والذي في «أ»: «نعب». ووردت هذه الكلمة في «ب» مهملة الحروف من النقط. والصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٢٠) يريد بالأمة هنا أهل طبقته كما يدل على ذلك سياق القصة.

(٢١) مستغر: أي يطلب غرَّة الناس وغفلتهم.

(٢٢) في «أ»: «يحيلك»، وهو تصحيف.

(٢٣) في «أ»: «فيهم»، وهو تحريف.

(٢٤) في كلتا النسختين «طراز» بالزاي المعجمة في آخره، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا. والطرَّار بمهملتين هو الذي يشق كمَّك ويستلُّ ما فيه، وهو المعروف عندنا بالنشال.

(٢٥) يقال «استقفاه»، إذا جاء من خلفه وضربه بالعصا على قفاه، ويشير إلى هؤلاء الذين يقفون في الطرق المنقطعة حتى إذا مرَّ بهم من يظنون معه مالًا ضربوه من خلفه بالعصا على قفاه حتى يفقد الحسَّ والشعور فيستلون ما معه ويهربون، أو لعل صوابه مستخف بالخاء.

(٢٦) يريد سواري المسجد وعمده، ويريد بأصحابها العلماء الذين يجلسون إلى جانبها يقرءون العلم على الناس.

الليلة الثلاثون[1]

وقال الوزير [أدام الله أيامه]: سراويل يُذكَّر أم يؤنَّث، ويُصْرف أم لا؟

فكان الجواب أن علي بن عيسى حدثنا عن شيخه ابن السراج قال: سألت المبرِّد فقلتُ: إذا كان الواحد في صيغة الجمع ما يُصْنع [به] في الصَّرْف في مثل: شعرُه[2] هَرَاميل [وهذه] سَراويل وما أشبهه؛ فقال: أَلْحِقْه بالجمع فامْنَعه الصرف، لأنه مثله وشبيهه.

قال: وسألت أحمد بن يحيى عن ذلك، فقال: أخبرنا سلَمة عن الفراء قال: ألْحِقه بأحمد فامنعْه الصرْفَ في المعرفة، واصرِفْه في النكرة حتى يكون بين الواحد والجمع فرق.

وسأل فقال: ما واحد المناخِيب والمناجِيب؟ وما حُكْمهما؟

فكان من الجواب: واحد المناخيب مِنْخاب، يُمْدح به ويُذَم، فإذا كان مدحًا فهو مأخوذ من النَّخْب[3] وهو الاختيار، وإذا كان ذمًّا فهو مأخوذٌ من النَّخْبَة وهي الاسْت. قال: وهكذا المنجاب يكون مدحًا وذمًّا، فإذا كان مدحًا فهو مأخوذٌ من الانتجاب وهو الاختيار، وإذا كان ذمًّا فهو مأخوذٌ من النَّجَب وهو قِشر الشجر.

قال: ما معنى قولهم: امرأةٌ عروبٌ؟

فكان من الجواب أن محمد بن يزيد قال – على ما حدثنا به أبو سعيد وابن السراج عنه: إنه من الأضداد؛ وهي المتحببة إلى زوجها، وهي الفاسدة، مأخوذٌ من قولهم: عَرِبَت مَعِدتُه إذا فَسَدت.

وقال: الضَّهْياء يُمَدُّ ويُقْصَر؟

فكان من الجواب أن ابن الأعرابي قال: الذي حصَّلْتُه عن الأعراب أن الضَّهْياء الممدودة هي التي لا تحيض،(٤) وأن المقصورة هي الياسمين،(٥) وجمع الأول ضُهْيٌ وجمع المقصور ضَهَايا. (٦)

قال: ما معنى المَنْدَلِيِّ المطيَّر؟

فكان من الجواب أن ابن الأعرابي قال: هو مقلوب المُطَرَّى. (٧)

وقال: أنشِدني غزلًا. فأنشدته ما حضر في الوقت لأعرابي:

أمُـرُّ مجنَّبًا عـن بيـت سَـلمى ... ولـم أُلْمِـمْ بـه وبـه الغليـلُ

أمُـرُّ مجنَّبًا وهـواي فيـه ... وطَرْفـي عنـه منكسـرٌ كليـلُ

وقلبـي فيـه مُقْتَتَـلٌ فهـل لـي ... إلـى قلبـي وقاتِلـه سـبيلُ؟

وقال: أتحفظ الأبيات التي فيها:

تكفيـه فِلْـذة كِبْـدٍ إن ألـمَّ بهـا ... مـن الشِّـواء ويكفـي شُـربَه الغُمَـرُ

فأنشَده ابن نُباتة، وذاك لأني قلت: ما أحفظ إلا هذا البيت شاهدًا، وهو لأعشى باهلة يرثي المُنْتَشر: [٨]

إنـي أتتنـي لسـان لا أُسَـرُّ بهـا ... من علوَ لا عجبٌ منها ولا سُخُرُ[٩]

فبِـتُّ مرتفِعًـا للـنجْم أَرقُبُـه ... حيـرانَ ذا حـذر لـو ينفـع الحـذَرُ

وجاشـت الـنفسُ لمَّـا جـاء جمعُهُـمُ ... وراكبٌ جاء من «تثليث» معتمِرُ[١٠]

يـأتي علـى النـاس لا يُلـوي علـى أحـدٍ ... حتـى التقينـا وكانـت دوننـا «مُضَـرُ»

نَعَيْـتَ[١١] مـن لا تُغِـبُّ الحـيَّ جَفْنتُـه ... إذا الكواكـبُ أخطـا نوْءَهـا المطـر

مـن لـيس فـي خيـره شـرٌّ يكـدِّرُه ... علـى الصـديق ولا فـي صـفوه كَـدَر

طـاوي المصـير علـى العـزَّاء مُنْصَـلِت ... بـالقوم ليلـةَ لا مـاءٌ ولا شـجر[١٢]

لا تنكـرُ البـازلُ الكَوْمـاءُ ضـربتَه ... بالمشْرفيِّ إذا مـا اجلـوَّذ السَّـفر[١٣]

وتفـزع[١٤] الشَّـوْل منـه حـين تُبصـره ... حتـى تُقطَّـع فـي أعناقهـا الجِـرَرُ

لا يصـعُب الأمـرُ إلا ريـث يركبـه ... وكـلَّ أمـرٍ سـوى الفحشـاء يـأتمر

يكفيـه حُـزَّةُ فِلْـذانٍ ألـمَّ بهـا ... من الشِّواء ويكفي شُربَه الغُمَرُ[١٥]

لا يَتَـأرَّى[١٦] لمـا فـي القِـدْر يرقُبُـه ... ولا يعَضُّ[١٧] على شُرْسُوفِه الصَّفَرُ

لا يَغْمِزُ الساقَ من أين ومِن وَصَبٍ[١٨] ... ولا يـزال[١٩] أمـام القـوم يَقْتَفِـرُ

مهَفْهَـفٌ أهضَـم الكشـحَين مُنْخَـرِقٌ ... عنـه القمـيصُ بسـير الليـلِ محتَقِـرُ

عشـنا بـذلك دهـرًا ثـم فارَقَنـا ... كـذلك الرُّمْحُ ذو النَّصْلَين ينكسـر

لا تــأمن النــاسُ مُمْســاه ومُصْــبَحَه   من كلِّ أوْبٍ[19] وإن لم يأتِ يُنْتَظَر

إمَّــا يُصِـــبْك عـــدوٌّ فـــي منـــاوأةٍ   يومًـا فقـد كنــتَ تسْـتَعْلي وتنْتصِـر

لـو لـم تخنْـه نُفَيْـلٌ[20] وهـي خائنـةٌ   ألـــمَّ بـــالقوم وِرْدٌ منـــه أو صَـــدَر

وَرَّاد حـــربٍ شـــهابٌ يستضـــاء بـــه   كما يُضيء سواد الطُّخْية القَمَرُ[21]

إمَّــا ســـلكتَ ســبيلًا كنــتَ ســالكَها   فاذهــب فــلا يُبْعِـدَنْكَ الله مُنْتَشِــرُ

مَـــنْ لـــيس فيـــه إذا قاوَلْتَـــه رهَـــقٌ   ولــيس فيــه إذا ياسَــرْتَه عُسُــرُ[22]

هوامش

(١) يلاحَظ أنه لم يرد في كلتا النسختين ما يشير إلى أنه ابتدأ ليلة جديدة بعد الكلام السابق لهذا العنوان. وقد رأينا أن الكلام الآتي بعد إنما وقع في ليلة جديدة غير السابقة، بدليل قوله فيما تقدم: «هات حديثًا يكون مقطعًا للوداع ... إلخ.»

(٢) في «ب»: «صيغة»، وهو تحريف. ويقال: شعره هراميل، إذا سقط.

(٣) في الأصل: «من النخبة وهي الاختيار»، وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا كما في كتب اللغة، إذ النخبة من القوم الجماعة المختارة لا نفس الاختيار.

(٤) وأيضًا التي لا يبرز لها ثدي.

(٥) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أن الضهيا مقصورًا هو الياسمين كما ذكر المؤلف هنا. والذي في اللسان أن الضهيا شجر من العضاه، له برم وعُلَّفة، كثير الشوك، وعلفته حمراء شديدة الحمرة، وورقه كورق السمر.

(٦) في كلتا النسختين: «ضها»، وهو تحريف إذ لم نجد هذا الجمع لضهيا المقصور فيما راجعناه من كتب اللغة. والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه القواعد الصرفية، فإن ما آخره ألف تأنيث مقصورة وكان على هذا الوزن يُجْمع على فعالى بفتح اللام وفعالي بكسرها، كحبلى وذفرى.

(٧) في الأصل: «إلى المطرى.» وقوله «إلى» زيادة من الناسخ، إذ المطرَّى هو المقلوب إلى مطيَّر، فالمطير مقلوب إليه. والمطرَّى هو الذي صُيِّر بالصناعة طريًّا. والمندلي: العود من الطيب يُتبخر به، فمعنى المندلي المطير العود الرطب.

(٨) المنتشر هو ابن وهب بن سلمة الباهلي، قال الآمدي: وهو أخو الأعشى لأمه. ورُويت هذه القصيدة للدعجاء أخت المنتشر، وقد ذكرها صاحب خزانة الأدب، وعدة أبياتها أربعة وثلاثون بيتًا فيها، وفي شعر أعشى باهلة المطبوع في أوروبا ستة وأربعون بيتًا. وقصة المنتشر هذا أنه كان قد خرج مع غلمة من قومه يريد حج ذي الخلصة، وهو الكعبة اليمانية، وكان بنو نفيل بن عمرو بن كلاب أعداء له، وقد رأوا مخرجه وعورته وما يطلبه به بنو الحارث بن كعب وطريقه عليهم. فسار المنتشر حتى إذا كان بهضب النباع أنذر بنو نفيل بني الحارث بن كعب بالمنتشر، وكان المنتشر قد أسر رجلًا من بني الحارث بن كعب يقال له هند بن أسماء بن زنباع، فسأله المنتشر أن يفدي نفسه، فأبطأ عليه هند فقطع أنملته، ثم سأله فأبطأ فقطع منه أخرى، وقد أمَّنه القوم ووضع سلاحه، فقال هند بن أسماء: أتؤمِّنون مقطِّعًا (بتشديد الطاء مكسورة)؟ وإلهي لا أؤمِّنه. ثم قتله وقتل غلمته. انتهى ملخصًا من خزانة الأدب.

(٩) اللسان: الرسالة، وجمعه ألسن. أما اللسان بمعنى الجارحة فجمعه ألسنة. وعلو روي بتثليث الواو، يريد أعلى نجد كما في خزانة الأدب. وفي شعر أعشى باهلة المطبوع في أوروبا: «لا كذب»، مكان قوله: «لا عجب.»

(١٠) في رواية: «فلهم»، مكان قوله: «جمعهم». ومعتمر: أي زائر، يقال: اعتمر، إذا قصد مكانًا بعينه زائرًا له. وتثليث: موضع بالحجاز قرب مكة، كما في ياقوت.

(١١) في كلتا النسختين: «يعين من لا يعين»، وهو تصحيف. والتصويب عن شعر أعشى باهلة المطبوع في أوروبا وخزانة الأدب. ولا تُغِبُّ الحي جفنته: أي إنه دائم الإطعام لقومه لا تغيب عنهم جفنته، وهي القصعة في زمن الجدب وقلة الأمطار. والنوء: سقوط نجم في المغرب عند الفجر وطلوع نجم آخر يقابله في المشرق، وكانت العرب تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الأنواء، فيقولون: مُطِرنا بنوء كذا.

(١٢) العزاء: الشدة والجهد. ومنصلت بالقوم: أي منجرد مشمر.

(١٣) في كلتا النسختين: «المطر»، وهو تبديل من الناسخ لا معنى له في هذا البيت، والتصويب عن ديوان أعشى باهلة المطبوع في أوروبا وخزانة الأدب. والبازل من النوق: التي دخلت في السنة التاسعة. والكوماء: الناقة العظيمة. واجلوذ السفر: أي طال وامتدَّ، وفي رواية: «إذا ما اخروَّط» وهو بمعناه.

(١٤) يقول إن النياق تفزع منه مخافة أن يعقرها وتحبس جررها في أعناقها حتى تتقطع. والجرر: جمع جرة (بالكسر)، وهي ما يجترُّه البعير، معروف. وفي رواية: «قد تكظم البزل منه من مخافته حتى تقطع ... إلخ.»

(١٥) الحزة: القطعة من اللحم تقطع طولًا. والفلذان: جمع فلذة، وهي القطعة من الكبد واللحم. والغمر: أصغر الأقداح. يقول: إنه يكتفي بالقليل من طعامه وشرابه إيثارًا لغيره على نفسه، وكانت العرب كثيرًا ما تتمدح بذلك.

(١٦) لا يتأرَّى: أي لا يتحبَّس ولا يتمكَّث.

(١٧) ورد في كلا الأصلين هذان الشطران اللذان تحت هذا الرقم كلٌّ منهما مكان الآخر، وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا نقلًا عن المصادر التي بين أيدينا. والشرسوف: طرف الضلع. والصفر: زعموا أنها دويبة مثل الحية تكون في البطن تعتري مَن به شدة جوع. وفي كلتا النسختين: «ولا يراه» مكان قوله: «ولا يزال»، وهو تحريف. ويقتفر: أي يقتفي ويتبع.

(١٨) في رواية: «ألم به»، مكان قوله: «ومن وصب»، يصفه بالصبر على السير.

(١٩) في رواية: «من كلِّ فج وإن لم يغز ... إلخ.»

(٢٠) في كلتا النسختين: «لو لم تجبه»، وهو تحريف. وفي رواية: «لاستمر به ورد يلم بهذا الناس أو صدر»، ويريد نفيل بن عمرو بن كلاب.

(٢١) الطخية (بضم الطاء): الظلمة الشديدة.

(٢٢) في «أ»: «عاسرته»، وفي «ب»: «عاشرته»، وهو تحريف في كلتا النسختين. وما أثبتناه هي الرواية الصحيحة في المصادر التي رجعنا إليها. والرَّهَق بالتحريك الكذب. وقد ورد هذا البيت في تلك المصادر في غير هذا الموضع من القصيدة.

الليلة الواحدة والثلاثون

وجرى ليلةً حديث الرأي في الحرب والحزم والتيقظ وقلة الاستهانة بالخصم، فقال ابن عُبيد الكاتب: أنا أستحسن كلامًا جرى أيام الأمين والمأمون؛ وذاك أن علي بن عيسى بن ماهان لما توجه إلى حرب طاهر [بن الحسين] من بغداد، سأل قومًا وردُوا من الرَّي عن طاهر، فقالوا: إنه مُجِدٌّ. [١] فقال: وما طاهرٌ؟ إنما هو شوكةٌ من أغصاني، وشرارةٌ من ناري. ثم قال لأصحابه: والله ما بينكم وبين أن ينقصِف انقصاف الشجر من الريح العاصفة إلا أن يبلغه عبورُنا عقبةَ هَمَذان، لأن السِّخال لا تقْوى على النِّطاح والثعالبَ لا صبر لها على لقاء الأسود، فإن يُقِم طاهرٌ بموضعه يكن أولَ معرَّض لظُبَاتِ السيوف وأسنَّة الرِّماح. فقال يحيى بن عليٍ [لعلي] بن عيسى: أيها الأمير، إن العساكر لا تُساس بالتواني، والحروب لا تدبَّر بالاغترار، وإن الشرارة الخفية ربما صارت ضرامًا، والنَّهْلةَ[٢] من السيل ربما صارت بحرًا عظيمًا.

فقال:[٣] إنما حجب عليَّ بن عيسى عن وثيق[٤] الرأي هذا الاستحقارُ بالكلام، والاقتدارُ على اللفْظ، ومن صدق فكرُه في طلب الرأي النافع قلَّ كلامُه بالهَذَر [الضائع].

وقال في هذه الليلة: ما رأيتُ من يفي بإحصاء وجوه «فعيل» ومواقعها[٥]

فكان من الجواب أن الأخفش قد ذكر عشْرة أوجه، وهي أكثر ما قدَر عليه، والتصفُّح قد دلَّ على أربعين وجهًا وزيادة.

قال: فما أغرب[٦] ما مر بك منها؟ فقيل: فَعِيلٌ بمعنى فَعَل. فقال: هذا والله غريب، فهات له شاهدًا. فقيل: يقال: مَكَانٌ[٧] دَمِيثٌ ودَمَثٌ، ويقينٌ ويقَنٌ، ورصيفٌ[٨] ورصَفٌ،[٩] وللفرس العتيد للعدْو: العَتَد، والنَّقِيل[١٠] من العدْو: نَقَل، والخبيط[١١] من الورق: خَبَط، وللقديم: [١٢] قَدَم،[١٣] والبئر النزيح: نَزَح، وللجسم العميم: عَمَم.

وقال ابن الأعرابي: القَفِيل: الشوك[١٤] اليابس، والجمع قَفْل. [١٥] وقال أحمد بن يحيى: هو مني بَعَدٌ أي بعيد، والبَعَد يكون للجمع[١٦] والواحد. [١٧]

فعجب وقال: ينبغي أن يُعنَى بهذه الوجوه كلها، فإن[١٨] الزيادة على مِثل الأخفش ظفرٌ حسَن، وامتيازٌ في الغزارة جميل،[١٩] وما تفاضلتْ[٢٠] درجات العلماء إلا بتصفُّح الأخير قول الأول واستيلائه على ما فاته.

وسأل – أباد الله عِداه، وحقق مناه – وقال: هل يُسلَّم على أهل الذمة؟ وهل يُبْدءُون؟ فكان أبو البُخْتُري الداوديُّ حاضرًا فحكى أن عمر بن عبد العزيز سئل عن هذا بعينه، فقال: يُردُّ عليهم السلام، ولا بأس بأن يُبْدَءُوا لقول الله عز وجل: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ.

وحكى في معرض حديث أبي[٢١] بكر قال: كتب مجنونٌ إلى مجنون: «بسم الله الرحمن الرحيم، حفظك الله، وأبقاك الله، كتبتُ إليك ودجلة تطغَى، وسفن الموصل ها هي، وما يزداد الصبيان إلا شرًّا، ولا الحجارةُ إلا كثرة، فإياك والمَرَق فإنه شر طعامٍ في الدنيا، ولا تَبِت إلا وعند رأسك حجرٌ أو حجَرَان. فإن الأخبر[٢٢] يقول: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، [وكتبتُ إليك لثلاث عشرة وأربعين ليلة خلت من عاشوراء سنة الكمأة].»

قال: وكتب مجنونٌ آخر: «أبقاك الله من النار وسوء الحساب، وتفديك نفسي موفَّقًا إن شاء الله!»

قال: وكتب [مجنون] آخر إلى مجنونٍ مثله: وهَبَ الله لي جميعَ المكاره فيك! كتابي إليك من الكوفة حقًّا حقًّا حقًّا، أقلامي تخُطُّ، والموتُ عندنا كثير، إلا أنه سليم والحمد لله. أحببتُ[٢٣] ليعرِفَه إعلامُكم ذلك إن شاء الله.

فضحك – أضحك الله سنه – حتى استلقى، وقال: ما الذي يبلغ بنا هذا الاستطرافَ إذا سمعنا بحديث المجانين؟

فقال ابن زُرعة: لأن المجنون مشاركٌ للعاقل في الجنس، فإذا كان من العاقل ما يُحْسب أن يكون من المجنون كُرِه ذلك له، وإذا كان من المجنون ما يُعْهد من العاقل تُعُجِّب منه. والعقلُ بين أصحابه ذو عَرضٍ واسع، وبقدْر ذلك يتفاضلون التفاضلَ الذي لا سبيل إلى حصره، وكذلك

الجنون بين أهله ذو عَرضٍ واسع، وبحسب ذلك يتفاوتون التفاوت الذي لا مطمع في تحصيله. وكما أنه[٢٤] يَبْدُر[٢٥] من العاقل بعض ما لا يُتوقع إلا من المجنون، كذلك يبدر[٢٦] من المجنون بعض ما لا يُتوقع إلا من العاقل. ولا يُعْتدُّ بذلك ولا بهذا، أعني أن العاقل بذلك المقدار لا يُرَى مجنونًا، والمجنون بذلك المقدار لا يُسمَّى عاقلًا، وإنما اجتمعا في النادر القليل لاجتماعهما في الجنس الذي يعُمُّهما والنوعِ الذي يفصلهما. وفي الجملة الإنسان بما هو به حيوانٌ سبُعٌ وحمار، وبما هو [به] نفْسيٌ إنسان، وبما هو به عاقلٌ نبيٌّ وملَك. وهذه الأعراض – وإن تَدَاخَلَت لانتظامها في طينة واحدة – فإنها تتميز بقوة العقل في الصورة المخلوطة إما مفارَقة وإما مواصَلة. ومرَّ[٢٧] له في هذا الموضع كلامٌ بليغٌ تامٌّ مكشوف.

ثم ترامى الحديث إلى أمر المُطْعِمين والطاعمين،[٢٨] والذين يهشُّون[٢٩] عند المائدة، والذين يعْبِسون[٣٠] ويَجمُون ويُطْرِقون، والذين يَصْخَبون[٣١] ويَلْغَطُون، ويَضْجَرون ويغْتاظون.

فقال: أحب أن أسمع في هذا أكثر ما فيه، ويمر بي أعجبه، فإن في معرفة هذا الباب تهذيبًا وإيقاظًا كثيرًا.

فكان من الجواب: إن الناس قديمًا وحديثًا قد خاضوا في هذا الفن خوضًا بعيدًا وما وقفوا منه عند حد، لأن الحديث عن الأخلاق المختلِفة

بالأمزجة[٣٢] المتباينة والطبائع المتنائية لا يكاد ينتهي إلى غاية يكون فيها شفاءٌ للمستمع المستفيد [و]لا للراوية المفيد.

قال: قبل كل شيء أعلمونا[٣٣] يا أصحابنا: الحثُّ على الأكل أحسن أم الإمساك حتى يكون من الأكل ما يكون؟

فكان [من] الجواب أن هذه المسألة بعينها جرَت بالأمس بالرَّي عند ابن عباد فتُنُوهب الكلام فيها، وأفضى [إلى] أن الأولى الحث والتأنيس والبسط والطلاقة ولين اللفظ وقلة التحديق وإسجاء الطرف مع [اللطف] والدماثة، من غير دلالةٍ على تكلُّفٍ في ذلك فاضح[٣٤] ولا إمساكٍ[٣٥] عنه قادح.

وحكى ابن عبَّاد في هذا الموضع أن بعض السلف قال: الطعامُ أهون من أن يُحثُّ على تناوله.

وقال الحسن بن علي: الطعام أجلُّ من أن لا يُحثَّ على تناوله. ومذهب الحَسن أحسن.

قال: ولقد حضرت موائد ناسٍ لا أظن بهم البخل، فلم يحثوني ولم يبسطوني فقبضني ذلك، وكأن انقباضي كان بمعونتهم وإن لم يكن بإرادتهم.

قال الوزير: هذه فائدة من هذا الرجل الذي يُتهادَى قوله وتُترَاوَى أخباره. [٣٦]

ثم حكيت له أن أسماء بن حارجة قال: ما صنعت طعامًا قط فدعوت عليه نفرًا إلا كانوا أمنَّ علي مني عليهم. فقال: زدنا من هذا الضرب ما كان. قلت: لو أُذن لي في جمعه كان أولى. قال: لك(٣٧) ذلك فما يضرنا(٣٨)أن تُطرِب آذاننا بما تهوى نفوسنا؟

فكان من الجواب أن الجاحظ قد أتى على جمهرة هذا الباب إلا ما شذَّ عنه مما لم يقع إليه، فإن العالِم – وإن كان بارعًا – ليس يجوز أن يُظَن [به] أنه قد أحاط بكل باب أو بالباب الواحد إلى آخره. على أنه حدَث من عهد الجاحظ إلى وقتنا هذا أمورٌ وأمور، وهَناتٌ وهناتٌ، وغرائب وعجائب، لأن الناس يكتسبون على رأس كل مائة سنةٍ عادةً جديدة وخليقةً غير معهودةٍ، وبدء هذه المئين(٣٩) هو الوقت الذي فيه تنعقد شريعة، وتظهر نبوة، وتفشو أحكام، وتستقر سنن، وتُؤْلَف أحوالٌ،(٤٠) بعد فطامٍ شديد، وتلكُّؤٍ واقع، ثم على استنان ذلك يكون ما يكون.

وقال ميمون بن مِهران: مَن ضافَ البخيلَ صامَت دابته، واستغنى عن الكنيف، وأمن التُّخَمة.

وقال حامد(٤١) اللَّفَّاف المتزهِّد: (٤٢) المرائي إذا ضاف إنسانًا حدَّثه بسخاوة إبراهيم، وإذا ضافه إنسانٌ حدثه بزهد عيسى ابن مريم.

وقال مالك(٤٣) بن دينار: دخلنا على ابن سيرين فقال: ما أدري ما أطعمكم؟ ثم قدم(٤٤)إلينا شُهْدَة.

وقال الأعمش: كان خَيْثمة يصنع الخَبِيص ثم يقول: كلوا فوالله ما صُنع إلا من أجلكم.

وقال بكر بن عبد الله المزني: [٤٥] أحقُّ الناس بلَطْمةٍ من إذا دُعي إلى طعامٍ ذهب بآخَر معه. وأحقُّهم بلطْمتين من إذا قيل له: اجلس ها هنا، قال: بل ها هنا. وأحق الناس بثلاث لطَمات من إذا قيل له: كُل، قال: ما بال صاحب البيت لا يأكل معنا؟

وقال إبراهيم بن الجُنَيْد: [٤٦] كان يقال: أربع لا ينبغي لشريف أن يأنف منهن وإن كان أميرًا: قيامُه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالِم يتعلم منه، والسؤال عما لا يعلم ممن هو أعلم منه، وخدمة الضيف بنفسه إكرامًا له.

وقال حاتم الأصم: كان يقال العجَلة من الشيطان إلا في خمس، فإنها من سنة رسول الله ﷺ: إطعام الضيف إذا حلَّ، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدَّين إذا حلَّ ووجب، والتوبة من الذنب إذا وقع.

وقال النبي ﷺ: «ليلةُ الضيف حقٌّ واجبٌ على كل مسلم، فمن أصبح بفِنائه فهو أحقُّ به إن شاء أخذ، وإن شاء ترك.»

وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد وفي يدها قدح، فسألت عسلًا وقالت: زوجي مريض. فأمر لها براوية عسل،[٤٧] فقالوا: يا أبا الحارث، إنما تسأل قدحًا. قال: سألتْ على قدْرها ونعطيها على قدْرنا.

خرج ابن المبارك يومًا إلى أصحابه فقال لهم: نزل بنا ضيفٌ اليوم فقال: اتخذوا لي فالوذجًا. فسرَّنا ذلك منه.

وقال الحسنُ في الرجل يدخل بيت أخيه فيرى السَّلَّة فيها الفاكهة: لا بأسَ أن يأكل من غير أن يستأذنه.

وقال ابن عمر: أُهدِيَت لرجل من أصحاب النبي – صلى الله عليه وعلى آله – شاةٌ فقال: أخي فلانٌ أحوج إليها. وبعث بها إليه، فلم يزل(٤٨) يبعث بها واحدٌ بعد واحد حتى تداولها تسعة أبيات ورجعت إلى الأول، فنزلت الآية: وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ.

قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «من كان له ظَهْرٌ فليَعُد على من لا ظهر له، ومن كان له زادٌ فليعد على من لا زاد له»، حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحدٍ منا في الفضل. (٤٩)

وسئل ابن عمر: ما حقُّ المُسلم على المسلم؟ قال: ألَّا يشبع ويجوع، وألَّا يلبس ويعرَى، وأن يواسيه ببيضائه وصفرائه.

وكان ابن أبي بكرة ينفق على جيرانه أربعين دارًا سوى سائر نفقاته، وكان يبعث إليهم بالأضاحيِّ والكسوة في الأعياد، وكان يُعْتق في كل يوم عيدٍ مائة مملوك.

وكان حمَّاد بن أبي سُليمان يُفطِّر كلَّ ليلةٍ من شهر رمضان خمسين إنسانًا، وإذا كان يوم الفطر كساهم ثوبًا ثوبًا وأعطاهم مائة مائة.

وقال الشاعر:

أراك تؤمِّـــــل حُســـــنَ الثنـــــاء   ولــــم يـــرزقِ اللهُ ذاك البخــــيلا

وكيــــف يســـود أخـــو بطنـــةٍ   يمُــنُّ ٥٠ كثيــرًا ويعطــي قلــيلا؟

وقال النبي ﷺ: «تجافَوا عن ذنْب السخي، فإن الله يأخذ بيده كلما عَثَر.»

وقال عليه السلام: «من أدى الزكاة، وقَرَى الضيف، وآوى٥١ في النائبة؛ فقد وُقِي شح نفسه.»

وقالت أم البنين أختُ عمر بن عبد العزيز: أُفٍّ للبخل! لو كان طريقًا ما سلكتُه، ولو كان ثوبًا ما لبستُه، ولو كان سراجًا ما استضأتُ به.

وقال الأصمعي: قال بعض العرب: ليست الفتوة الفسقَ ولا الفجور ولا شرب الخمور، وإنما الفتوة طعامٌ موضوع، وصنيع مصنوع، ومكانٌ مرفوع، ولسانٌ معسول، ونائل مبذول، وعفاف معروف، وأذًى مكفوف.

وقال أبو حازم المدني: أسعد الناس بالخُلق الحسَن صاحبُه؛ نفسُه منه في راحة، ثم زوجتُه، ثم ولدُه، حتى إن فرسه ليَصْهَل إذا سمع صوته، وكلبَه يُشرْشر بذنَبه إذا رآه، وقطَّه يدخل [تحت] مائدته. وإن السيئ الخلُق لأشقى الناس؛ نفسُه منه في بلاء، ثم زوجتُه، ثم ولدُه، ثم خدَمُه، وإنه ليدخل وهم في سرور فيتفرقون فرَقًا منه، وإنَّ دابته لتحيد عنه إذا رأتْه مما ترى منه، وكلبَه ينزو على الجدار، وقطه يفرُّ منه.

وكان على باب ابن كيسان مكتوب: ادخلْ وكُلْ.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول في بكائها على النبي ﷺ: بأبي مَن لم ينم على الوثير، ولم يشبع من خبز الشعير!

وقال النبي ﷺ: «إن الله لم يخلق وعاءً مُلئ شرًّا من بطنٍ، فإن كان لا بدَّ فاجعلوا ثلثًا للطعام، وثلثًا للشراب، وثلثًا للريح.»

قال الشاعر:

ليســـوا يبـــالون إذا أصـــبحوا   شَـبْعَى بِطانًـا حـقَّ مـن ضَـيَّعوا[٥٢]

ولا يبـــــــالون بمـــــــولاهمُ   والكلـــبُ فـــي أمـــوالهم يَرْتَـــعُ

وحكى لنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم بجرجان [إمامُ الدنيا] قال: رأيت أبا خليفة المفضَّل[٥٣] بن الحُباب، وقد دُعي إلى وليمةٍ فرأى الصِّحاف تُوضَع وتُرْفَع، فقال: أللحُسن والمنظر دُعينا، أم للأكل والمَخْبر؟ فقيل: بل للأكل والمخبر. قال: فاتركوا الصَّحْفة يُبْلَغْ قعرُها.

وكان سليمان بن ثَوَابة ضخم الخِوان، كثير الطعام، وافرَ الرغيف، وكان مُعجَبًا بإجادة الألوان، واتخاذ البدائع والطرائف والغرائب على مائدته، وكانت له ضروبٌ من الحلوى لا تُعرف إلا به، وكان خبزه الذي يُوضع على المائدة الرغيفُ من مكُّوكِ[٥٤] دقيق، ولذلك قال أبو فرعون العدوي:

مـــا النــــاس إلا نَــــبطٌ وخُــــوزانْ[٥٥] ككَهْمَــسٍ أو عمــرَ بــن عمــرانْ

ضاق٥٦ جِرابي عن رغيف سلْمان[٥٧] أيــرُ حمــار فــي حِــرِ امِّ قحطــانْ

وأيْرُ بَغْلٍ في اسْتِ أمِّ عدنانْ

...[٥٨]

وعَشِقَ رجلٌ جاريةً رومية كانت لقوم ذوي يسار، فكتب إليها يومًا: جُعلتُ فداكِ، عندي اليوم أصحابي وقد اشتهيت سكباجةً[٥٩] بَقَرِيَّةً، فأحب أن توجِّهي إلينا بما يعمُّنا ويكفينا منها، ودَسْتَجةً[٦٠] من نبيذٍ لنتغذى ونشرب على ذكرك. فلما وصلت الرُّقْعة وجهتْ إليه بما طلب.

ثم كتب إليها يومًا آخر: فدتْكِ نفسي، إخواني مجتمعون عندي وقد اشتهيت قَلِيَّةً جَزُوريَّة فوجِّهي بها إليَّ وما يكفينا من النبيذ والنَّقْل ليعرفوا منزلتي عندك. فوجهتْ إليه بكل ما سأل. ثم كتب إليها يومًا آخر: جُعلتُ فداكِ، قد اشتهيت أنا وأصحابي رءوسًا سمانًا فأحب أن توجهي إلينا بما يكفينا ومن النبيذ بما يُرْوينا. فكتبت الجارية عند ذلك: إني رأيت الحب يكون في القلب، وحبك هذا ما تجاوز المعدة. وكتبت أسفل الرقعة:

عَــذِيرِي مــن حبيــبٍ[٦١] جــا ءنـــا فـــي زمـــن الشِّــدَّةْ

وكـــان الحـــب فـــي القلـــب فصـــار الحـــب فـــي المِعْــدَةْ

وقال جرير: [٦٢]

ولا يـذبحون الشـاةَ إلا بمَيْسـرٍ[٦٣] كثيـرٌ تناجيهـا لِئـامٌ قُـدُورُها

وقالت عادية[٦٤] بنتُ فَرْعَة الزبيرية في ابنها دَوْس:

تشْـبه[٦٥] دوْس نفـرًا كرامـا كـانوا الـذُّرَى والأنـف والسَّـناما

كـانوا لمـن خـالَطهم إدامـا كالسَّـمْن لمَّـا سَـغْبَل الطعامـا

يقال: سغبل رأسَه [بالدُّهْن] وسَغْسَغه[٦٦] وروَّاه وأمرعه. [٦٧]

قال الواقدي: قيل لأمِّ أيوب: أيُّ الطعام كان أحب إلى رسول الله ﷺ، فقد عرفتم ذلك بمُقامه عندكم؟ فقالت: ما رأيته أَمَرَ بطعامٍ يُصْنع له بعينه، ولا رأيناه أُتِي بطعام فعابه قط. وقد أخبرني أبو أيوب أنه تَعَشَّى عنده ليلةً من قصْعة أرسل بها سعد بن عُبادة [فيها] طَفَيْشَل،[٦٨] فرأيتُه ينهك تلك القصعة[٦٩] ما لم يَنْهَك غيرها، فرجع إليَّ فأخبرني، فكنا نعملها له. وكنا نعمل له الهريسة، وكانت تعجبه. وكان يحضر عَشاءه[٧٠] من خمسة إلى ستةٍ إلى عشرة كما يكون الطعام في القلة والكثرة.

وكان أسعد بن زرارة يعمل له هَرِيسة ليلةً وليلةً لا، فكان رسول الله ﷺ يسأل عنها: أجاءت قصعة أسعد أم لا؟ فيقال: نعم. فيقول: هَلُمُّوها. فنعرف بذلك أنها تعجبه.

قَدِم صهيب على رسول الله ﷺ بقُباء ومعه أبو بكرٍ وعمر بين أيديهم رُطَبٌ قد جاءهم به كلثوم بن الهِدْم،[٧١] أمهاتُ جَراذِين،[٧٢] وصهيبٌ قد رَمِد في الطريق وأصابتْه مجاعةٌ شديدة فوقع في الرُّطب، قال صهيب: فجعَلتُ آكل، فقال عمر: يا رسول الله، ألا ترى إلى صهيب يأكل الرطب وهو رَمِد؟ فقال رسول الله ﷺ: «أتأكل الرطب وأنت رَمِد؟!» فقال صهيب: أنا آكل بشق عيني الصحيحة. فتبسم [رسول الله] ﷺ.

وقال الأعشى:

لو أُطْعِموا المن والسلوى مكانَهُمُ ... ما أبصر الناسُ طعمًا فيهمُ نَجَعا

وقال الكُمَيْت:

وما استُنْزِلتْ في غيرنا قِدْرُ جارنا ... ولا ثُفِيَتْ إلا بنا حين تُنْصَبُ

يقول: إذا جاورَنا جارٌ لم نكلفه أن يطبخ من عنده، ويكون ما يطبخه من عندنا بما نعطيه من اللحم ليَنْصُب[٧٣] قِدرَه. ويقال للحَيْس[٧٤] سَوِيطَة. [٧٥] وقال: الرَّغِيغة[٧٩] لبن يُطبخ. وقال: هي العصيدة، ثم الحَرِيرة،٧٧ ثم النَّجيرة،[٧٨] ثم الحَسُوُّ. [٧٩] واللُّوقَة: الرُّطَب بالسَّمْن،[٨٠] والسَّلِيقَة: الذرة تُدَق وتُصْلَح باللبن، والرَّصِيعَة: [٨١] البُرُّ يُدَقُّ بالفِهْر ويُبَلُّ ويُطبخ بشيء من السمن، والوجيئة: التمر يُوجَأ ثم يُؤكل باللبن،

وقال أعرابي: ليس من الألبان أحلى من لبن الخَلِفَة. (٨٢)

والنَّخِبسة والقَطِيبَة يُخْلَط لبن إبلٍ بلبن غنم. (٨٣)

وقال أعرابي: الحمد لله الذي أغنانا باللبن عما سواه.

ويقال: أكل خبزًا قَفارًا وعَفارًا وعَفِيرًا: لا شيء معه. (٨٤) وعليه العَفَار والدَّمار وسوء الدار! (٨٥) وأكل خبزًا جَبيزًا(٨٦) أي فطيرًا(٨٧) يابسًا. وجاء بتمر فَضٍّ(٨٨) وفضًى وفَذٍّ وحَثٍّ: (٨٩) لا يَلْزَق بعضُه ببعض.

قال أبو الحسن الطوسي: أخبرني هشام قال: دخل عليَّ فرَجٌ الرُّخَّجِيُّ وقد تغديتُ واتّكأتُ، فقال: يا أبا عبد الله، إنما تُحْسن الأكل والاتكاء. [قال:] فتركتُ [الأكل] عنده أيامًا، وبلغه ذلك فبعث إليَّ: إن كنتَ لا تأكل طعامنا فليس لنا فيك حاجة. قال: «فأكلتُ(٩٠) شيئًا ثم أتيته»، فلم يعتذر مما كان.

قال أبو الحسن: أخبرني الفراء قال: العرب تسمِّي السِّكْباجَة(٩١) الصَّعْفَصَة. وأنشد:

أبــو مالِــكٍ يعتادنــا فــي الظَّهَــائِرِ يَجُوء فيُلْقِي رحلَه عند عامر(٩٢)

أبو مالك: الجوع، هكذا تقول العرب. ويَجِيء(٩٣) ويَجُوء لغتان. وقال الآخر:

رأيــتُ الغــواني إذْ نزلْــتَ جَفَــوْنني أبــا مالــكٍ إنــي أظنُّــك دائبــا(٩٤)

أبو مالك ها هنا الشَّيْب.

قال أبو الحسن: أخبرني الثوري[٩٥] عن أبي عُبيدة في الحديث الذي يُرْوَى عن عمر بن الخطاب أنه رأى في روْث فرسه حبة شعير، فقال: لأجعلنَّ[٩٦] لك في غَرَز[٩٧] النَّقِيع ما يشغلك عن شعير المسلمين. قال: والنقيع موضعٌ بالمدينة أحماه عمر [بن الخطاب] لخيل المسلمين، خلاف البقيع بالباء.

قال الطوسيُّ: العرب تقول: «أيدي الرجال أعناقُها»، أي مَن كان أطولَ يدًا على المائدة تناول فأكل، الهاءُ ترجع على الإبل، أي أيدي الرجال أعناق الإبل، أي مَن طال نال.

قال الأصمعي: سألت بعض الأَكَلَة فيمن كان يُقدِم على مُيَسَّرِي الناس: كيف تصنع إذا جَهَدتكَ الكِظَّة – والعرب تقول: «إذا كنتَ بَطِنًا فعُدَّكَ زَمِنًا»؟ قال: آخذُ رَوْثًا حارًّا وأَعْصِره وأشرب ماءه فأختلفُ[٩٨] عنه مرارًا، فلا ألبثُ أن يلحق بطني [بظهري] فأشتهي الطعام.

قال ابن الأعرابي: قال الكِلابيُّ: هو يَنْدِفُ الطعام إذا أكله بيده، ويَلْقَم الحَسُوَّ، واللَّقْم بالشَّفَة، والنَّدْف: الأكل باليد. وقال الزبيري: يَنْدِف.[٩٩]

وأنشد ابن الأعرابي:

ويظل ضيف بني عُبادة فيهمُ متضمِّرًا وبطونُهمْ كُتْمُ

أي ممتلئة. والتَّضَمُّر: الهُزال والنحافة، كالنخل المُضَمَّر أي الذي قد ذَوَتْ[100] جذوعُه. قال الشَّنَبُوذي في قول الله تعالى: [101] قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ قال: الذين يَشْرُدُون ويأكل غيرُهم. قال أبو الحسن: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتُبرز كفًّا كأنها طَلْعَةٌ، في ذراعٍ كأنها جُمَّارَة، فلا تقع عينها على أكلةٍ نفيسةٍ إلا خصَّتْني بها، فزوجتها، وصار يجلس معي على المائدة ابنٌ لي، فيُبْرز لي كفًّا كأنها كِرْنَافة،[102] في ذراعٍ كأنها كَرَبَة،[103] فوالله إنْ[104] تسبق عيني إلى لقمةٍ طيبةٍ إلا سبقتْ يدُه إليها.

وقال أعرابي للنبي ﷺ: إني نذرتُ إذا بلَّغتْني ناقتي أن أنحرها وآكل من كبدها. قال: «بئسما جازيتَها!»

أضلَّ أعرابيٌّ بعيرًا له فطلبه، فرأى على باب الأمير بُخْتِيًّا فأخذه وقال: هذا بعيري. فقال: إنك أَضْلَلتَ بعيرًا وهذا بُخْتيٌّ. فقال: لمَّا أكل علف الأمير تَبَخَّتَ. فضحك منه وتركه [يعيد قولَه ويعجبه].

الكِدْنة: غِلَظ اللحم وتراكمُه، ومنه قول هشامٍ لسالم – وقد رآه فأعجبه جسمُه: ما رأيتُ ذا كِدْنَةٍ أحسن منك، فما طعامُك؟ قال: الخبز والزيت. قال: أما تَأْجِمه؟[105] قال: إذا أَجَمتُه تركتُه حتى أشتهيه، ثم خرج وقد أصاب في جسمه بَرَصًا. فقال: لَقِعَني[106] الأحول بعينه، فما خرج هشام من المدينة حتى صلى عليه.

وقال عبد الأعلى القاصُّ: [١٠٧] الفقير مرَقتُه سِلْقَة، وغذاؤه[١٠٨] عُلْقَة، وخُبْزَتُه فِلْقَة،[١٠٩] وسمكَتُه شِلْقَة، أي كثيرة الشوك. [١١٠]

قال رجاء بن سلمة: الأكل في السوق حماقة.

قيل لذؤيب بن عمرو: إنك مفلس لا تقدر على قُرْصٍ ولا جُمْعٍ[١١١] ولا حُفَالة،[١١٢] وبيتك عامرٌ بالفأر. [١١٣]

قال علي بن عيسى: الطلاق الثلاث البتة إن كان يمنعهم[١١٤] من التحول عنه إلا أنهم يسرقون أطعمة الناس يأكلونها في بيته لأمنهم فيه، لأنه لا هِرَّ هناك ولا أحد يأخذ شيئًا ولا يُؤْذَوْن، وإن لهم لمِسْقاةً مملوءةً ماءً كلما جفَّت سُكِب لهم فيها ماءٌ.

جعل الخبر عن الفأر على التلميح كالخبر عن قومٍ عقلاء.

وقال النبي ﷺ: «أكرموا الخبزَ فإن الله أكرمه وسخَّر له بركات السموات والأرض.»

وقال آخر:

كأن صوتَ سَحْبِها[١١٥] المُمْتاح سُعال شيخٍ من بني الجُلَاحِ

يقول من بعد السُّعال آحِ

قال الأصمعي: الرَّجيع: الشِّواء يُسخَّن ثانيةً. والنَّقِيعة: ما يُحْرِزه رئيس القوم من الغنيمة قبل أن تُقسَم، والجمع نَقائِع. وقال: أنشدني عيسى بن عمر لمعاوية بن صعصعة:

مثلُ الـذُّرَى لُحبـتْ عرائكُها[١١٦]   لَحْبَ الشِّفار[١١٧] نَقائعَ النَّهْبِ

وقال مُهَلْهِل:

إنـا لنضْـرب بالسـيوف رءوسَـهم   ضـربَ القُـدَار نَقِيعـةَ القُـدَّامِ

القُدَار: الجزَّار، والقُدار: الملِك أيضًا. والقُدَّام: رؤساء الجيوش، والواحد قادم.

وقال مَعْن[١١٨] بن أوس يصف هدير قِدْرٍ:

إذا التَطَمَـتْ[١١٩] أمواجُهـا فكأنهـا   عوائـذُ دُهْـمٌ فـي المحلَّـة قُيَّـلُ

إذا مـا انتحاهـا المُرْمِلـون[١٢٠] رأيتَهـا   لوَشْـك قِرَاهـا وهـي بـالجَزْل تُشْـعَلُ

سمعتَ لها لغْطًا١٢١ إذا ما تَغَطْمَطتْ   كهـدْر الجِمـال رُزَّمًـا حـين تَجْفُـلُ

وقال آخر:

إذا كان فَصْدُ العِرْق والعِرْقُ ناضِبٌ   وكَشْـطُ سَنَام الحيِّ عيشًا[١٢٢] ومغنما

وكان عتيقُ[١٢٣] القِدِّ خيرَ شِوائهم   وصـارَ غَبـوق الخُـودِ مـاءً مُحَمَّمـا

عَقَرتُ لهم دُهْمًا مَقاحِيدَ[١٢٤] جِلَّةً   وعـادت بقايـا البَـرْك نَهْبًـا مقسَّـما

قال:[١٢٥] وإذا كان القحط فصدوا الإبل وعالجوا ذلك الدم بشيء من العلاج لها كما يصنع الترك، فإنها تجعله في المُصْران ثم تشويه أو تطبخه، فيُؤكَل كما تُؤكل النَّقانِق[١٢٦] وما أشبه ذلك.

وأما قوله: «والعِرْق ناضِبٌ»، فإنما يعني قلة الدم لهزال البعير وكذلك جميع الحيوان، وأكثر ما يكون دمًا إذا كان بين المَهْزُول والسمين.

وقالت أم هشام السَّلوليَّة: ما ذكر الناسُ مذكورًا خيرًا من الإبل وأَجْدى[(١٢٧)] على أَحَدٍ بخيرٍ. هكذا رُوِي.

وقال الأندلسي: إن حَملَتْ أثقلتْ، وإن مشتْ أبعدتْ، وإن حَلبتْ أَرْوَتْ، وإن نُحِرَتْ أَشْبَعتْ.

قال أبو الحسن الهيثم، عن عبد العزيز بن يسار قال: قدمتُ باجُمَيْرَى[(١٢٨)] بخمس سَفائف[(١٢٩)] دقيق، وذاك في زمن مصعب وهو مُعَسْكِرٌ بها فلقِيني عِكرمة بن رِبْعي الشيباني فقال: بكم أخذتَها؟ قلتُ: بتسعين ألفًا. قال: فإني أعطيك مائةً وخمسين ألفًا على أن تؤخِّرَني. فدفعتُهنَّ إليه وما في المعسكر يومئذٍ دقيق. قال: فجاء بنو تيم الله فأخذوا ذلك الدقيق، فجعل كلُّ قومٍ يَعْجِنون على حيالهم، ثم جاءوا إلى رَهْوَةٍ[(١٣٠)] من الأرض فحفروها ثم جعلوا فيها الحشيش، ثم طرحوا ذلك العجين فيها، ثم أقبلوا فأخذوا فرسًا وَدِيقًا[(١٣١)]... [(١٣٢)] فخلَّوْا عنه، ثم أقبلوا وهو[(١٣٣)] يتبعهم حتى انتهوا إلى الحفيرة، فدفعوا الفرس الوديق فيها وتبعها الفرس، وتنادى الفريقان: إن فرس حوشب وقع في حَفيرة عكرمة فما أخرجوه إلا بالعَمَد. قال: فغلبه عكرمة.

قال شاعر:

لا أشـتُمُ الضـيف إلا أن أقـول لـه أباتـك[١٣٤] الله في أبيات عمـارِ

أباتك[١٣٤] الله في أبيات مُعتَنِزٍ[١٣٥] عـن المكـارم لا عَـفٍّ ولا قـاري

جَلْـد النـدى زاهـدٍ فـي كـل مكرمـةٍ كأنمـا[١٣٦] ضيفه في مَلَّـة النـارِ

وقال آخر:

وهـو إذا قيـل لـه وَيْهًـا كُـلْ فإنـه مُوَاشـكٌ مسـتعجلْ

وهـو إذا قيـل لـه: وَيْهًـا[١٣٧] فُـلْ فإنـه أَحْـجِ بـه أن يَنْكُـل

[قيل لصوفي: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: لا حد له، ولو أراد الله أن يؤكل بحدٍّ لبين كما بيَّن جميع الحدود. وكيف يكون للأكل حد والأَكَلَةُ مختلفو الطباع والمزاج والعارض والعادة؟ وحكمة الله ظاهرة في إخفاء حد الشبع حتى يأكل من شاء على ما شاء كما شاء.]

وقيل لصوفيٍّ: ما حد الشبع؟ فقال: ما نشَّط على أداء الفرائض، وثبَّط عن إقامة النوافل.

وقيل لمتكلم: ما حد الشبع؟ فقال: حدُّه أن يجلب النوم، ويُضجِر القوم، ويبعث على اللوم.

وقيل لطفيلي: ما حد الشبع؟ قال: أن يؤكل على أنه آخر الزاد، ويُؤْتَى على الجِلِّ والدِّقِّ.

وقيل لأعرابي: ما حد الشبع؟ قال: أما عندكم يا حاضرة فلا أدري، وأما عندنا في البادية فما وجَدَتِ العين، وامتدت إليه اليد، ودار عليه الضرس، وأساغه الحلق، وانتفخ به البطن، واستدارت عليه الحوايا، واستغاثت منه المعدة، وتقوَّست منه الأضلاع، والتوت عليه المصارين، وخِيف منه الموت.

وقيل لطبيب: ما حد الشبع؟ قال: ما عدَّل الطبيعة، وحفظ المزاج، وأبقى شهوة لما بعد.

وقيل لقصَّار: ما حد الشبع؟ قال: أن تثب إلى الجفنة كأنك سِرْحان، وتأكل وأنت غضبان، وتَمْضَغ كأنك شيطان، وتبلع كأنك هَيْمان، وتَدَع وأنت سكران، وتستلقي كأنك أَوَان. (١٣٨)

وقيل لحمَّال: ما حد الشبع؟ قال: أن تأكل ما رأيت بعَشْرِ يديك غير عائفٍ ولا متقزِّزٍ، ولا كارهٍ ولا متعزِّز.

وقيل لملَّاح: ما حد الشبع؟ (١٣٩) **قال: حد السُّكْر. قيل:** (١٤٠) **فما حد السكر؟ قال: ألا تَعرف السماء من الأرض، ولا الطولَ من العرض، ولا النافلة من الفرض، من شدة النَّهْس والكسر والقطع والقرض. قيل له: فإن السكر محرَّم فلِم جعلت الشبع مثله؟ قال: صدقتم، هما سُكران: أحد السكرين موصوفٌ بالعيب والخسار، والآخر معروفٌ بالسكينة والوقار. قيل [له]: أما تخاف الهَيْضَة؟ قال: إنما تصيب**

الهيضة من لا يسمِّي الله عند أكله، ولا يشكره على النعمة فيه، فأما من ذكر الله وشكره فإنه يَهْضِم ويستمرئ ويَقْرَم إلى الزيادة.

وقيل لبخيل: ما حد الشبع؟ قال: الشبع حرامٌ كله، وإنما أحل الله من الأكل ما نَفَى الخَوى، وسكَّن الصُّداع، وأمسك الرَّمَق، وحال بين الإنسان وبين المرح، وهل هلك الناس في الدين والدنيا إلا بالشبع والتضلُّع والبِطنة والاحتشاء؟ والله لو كان للناس إمامٌ لوكَّل بكل عشرةٍ منهم من يحفظ عليهم عادة الصحة، وحالة العدالة، حتى يزول التعدي، ويفشو الخير.

وقيل لجندي: ما حد الشبع؟ قال: ما شد العضُد، وأحمَى الظهر، وأدرَّ الوريد، وزاد في الشجاعة.

وقيل لزاهد: ما حد الشبع؟ قال: ما لم يَحُل بينك وبين صوم النهار وقيام الليل، وإذا شكا إليك جائعٌ عرفتَ صدقه لإحساسك به.

وقيل لمدني: ما حد الشبع؟ فقال: لا عهد لي به، فكيف أصف ما لا أعرف؟

وقيل ليمني: ما حد الشبع؟ قال: أن يُحشَى حتى يُخشَى.

وقيل لتركي: ما حد الشبع؟ قال: أن تأكل حتى تدنو من الموت.

وقيل لسِمِّويه[١٤١] القاص: من أفضل الشهداء؟ قال: من مات بالتُّخَمة، ودُفِن على الهَيْضَة.

قيل لسمرقندي: ما حد الشبع؟ قال: إذا جحظت عيناك، وبكِم لسانك، وثقُلت حركتك، وارجحنَّ بدنك، وزال عقلك؛ فأنت في أوائل الشبع. قيل له: إذا كان هذا أوله فما آخره؟ قال: أن تنشق نصفين.

قيل لهندي: ما حد الشبع؟ قال: المسألة عن هذا كالمحال، لأن الشبع من الأرُزِّ النقي الأبيض الكبار الحب، المطبوخ باللبن والحليب، المغروف على الجام البِلَّور، المَدُوفر[١٤٢] بالسكر الفائق؛ مخالفٌ للشبع من السمك المملوح وخبز الذرة، وعلى هذا يختلف الأمر في الشبع. فقيل له: فدع هذا، إلى متى ينبغي أن يأكل الإنسان؟ قال: إلى أن يقع له أنه إن أراد لقمة زهقتْ نفسُه إلى النار.

قيل لمُكارٍ: ما حد الشبع؟ قال: والله ما أدري، ولكن أحب أن آكل ما مشى حماري من المنزل إلى المنزل.

قيل لجمَّال: ما حد الشبع؟ قال: أنا أواصل الأكل فما أعرف الحد، ولو كنتُ أنتهي لوصفتُ الحال فيه، أعني أني ساعةً ألتُّ[١٤٣] الدقيق، [وساعة أَمَلُّ المَلَّة، وساعةً أثرُد، وساعةً آكل،] وساعةً أشرب لبن اللِّقاح، فليس لي فراغ فأدري أني بلغتُ من الشبع، إلا أنني أعلم في الجملة أن الجوع عذابٌ وأن الأكل رحمة، وأن الرحمة كلما كانت أكثر كان العبد إلى الله أقرب والله عنه[١٤٤]أرضى.

قال الوزير لما بلغتُ هذا الموضع من الجزء – وكنتُ أقرأ عليه: ما أحسنَ ما اجتمع من هذه الأحاديث! هل بقي منها شيء؟ قلت: بقي منها جزء آخر. [١٤٥] قال: دعه لليلةٍ أخرى وهات ملحة الوداع. قلت: قيل لصوفيٍّ في جامع المدينة: ما تشتهي؟ قال: مائدةً رَوْحاء، [١٤٦] عليها جفنةٌ رَحَّاء، [١٤٦] فيها ثريدةٌ صفراء، وقِدْرٌ حمراء بيضاء.

قال: [١٤٧] أبَيْتَ [١٤٨] الآن [ألا] تودِّع إلا بمثل ما تقدم! وانصرفتُ.

هوامش

(١) في «أ»: محل، وهو تحريف.

(٢) في «أ»: والثلمة.

(٣) «فقال»: أي الوزير.

(٤) في «ب»: «ربَّق»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٥) في «أ»: «وتوابعها»، وهو تحريف.

(٦) في «أ»: «أعرف ما قربك منها»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٧) في الأصل: «من كان»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما في «ب».

(٨) كذا ورد في كلتا النسختين هذه الكلمات الأربع التي تحت هذا الرقم؛ ولم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا ما يفيد أنه يقال في لفظ رصيف وقديم

رصف أو قدم بالتحريك فيهما؛ فلعل في هذه الكلمات ترحيفًا لم نهتد إلى صوابه بعد البحث الطويل.

(٩) كذا ورد في كلتا النسختين هذه الكلمات الأربع التي تحت هذا الرقم؛ ولم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا ما يفيد أنه يقال في لفظ رصيف وقديم رصف أو قدم بالتحريك فيهما؛ فلعل في هذه الكلمات ترحيفًا لم نهتد إلى صوابه بعد البحث الطويل.

(١٠) النقيل: مداومة العدْو وسرعة نقل القوائم.

(١١) الخبيط: الذي يُضرب من ورق الشجر حتى ينحاتَّ بدون أن يضر ذلك بأصل الشجرة وفروعها.

(١٢) كذا ورد في كلتا النسختين هذه الكلمات الأربع التي تحت هذا الرقم. ولم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا ما يفيد أنه يقال في لفظ رصيف وقديم رصف أو قدم بالتحريك فيهما، فلعل في هذه الكلمات تحريفًا لم نهتدِ إلى صوابه بعد البحث الطويل.

(١٣) كذا ورد في كلتا النسختين هذه الكلمات الأربع التي تحت هذا الرقم. ولم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا ما يفيد أنه يقال في لفظ رصيف وقديم رصف أو قدم بالتحريك فيهما، فلعل في هذه الكلمات تحريفًا لم نهتدِ إلى صوابه بعد البحث الطويل.

(١٤) في كتب اللغة «الشجر» مكان «الشوك».

(١٥) يلاحَظ أن قفلًا ليس جمعًا لقفيل، بل هو جمع قفلة بفتح القاف.

(١٦) نظيره في الجمع خدم جمع خادم.

(١٧) شاهده قول النابغة في مدح النعمان:

فتلــك تبلغنــي النعمــانَ إن لــه فضـلًا على الناس في الأدنى وفي البعد

بالتحريك. وفي رواية: «والبعد» بضمتين.

(١٨) في «أ»: «قال»، وهو تحريف.

(١٩) في «أ»: «فامتاز في الغرارة حميل»، وهو تحريف في هذه الكلمات الثلاث صوابه ما أثبتنا.

(٢٠) في «أ»: «تعاظمت».

(٢١) يلاحَظ أن هنا كلامًا ساقطًا من كلتا النسختين كما يظهر لنا، إذ لم يتقدم ذكر لأبي بكر هذا ولا حديث عنه.

(٢٢) في «ب»: «لأن الله».

(٢٣) في «أ»: «اجتنب»، وهو تحريف.

(٢٤) في «أ»: «وكما أنه إذا.» وقوله «إذا» زيادة من الناسخ لا معنى لها في هذا الموضع.

(٢٥) في «أ»: «يندر» بالنون في كلا الموضعين، وهو تحريف.

(٢٦) في «أ»: «يندر» بالنون في كلا الموضعين؛ وهو تحريف.

(٢٧) في الأصل: «ومنَّ» بالنون، وهو تحريف.

(٢٨) في «أ»: بالطاعمين، والباء محرفة عن الواو كما هو ظاهر من السياق.

(٢٩) في «أ»: يمشون، وهو تحريف.

(٣٠) في «أ»: «يعيشون»، وهو تصحيف.

(٣١) في «ب»: «يضجون».

(٣٢) في كلتا النسختين: بالأزمنة، وهو تحريف.

(٣٣) في «ب»: «إعلموا»، وهو تحريف.

(٣٤) في «أ»: ناصح، وهو تحريف.

(٣٥) في «أ»: «الإمساك»، ولا يستقيم به المعنى.

(٣٦) في «أ»: ويتراوى اختياره.

(٣٧) في «أ»: «إلى»، وهو تحريف.

(٣٨) في «أ»: «ينصرنا»، وهو تحريف.

(٣٩) في «أ»: «وبدهره المتين»، وفي «ب»: «ويد هذه المبين»، وهو تحريف في كلتا النسختين، وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام.

(٤٠) في «ب»: «أحكام»، وهو تحريف.

(٤١) كذا في كلا الأصلين، وقد وردت هذه الكلمة في [الجزء الثاني – الليلة التاسعة عشرة] منسوبة إلى حاتم، أي حاتم الأصم.

(٤٢) في «ب»: «الزاهد».

(٤٣) في «أ»: «خالد»، وهو تبديل من الناسخ.

(٤٤) في «ب»: «أخرج»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٤٥) في «أ»: «المرء»، وهو تحريف.

(٤٦) في «أ»: «ابن الحنبل»، وهو تصحيف. وقد سبق كلامه هذا في [الجزء الثالث – الليلة الثالثة والثلاثون].

(٤٧) هذه الكلمة في «أ» لم يظهر منها إلا بعض حروفها، وفي «ب» مطموسة كلها.

(٤٨) سياق الكلام يفيد أن الثاني قال مثل ما قال الأول وبعث بالشاة إلى أخ ثالث، وحذف ذلك للعلم به.

(٤٩) يريد بالفضل هنا: ما فضل من المال وزاد.

(٥٠) هذه الكلمة مطموسة في «أ»، ولم يظهر منها في «ب» غير النون، وما أثبتناه هو المناسب للسياق.

(٥١) في «أ»: وأدى، وهو تحريف.

(٥٢) في «أ»: «صنعوا»، وهو تصحيف.

(٥٣) في «أ»: المفضل بن الحيان، وهو تحريف.

(٥٤) المكوك: من مكاييل العراق، وهو صاع ونصف أو هو ثلاث كيلجات، والكيلجة منا وسبعة أثمان منا، والمنا رطلان.

(٥٥) لعله يريد بالخوازن: أهل خوزستان، وهم فيما يقال ألأم الناس وأسقطهم نفوسًا.

(٥٦) في «أ»: صار، وهو تحريف.

(٥٧) سلمان: أي سليمان، وهي لغة فيه.

(٥٨) ورد موضع هذه النقط في «أ» وحدها كلامٌ هذا نصه: انزل بقوم قفرة صمام ولم يأتوه به ولكن دلوه على موضعه، وقالوا له: اذهب ما منه، وكأنه يذم أم مبواء:

إذا دعيت بما في البيت قالت   نحن من الجدال وما حييت

ولا يخفى ما في هذا كله من التحريف الكثير، وقد بحثنا عنه في مختلف المصادر التي بين أيدينا فلم نجده.

(٥٩) السكباجة: مرق يُصنع من اللحم والخلِّ.

(٦٠) وردت هذه الكلمة في «أ» مهملة الحروف من النقط، وفي «ب»: «دسجة»، والصواب ما أثبتنا. والدستجة: إناء كبير من زجاج، فارسيته دسته.

(٦١) في «أ»: «حيث»، وهو تصحيف.

(٦٢) البيت لغسان بن ذهل يهجو جريرًا وقبله:

لعمري لئن كانت بجيلة زانها   جرير لقد أخزى كليبًا جريرها

إذا نزعت يومًا كليب وسومت   تقاعس في ظهر الأتان مغيرها

رأيت كليبًا يعرف اللؤم ريحها   إذا اسودَّ بين الأملحين جعورها

ولا يذبحون الشاة ... ... إلخ

انظر الجزء الأول من ديوان جرير، ص١٣٤، طبع المطبعة العلمية.

(٦٣) ٦٣ في «أ»: «بمئزر»، وفي «ب»: «بمنسر» بالنون، وهو تحريف في كلتا النسختين، والتصويب عن ديوان جرير، ج١، ص١٣٤، طبع المطبعة العلمية. يريد أن ذبح الشاة عندهم أمر ذو بال لا يفعلونه إلا بواسطة قداح

الميسر التي يشترك فيها الجميع وتُفرَّق بينهم كلٌّ بنصيبه، كما يُذبح الجزور في زمن الجدب والقحط.

(٦٤) كذا ورد هذا الاسم في كلتا النسختين.

(٦٥) في «أ»: «أسنه»، وهو تصحيف.

(٦٦) في «ب»: «وسعسعه» بمهملتين. والمعنى واحد.

(٦٧) كذا في «ب» وكتب اللغة، والذي في «أ»: «وأمرغه» بالغين المعجمة.

(٦٨) الطفيشل: نوع من المرق.

(٦٩) في «أ»: القدر، وهو تبديل من الناسخ.

(٧٠) في «ب»: «عنده».

(٧١) في «أ»: «ابن مبروم»، وفي «ب»: ابن الهرم، وهو تحريف في كلتا النسختين، والتصويب عن كتب اللغة ومعجمات الأعلام التي بين أيدينا.

(٧٢) في «أ»: حرافين، وفي «ب»: حرادين، وهو تحريف في كلتا النسختين، والتصويب عن كتب اللغة وكتب الحديث. وأم جرذان: نوع من الرطب كبار، وسُمِّي بذلك لأن نخله يجتمع تحته الجرذان لحلاوة ثمره، وأم جرذان آخر نخلة بالحجاز إدراكًا، وهي أم جرذان رطبًا، فإذا جفَّت فهي الكبيس.

(٧٣) في «ب»: «ينضب»، وهو تحريف.

(٧٤) الحيس: تمر يُخلط بسمن وأقط فيُعجن شديدًا ثم يخرج منه نواه.

(٧٥) السويطة: من السوط وهو الخلط. وفي «أ»: «الصريطة»، وهو تحريف.

(٧٦) في اللسان أن «الرغيفة» حسو من الزبد، وقيل: لبن يُغلى ويُذَرُّ عليه دقيق.

(٧٧) في اللسان أن «الحريرة» دقيق يُطبخ بلبن أو دسم.

(٧٨) في اللسان: أن النجيرة لبن وطحين يُخلطان، وقيل: هي لبن حليب عليه سمن، وقيل: هي ماء وطحين يُطبخ. والنجيرة: بين الحسو وبين العصيدة. والذي في كلتا النسختين: «النحيرة»، وهو تصحيف.

(٧٩) الحسو: طعام يُعمل من الدقيق والماء.

(٨٠) وقيل إن اللوقة الزبدة.

(٨١) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مضطربة الحروف في رسمها، وقد قلبناها على عدة وجوه، وهذا الذي أثبتناه هو ما وجدناه في كتب اللغة بالمعنى الذي ذكره المؤلف هنا.

(٨٢) الخلفة: المخاض من النياق.

(٨٣) في كتب اللغة أن «النخيسة» و«القطيبة» لبن الماعز يُخلط بلبن الضأن، لا لبن إبل كما هنا.

(٨٤) عبارة اللغويين: «لا أدم معه.»

(٨٥) في «أ»: «وشواء النار».

(٨٦) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مصحفة الحروف يحتاج إصلاحها إلى بحث في كتب اللغة. وهذا الذي أثبتناه هو ما وجدناه في تلك الكتب بالمعنى المذكور هنا، وهو الخبز اليابس.

(٨٧) «الفطير»: هو الذي أُعجل قبل أن يختمر.

(٨٨) كذا في كتب اللغة. وقد وردت هاتان الكلمتان في كلتا النسختين مصحَّفتَي الحروف يحتاج إصلاحهما إلى تقليبهما على عدة وجوه.

(٨٩) في كلتا النسختين: «وقد وحاء حب»، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين. وما أثبتناه عن كتب اللغة.

(٩٠) وردت هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين في كلتا النسختين مضطربة الحروف تتعذر قراءتها، والسياق يقتضي إثباتها على هذا الوجه.

(٩١) السكباجة: مرق يُعمل من اللحم والخل.

(٩٢) عامر: من أسماء الخبز، ويُسمَّى أيضًا جابرًا وعاصمًا. والذي في الأصل: بجو مكان «يجوء» ... وبجيٌّ وبجوٌّ في التفسير بعد، وهو تحريف، والتصويب عن اللسان. وفي كتاب ما يُعوَّل عليه: «يلم فيلقي»، وجابر مكان «عامر».

(٩٣) عامر: من أسماء الخبز، ويُسمَّى أيضًا جابرًا وعاصمًا. والذي في الأصل: بجو مكان «يجوء» ... وبجيٌّ وبجوٌّ في التفسير بعد، وهو تحريف، والتصويب عن اللسان. وفي كتاب ما يُعوَّل عليه: «يلم فيلقي»، وجابر مكان «عامر».

(٩٤) في كلتا النسختين: «دانيا»، وهو تصحيف. والتصويب عن اللسان وما يُعوَّل عليه، وروايته في كلا الكتابين: أبا مالك إن الغواني هجرنني أبا مالك ... إلخ.

(٩٥) في «ب»: التوزي. والثوري والتوزي كلاهما معروف.

(٩٦) في «أ»: لأجعلنك.

(٩٧) الغرز بالتحريك: نبات يشبه الثمام ينبت على شواطئ الأنهار. وفي كلتا النسختين: عزيز، وهو تصحيف.

(٩٨) يقال: اختلف إلى الخلاء، إذا أصابه إسهال فتردد إليه.

(٩٩) يظهر أن في هذه العبارة نقصًا وقع من الناسخ.

(١٠٠) في «أ»: «وقت» بالواو، وهو تحريف، ولعل صوابه: «رقت» بالراء مع تشديد القاف. وفي «ب»: «درت» بالدال المهملة والراء، وهو تحريف أيضًا، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام.

(١٠١) في «ب»: في قوله عز وجل.

(١٠٢) الكرنافة: أصول الكرب التي تبقى في جذع النخلة بعد قطع السعف.

(١٠٣) الكربة بالتحريك: أصول السعف الغلاظ العراض التي تُقطع منها.

(١٠٤) إن تسبق: أي ما تسبق، فإن هنا نافية.

(١٠٥) أجم الطعام: ملَّه.

(١٠٦) لقعه بعينه: أي أصابه بها.

(١٠٧) في «ب»: «القاضي» بالضاد المعجمة، وفي «أ»: «العاص» بالعين المهملة.

(١٠٨) في «أ»: «ورداؤه»، وفي «ب»: «وعداؤه»، وهو تصحيف.

(١٠٩) العلقة: ما يُتبلَّغ به من الطعام. والفلقة: القطعة، كالفِلْذة.

(١١٠) في كتب اللغة أن الشلقة شيء على خلقة السمك صغير له رجلان، عند ذنَبه كهيئة الضفدع، ويكون في أنهار البصرة، ولعله المعروف عندنا بأبي جلنبو.

(١١١) الجمع بضم الجيم وسكون الميم: ما يملأ جمع الكف، أي قبضته من الطعام ونحوه.

(١١٢) الحفالة: الحثالة، أو عكر الدهن، أو ما رقَّ من رغوة اللبن، كلٌّ من هذه المعاني الثلاثة تصح إرادته هنا. وفي «أ»: «ولا صقالة»، وهو تحريف.

(١١٣) سيأتي ما يفيد تعليل كون بيته عامرًا بالفأر مع خلوه من الطعام.

(١١٤) «يمنعهم»: الضمير يعود على الفِئَرَة.

(١١٥) سحبها: أي سحب البكرة التي يُستقَى بها من البئر. وفي «ب»: «شحنها»، وهو تصحيف. «والممتاح»: مِن «امتاح الماء» إذا أخرجه من البئر.

(١١٦) لحبت عرائكها: أي أهزلت أسنمتها، جمع عريكة.

(١١٧) لحب الشفار ... إلخ: اللحب في هذا الشطر بمعنى القطع، أي كما تقطع الشفار – أي «السكاكين» – لحم النياق العظيمة. أو لعله السفار بالسين المهملة مكان الشين، أي كما يهزل السفر تلك النياق بمشقته فيذهب بما فيها من لحم وشحم.

(١١٨) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «بكر». وقد ورد هذا الشعر في ديوان معن بن أوس المطبوع في ليبزج سنة ١٩٠٣، من قصيدة يمدح بها سعيد بن العاص، وأولها:

إليك سعيد الخير جابت مطيتي ... فروج الفيافي وهي عوجاء عيهل

(١١٩) يريد بالتطام الأمواج هنا اضطرابَ ما في القدر عند غليانها، ويريد بقوله «عوائذ دهم» خيلًا سودًا حديثات النتاج. شبَّه القدور بتلك الخيل التي معها أولادها. وقيِّل: من القائلة. ويُرْوَى «عواتب» مكان قوله «عوائذ»، وهي التي تمشي على ثلاث قوائم وعُقِرت رابعتها، شبَّه القدر بها لأنها تُوضع على أثافيَّ ثلاث.

(١٢٠) المرملون: الذين نفدت أزوادهم. والجزل: الحطب الغليظ. والذي في كلتا النسختين: «إذا ما امتطاها الموقدون»، وهو تحريف.

(١٢١) اللغط (بفتح أوله وتسكين ثانيه): اللغط بفتحهما معًا، وهو نشيش القدر. وفي كلتا النسختين: «لفظًا»، وهو تحريف. والتصويب والتفسير عن ديوان معن بن أوس المطبوع في ليبزج. وتغطمطت: أي صوَّتت في غليانها. والرزَّم من الإبل: التي تخرج أصواتها من حلوقها لا تفتح بها أفواهها، كما ورد ذلك في التفسير المكتوب على هذا البيت في شعر معن بن أوس. وفي كلتا النسختين: «تحفل» بالحاء المهملة مكان «تجفل» بالجيم، وهو تصحيف.

(١٢٢) في رواية: «زادًا ومطعمًا»، وكانت العرب في الجدب تشق أسنمة الإبل وهي حية وتأخذ ما فيها من الشحم وتأكله.

(١٢٣) عتيق القد: أي القديم من الجلد، وكانت العرب تشتويه وتأكله إذا أجدبت. ويشير بالشطر الثاني إلى قلة اللبن، حتى إن الخود (وهن الشوابُّ الحسان الناعمات) لا يجدن اللبن يغتبقن به، أي يشربنه في المساء، فهن يشربن الماء الحار المسخَّن، يقال: حمَّم الماء إذا سخنه. وفي الأصل: «الجود» بالجيم مكان «الخود» بالخاء، وهو تصحيف.

(١٢٤) المقاحيد من النياق: العظيمة الأسنمة. والجلة: العظيمة منها. والبرك: الإبل الباركة.

(١٢٥) «قال»: أي من روى عنه المؤلف، ولعله الأصمعي إذ هو أقرب مذكور.

(١٢٦) لم نجد هذا النوع من الطعام فيما راجعناه من الكتب.

(١٢٧) في «أ» التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون «ب»: واجاءه، وهو تحريف، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(١٢٨) باجميرى: موضع دون تكريت من أرض الموصل كان يعسكر فيه مصعب بن الزبير. والذي في «أ» الوارد فيها هذه القصة وحدها دون «ب»: بأحمز، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن كتب التاريخ ومعجم البلدان لياقوت.

(١٢٩) السفائف: جمع سفيفة، وهي النسيجة من الخوص نحو الزنبيل. وفي الأصل: «سقائف»، وهو تصحيف.

(١٣٠) الرهوة: المكان المنخفض من الأرض.

(١٣١) الوديق: من الوداق بكسر الواو، وهو شهوة الفحل.

(١٣٢) يظهر لنا أن موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل يفيد أنهم أقبلوا إلى فرس آخر ذُكر لرجل منهم يُسمَّى حوشبًا، فخلوا عنه ... إلخ ما هنا، وذلك أخذًا من قوله فيما يأتي بعد: فدفعوا الفرس الوديق فيها وتبعها الفرس ... إلخ القصة.

(١٣٣) «وهو»: أي فرس آخر ذُكر، ولم يُذكر في الكلام، فلعل فيه نقصًا كما نبهنا على ذلك في الحاشية التي قبل هذه.

(١٣٤) في «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها دون «ب»: «أثابك»، في كلا الموضعين، وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا نقلًا عن كتب اللغة.

(١٣٥) في «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: «معتمر»، ولم نتبين له معنًى يناسب السياق، والصواب ما أثبتنا. والمعتنز: المتنحِّي بعيدًا.

(١٣٦) في «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: «كأنهم ضيقه»، وهو تحريف. وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا. وملة النار: موضعها.

(١٣٧) «ويهًا فل» بالفاء: أي إذا نُودي باسمه لعظائم الأمور فقيل: يا فلان، نكل عن النداء وتنكَّب. وفي الأصل: «قل» بالقاف ... ويتكل، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين، والتصويب عن اللسان. وويهًا: كلمة حضٍّ واستحثاث.

(١٣٨) الأوان: العدل (بكسر العين)، كالأون (بسكون الواو).

(١٣٩) في «ب»: «الأكل» مكان «الشبع»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(١٤٠) كذا في «ب» وهو أنسب. والذي في «أ»: «قال».

(١٤١) كذا ورد هذا الاسم في الأصول، ولم نقف عليه فيما راجعناه من الكتب.

(١٤٢) المدوف: المخلوط. وفي كلتا النسختين: «المدفون»، وهو تحريف.

(١٤٣) في «ب»: «أعجن».

(١٤٤) في «ب»: «عن العبد».

(١٤٥) في «ب»: «واحد» مكان قوله: «آخر».

(١٤٦) يقال: جفنة روحاء، إذا كانت واسعة عريضة، والرحَّاء كذلك.

(١٤٧) «قال»: أي الوزير.

(١٤٨) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مهملة الحروف تتعذر قراءتها، والسياق يقتضي إثباتها على هذا الوجه.

الليلة الثانية والثلاثون

ثم حضرتُ فقرأتُ ما بقي من هذا الفن.

قال رجلٌ من فزارة: (١)

تنـــبح أحيانًـــا وأحيانًـــا تهِـــرّ   وتتمطَّـــى(٢) ســـاعةً وتقـــدحِرّ

تعدُو على الضَّيْف(٣) بعودٍ منكسر   يســـقط عنهـــا ثوبُهـــا وتَـــأْتزر

لـو نُحـرتْ فـي بيتهـا عشـر جُـزُر   لأصـــبحتْ مـــن لحمهـــنَّ تعتـــذرْ

بحَلِـــفٍ سَـــحٍّ(٤) ودمـــعٍ منهمـــرْ   يَفِـــرُّ مَـــن قاتلَهـــا(٥) ولا تفـــرّ

المُقْدَحِرُّ: المتهيئ للسِّباب.

وقال أبو دُلامة الأسَدي: (٦)

قـد يُشبع الضـيفَ الـذي لا يشبعُ   مـــن الهَبِيـــد والجِـــرادُ تَسَـــعُ(٧)

ثم يقول ارضُوا بهذا أو دَعُوا

وقال آخر:

حتى إذا أضحى تَـدَرَّى٨ واكتحـلْ   لجارتَيْـــهِ ثـــم ولَّـــى فنَثَـــلْ

ذرْقَ الأنُوقَيْنِ(٩) القَرَنْبَى والجُعَلْ

وقال آخر:

[إذا[10] أتــوْه بطعــامٍ وأكَــلْ] بـات يُعَشِّـي وحـدَه أَلْفَـيْ جُعَـلْ

وقال أبو النجم:

[تُدْني من الجَدْوَلِ[11] مثلَ الجدولِ] أجـوفَ فـي غَلْصَـمَةٍ[12]كالمِرْجـلِ

تسـمعُ للمـاء كصـوت المِسْـحَلِ[13] بـين وَرِيـدَيْها[14]وبـين الجحْفـلِ

يُلقيـه[15] مـن طُـرْقٍ أتتْهـا مـن عـلِ قذفُ لها جوفٍ وشِدقٍ أهْدل[16]

كـأنَّ صـوتَ جَرْعهـا المُسْـتعجِلِ جَنْدلـةٌ دَهْـدَهَتْها[17]فـي جَنْـدلِ

وقال آخر:

يقول للطاهي المُطَرِّي[18]في العملْ ضَـهِّبْ[19]لنـا إن الشِّـواء لا يُمَـلّْ

بالشَّـحْمِ إمـا قـد أَجَمْنـاه[20]بِخَـلّْ عَجِّـلْ لنـا مِـن ذا وأَلْحِـقْ بالبَـدَلْ

وأنشد ابن الأعرابي:

أعــددتُ للضــيفِ وللرفيــقِ والجــارِ والصــاحب والصــديقِ

وللعِيــال الــدَّرْدَقِ[21]اللَّصُــوقِ حمــراءَ مــن مَعْــز أبــي مــرزوقِ

تَلْحَــسُ خــدَّ الحالــب الرفيــقِ بلــيِّن المَــسِّ قليــل الرِّيــقِ

كــأنَّ صــوتَ شُــخْبِها الفَتيــقِ فحــيحُ[22]ضــبٍّ حَــرِبٍ حَنِيــقِ

في جُحُرٍ ضاق أشدَّ الضيق

وأنشد أيضًا:

هل لك في مِقْراةِ قَيْلٍ نِيٍّ[٢٣] وشَكْوةٍ باردةِ النَّسِيِّ[٢٤]

تُخْرِجِ[٢٥]لحمَ الرجل الضَّوِيِّ حتى تراه ناهدَ الثُّدِيِّ؟

وأنشد ابن حبيب:

نِعْم لَقُوحُ[٢٦]الصِّبْية الأصاغرِ شَرُوبُهم من حَلَبٍ وحازِرِ[٢٧]

حتى يَرُوحوا سُقَّطَ المآزر وُضْعَ الفِقاح[٢٨]نُشَّزِ الخَواصِر

وأنشد الآمِديُّ:

كأن في فِيه حِرَابًا شُرَّعَا زُرْقًا تَقُضُّ[٢٩]البدَنَ المُدَرَّعَا

لو عَضَّ رُكْنًا وَصَفًا تَصدَّعا

وقال محمد بن بشير:

لَقَلَّ عارًا[٣٠] إذا ضَيفٌ تَضيَّفني ما كان عندي إذا أَعطيتُ مجهودي

فضلُ المُقِلِّ إذا أعطاه مصطبِرًا ومُكْثِرٍ في الغِنَى سيَّان في الجُودِ

لا يَعْدَم السائلون الخيرَ أَفعلُه إمَّا نَوَالِي وإما حُسْنَ مَرْدودي

قال الأعرابي: نِعْم الغداء السويق! إن أكلتَه على الجوع عَصَم، وإن أكلتَه على الشِّبع هَضَم.

وقال العَوَّامي[(٣١)]– وكان زوَّارًا لإخوانه في منازِلهم: العُبوسُ بُوس، والبِشْر بُشرى، والحاجَة تَفْتُق الحيلة، والحيلة تَشحذُ الطبيعة.

ورأيت الحنبلوني[(٣٢)]ينشد [ابن آدم – وكان موسرًا بخيلًا]:

وما لامرئٍ طولُ الخلود وإنما ... يخلِّده حسن الثناء فيَخلُدُ

فلا تدَّخرْ زادًا فتصبحَ مُلْجَأً ... إليه وكُلْه اليوم يُخْلِفْه الغَدُ

وحكى لنا ابن أسادة قال: كان عندنا – يعني بأصفهان – رجلٌ أعمى يطوف ويسأل، فأعطاه مرةً إنسانٌ رغيفًا فدعا له وقال: أحسن الله إليك، وبارك عليك، وجزاك خيرًا، وردَّ غربتك! فقال له الرجل: ولمَ ذكرتَ الغربة [في دعائك؟ وما عِلْمك بالغربة؟] فقال: الآن لي ها هنا عشرون سنة ما ناولني أحدٌ رغيفًا صحيحًا.

وقال آخر:

يُرَى جارُهم فيهم نحيفًا وضيفُهم ... يجوع وقد باتوا مِلاءَ المَذَاخِرِ[(٣٣)]

وقال الكَرَوَّسِيُّ:

ولا يستوي الاثنان[(٣٤)]للضيف آنِسٌ ... كريمٌ وزاوٍ بين عينيه قاطبُ

وأنشد:

طعامُهمْ فَوْضى فَضَى في رحالهمْ ... ولا يُحْسِنون السر إلا تنادِيا[(٣٥)]

وأنشد آخر:

يُمــانُ ولا يَمــونُ وكــان شــيخًا　　　شــديدَ اللَّقْــم هِلْقامًــا بطينــا[٣٦]

العرب تقول: إذا شَبِعَتِ الدَّقيقة[٣٧] لَحَسَتِ الجَلِيلة.

قال ابن سلَّام: كان يُخبَز في مطبخ سليمان – عليه السلام – في كل يومٍ ستُّمائة كُرٍّ[٣٨] حنطة، ويُذبح له في كل غداةٍ ستة آلاف ثور وعشرون شاةً، وكان يُطعِم الناس ويُجلِس على مائدته بجانبه[٣٩] اليتامى والمساكين وأبناءَ السبيل، ويقول لنفسه: مسكينٌ بين مساكين.

ولما ورد تِهامة وافى الحرمَ وذبح للبيت طول مُقامه بمكة كلَّ يومٍ خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة. وقال لمن حضر: إن هذا المكان سيخرج منه نبيٌّ صفته كذا وكذا.

وقال أعرابي:

وإذا خَشِـيتَ مـن الفـؤاد لَجَاجَـةً　　　فاضـربْ عليـه بجُرْعـةٍ مـن رائـبِ

وروى هشيم أن النبي ﷺ قال: مِن كرم المرء أن يطيِّب زاده في السفر.

وقال ابن الأعرابي: يقال: جاء فلانٌ ولقد لَغَط[٤٠] رباطُه من الجوع والعطش.

وأنشد:

رَبَا الجوعُ في أَوْنَيْه[٤١] حتى كأنه　　　جَنِيــبٌ بــه إن الجنيــب جنيــبُ

أي جاع حتى كأنه يمشي في جانب متعقِّفًا(٤٢)

وقال أيضًا: إن من شؤم الضيف أن يغيب عن عَشاء الحي، أي لا يدركه، فيريد إذا جاءهم أن يتكلفوا له عَشاءً على حدة.

وأنشد:

حيَّـاك ربُّـك واصـطبحتَ ثريـدةً وإدامُهـا رُزٌّ وأنـت تُـدَبِّلُ

واللُّقْمة واللقمة إذا جُمِعَتا من الثريد والعصائد يقال لهما دُبْلَة، ومنه سُمِّيت الدُّبَيْلة وهي الورم الذي يخرج بالناس. وأنشد:

أقـول لمَّـا ابتَرَكـوا جُنوحَـا بقصـعةٍ قـد طُفِّحَـتْ تَطْفِيحـا

دَبِّلْ أبا الجَوْزاء أو تَطِيحَا(٤٣)

وقال الفرزدق:

فـدبَّلْتُ أمثـالَ الأثـافِي كأنهـا رءوسُ أعـادٍ قُطِّعـتْ يـومَ مَجْمَـعِ

وقال سعيد بن المسيِّب: قال رسول الله ﷺ: «أطيبوا الطعام فإنه أنفى للسُّخط، وأَجْلَب للشكر، وأَرْضَى للصاحب.»

قال بشار:

يَغَـصُّ إذا نـال الطعـامَ بـذكركمْ ويَشْرَقُ مِن وَجْدٍ بكم حين يشربُ

المسعور: الجائع. قال هميان بن قُحافة:

لاقَى صِحافًا بَطِنًا مَسْعورا

وقال شاعر:

يمشي من البِطْنة مشيَ الأَبْزَخِ(٤٤)

البَزَخ: دخول البطن وخروج الثَّنَّة أسفل السُّرَّة.

وقال آخر:

أَغَــرُّ كمصــباحِ الدُّجنَّــة يَتَّقــي　　شَذَى(٤٥) الزاد حتى تُستفاد أَطايِبُهْ

شداه: (٤٥) طيبه.

وقال أعرابي: بنو فلان لا يَبْزرون(٤٦)ولا يَقْدُرون.

وقال الثوري: بَطِّنوا غَداءكم بشَرْبة.

[وقال الشاعر:] (٤٧)

لا يستوي الصَّوْتانِ حين تجاوَبَا　　صوتُ الكَرِيب(٤٨)وصَوْت ذِئْبٍ مُقْفِرِ

الكريب: الشوبَق(٤٩)وهو المِحْوَر والمِسْطَح.

وقال الشاعر:

إذا جاء باغي الخير قلْنا بَشاشةً　　لــه بوجــوهٍ كالــدنانير: مرحبَــا

وأَهْـلًا فـلا ممنـوعَ خيـر تريـده ولا أنـت تَخْشَـى عنـدنا أن نُؤَوَّبـا

قال الشعبي: استسقيتُ على خِوان قتيبة، فقال: ما أَسقيك؟ فقلت: الهيِّن الوُجْد، العزيز الفَقْد. فقال: يا غلام، اسْقِه الماء.

مرَّ مِسكينٌ بأبي الأسود ليلًا وهو ينادي: أنا جائع! فأدخله وأطعمه حتى شبع، ثم قال له: انصرف إلى أهلك. وأَتْبعه غلامًا وقال له: إن سمعتَه يسأل فارْدُده إليَّ. فلما جاوزه المسكينُ سأل كعادته، فتشبث به الغلام وردَّه إلى أبي الأسود. فقال: ألم تشبع؟ فقال: بلى. قال: فما سؤالك؟ ثم أمر به فحُبِس في بيتٍ وأُغْلق عليه الباب، وقال: لا تُرَوِّع مسلمًا سائر الليلة ولا تكذب. فلما أصبح خلَّى سبيله، وقال: لو أطعنا السؤَّال صرنا مثلَهم.

وسمع دابةً له تَعْتَلِف في جوف الليل، فقال: إني لأراك تَسْهَرين في مالي والناس نيام، والله لا تصبحين عندي! وباعها.

وأبو الأسود يُعَدُّ في الشعراء والتابعين والمحدِّثين والبخلاء والمَفَاليج والنحويين والقضاة والعُرْج والمعلمين.

وقال الشاعر:

أَنفـــق أبـــا عمـــرٍو ولا تَعَـــذَّرَا وكُـلْ مـن المـال وأَطعـم مـن عَـرَا

لا ينفع الدرهمُ إلا مُدْبِرا

كان مسلم بن قتيبة لا يجلس لحوائج الناس حتى يشبع من الطعام الطيب ويَرْوَى من الماء البارد، ويقول: إن الجائع ضيِّق الصدر، فقير النفس، والشبعان واسع الصدر، غني النفس.

وقال أعرابي:

هلكتُ هَرِيئةً[٥٠]وهلكتُ جوعًا | وخَرَّق مِعْدَتي شوك القَتادِ
وحبَّةُ حَنْظَل ولُبابُ قطنٍ | وتَنُّومٌ ينظِّمُ بطن وادي[٥١]

وقال الفرزدق:

وإن أبا الكِرْشاء[٥٢] ليس بسارقٍ | ولكنه ما يسرق القومُ يأكل

ولديك الجِن:

إذا لم يكن في البيت ملحٌ مطيِّبٌ | وخلٌّ وزيتٌ حول حُبٍّ[٥٣]دقيقِ
فرأْسُ ابن أُمِّي في حِرِ امِّ [ابن] خالتي | ورأسُ عدوِّي في حِرِ امِّ صديقي

وقال آخر:

وما جِيرةٌ إلا كليبُ بن وائلٍ | ليالِيَ تَحْمَى عِزَّةً مَنْبِتَ البَقْلِ

وقال مِسْعَر بن مكدَّم لرَقَبَة بن مَصْلة: أراك طُفَيْلِيًّا. قال: يا أبا محمد، كلُّ من ترى طفيليٌّ إلا أنهم يتكاتمون.

وقال شاعر:

قــومٌ إذا آنَســوا ضَــيْفًا فلــم يجــدوا إلا دَمَ الــرأْس صَــبُّوهُ علــى البــاب

قال المفجَّع: الرأس الرئيس.

اشتد بأبي فرعون الشاشيِّ الحالُ فكتب إلى بعض القضاة بالبصرة:

يـا قاضـي البصـرة ذا الوجـه الأغـرْ إليـك أشـكو مـا مضـى ومـا غبـر

عفــا زمــانٌ وشــتاءٌ قــد حضــرْ إن أبـا عَمْـرَة[٥٤]فـي بيتـي انْجَحَـرْ

يضــرب بالــدُّفِّ وإن شــاء زَمَــرْ فــاطْرُدْه عنــي بــدقيق يُنْتظَــرْ

فأجابه إلى ما سأل.

ويقال: وقف أعرابي على حلقة الحسن البصري رحمة الله عليه، فقال: رحم الله من أعطى من سَعَة، ووَاسَى من كَفَاف، وآثر من قِلَّة! فقال الحسن: ما أبقى أحدًا إلا سأله.

وقال ابن حبيب: يقال: أحمق من الضَّبُع، وذلك أنها وجدتْ تَوْدِيةً[٥٥] في غدير، فجعلت تشرب الماء وتقول: «يا حبذا طعمُ اللبن!» حتى انشق بطنُها فماتت. والتودية: العود يُشَدُّ على رأس الخِلْف٥٦ لئلا يَرْضَع الفصيلُ أمَّه.

دعا رجلٌ آخرَ، فقال له: هذه[٥٧] تُكْسِب الزيارة وإن لم تُسْعِد، ولعل تقصيرًا أنفعُ فيما أحبُّ بلوغَه من برِّك. [٥٨] فقال صاحبه: حرصك على كرامتي يكفيك مئونة التكلف لي.

قيل لأعرابي: لو كنتَ خليفةً كيف كنتَ تصنع؟ قال: كنتُ أستكْفي[٥٩] شريفَ كل قومٍ ناحيتَه، ثم أخلو بالمطبخ فآمر الطهاة فيُعْظِمون[٦٠] الثريدة ويُكْثِرون العُرَاق،[٦١] فأبدأُ فآكلُ لُقَمًا، ثم آذَن للناس، فأيُّ ضياعٍ[٦٢] يكون بعد هذا؟!

وقال أعرابي لابن عم له: والله ما جِفانُكم بعِظام، ولا أجسامكم[٦٣] بوِسام، ولا بَدَت[٦٤] لكم نار، ولا طُولِبْتُم بثار.

وقيل لأعرابي: لمَ قالت الحاضرة للعبد: باعك الله في الأعراب؟ قال: لأنَّا نُعْرِي جلْدَه، ونطيل كدَّه، ونُجِيعُ كِبْدَه.

وقال طفيلي: إذا حُدِّثتَ على المائدة فلا تزدْ في الجواب على نعم، فإنك تكون بها مؤانسًا لصاحبك، ومُسِيغًا للُقمتِك، ومُقبلًا على شأنك.

وقيل لأعرابي: أيُّ شيءٍ أحدُّ؟ قال: كبدٌ جائعة، تُلقِي إلى أمعاء ضالعة.[٦٥]

وقيل لآخَر: أيُّ شيء أحدُّ؟ قال: ضِرسُ جائع، يُلقِي [إلى] مِعًى ضالع.[٦٥]

وقال آخر:

أحبُّ أن أصطاد ضبًّا سَحْبَلا[٦٦] ... ووَرَلًا يرتادُ رَمْلًا أَرْمَلا

قالت سُلَيْمَى لا أحبُّ الجَوْزَلَا ولا أحبُّ السَّمَكاتِ مَأْكلا

الجَوْزَل: فرْخ الحمام. والورل: دابة. [٦٧] أرمل: صفةٌ للوَرَل. وإذا كان كذلك[٦٨]كان أسمن له، وهو[٦٩] يَسْفِدُ فيَهْزُل.

ويقال: أقبحُ هزيلَيْن: المرأةُ والفرَس، وأطيب غثٍّ أُكِل غثُّ الإبل، وأطيب الإبل لحمًا ما أكل السَّعْدان،[٧٠] وأطيب الغنم لبنًا ما أكل الحُرْبُث. [٧١]

ويقال: أَهْوَنُ مظلومٍ سِقاءٌ مُرَوَّب، وهو الذي يُسْقَى منه قبل أن يُمْخَض وتُخْرَج زُبْدَتُه.

ويقال: سقانا ظليمةَ وَطْبِه،[٧٢] وقد ظُلِمَتْ أَوْطُبُ[٧٣]القَوْم.

وقال الشاعر:

وصاحب[٧٤] صدْقٍ لم تَنلْني شَكاتُه ظلمْتُ وفي ظلمي له عامِدًا أجْرُ

يعني وَطْبَ لبن.

وكان[٧٥] الحسن البصري إذا طَبَخ اللحم قال: هلُمُّوا إلى طعام الأحرار.

قال سفيان الثوري: إني لألْقى الرجلَ فيقول لي «مرحبًا» فيلين له قلبي، فكيف بمن أطأُ بِساطه، وآكلُ ثَريدَه، وأَزْدَرِد عَصيدَه؟

حكى أبو زيد: قد[٧٦] هَجَأَ غَرْثِي: [٧٧] إذا ذهب، وقد أَهْجَأَ طعامُكم غَرْثِي: إذا قَطَعَه. قال الشاعر:

فـأخزاهُمُ٧٨ ربـي ودلَّ علـيهمُ وأَطْعَمهُمْ مِن مَطْعَمٍ غير مُهْجِئِ[٧٩]

قال: ويقال: بَأَرْتُ[٨٠]بؤرةً فأنا أَبْأَرُها، إذا حَفَرْتَ حَفيرةً يُطبَخ فيها وهي الإرَة، ويقال: أُرْتُ إرَةً فأنا أَئِرُها وَأْرًا.

وقال حسان:

تخال قدورَ الصَّادِ[٨١]حول بيوتنا قَنَابِل دُهْمًا في المَباءَةِ صُيَّما

قال أبو عُبيدة: كان الأصمعي بخيلًا، وكان يجمع أحاديث البخلاء ويوصي بها ولدَه ويتحدث بها.

وكان أبو عبيدة إذا ذُكر الأصمعيُّ أنشد:

عَظُم الطعام بعينه فكأنه هو نفسه للآكلين طعام

ويقال: أَسْأَرْتُ، إذا أبقيتَ من الطعام والشراب أو غيرهما، والاسم السُّؤْر وجماعته الأسْآر. ويقال: فأَدْتُ[٨٢] الخُبْزَة في المَلَّة٨٣ أَفْأَدُها[٨٢]إذا خبزتَها فيها. والمِفْأَد[٨٢] الحديدة التي يُخبَز بها ويُشوَى. ويقال: تملَّأْتُ من الأكل والشراب تملُّؤًا، إذا شَبِعْتَ منهما وامتلأتَ. ويقال: لَفَأْت[٤٨] اللحمَ عن العظم لَفْأً[٤٨] إذا جَلَفْتَ[٨٤] اللحم عن

العظم. واللَّفِيئة[٨٥] هي البَضْعَة التي لا عَظْم فيها، نحو النَّحْضَة٨٥ والهَبْرة والوَذْرَة. [٨٥]

وأنشد يعقوب:

سقى[٨٦] اللهُ الغَضا وخُبُوتَ قومٍ متى كانت تكون لهم دِيارا

أناسٌ لا يُنادي[٨٧] الضيفُ فيهم ولا يَقْرُون آنيةً صغارا

قال الأصمعي: قال ابن هُبَيْرة: تعجيل الغَداء يَزيد في المروءة، ويطيِّب النكهة، ويُعين على قضاء الحاجة.

قال بعض العرب: أطيب مضغة أكلها الناس صَيْحَانِيَّةٌ مُصَلَّبة. [٨٨]

ويقال: آكَلُ الدواب بِرْذَوْنةٌ رَغُوث، وهي التي يَرْضَعها ولدُها. [٨٩]

قال أبو الحارث حميد: ما رأيتُ شيئًا أشبَهَ بالقمر ليلة البدر من قِدْرٍ سُقِيَت اللبن كثيرةِ السُّكَّر.

وقال الشاعر:

وإني لأستحيي رفيقيَ أن يرى مكانَ يدي من جانب الزاد أَقْرَعا

ضم[٩٠] عثمانَ بن رَواح[٩١] السفرُ ورفيقًا له، فقال له الرفيق: امضِ إلى السوق فاشترِ لنا لحمًا. قال: والله ما أقدر. قال: فمضى الرفيقُ واشترى اللحم، ثم قال لعثمان: قم الآن فاطبُخ القِدر. قال: والله ما

أقدر. فطبَخها الرفيق، ثم قال: قم الآن فاثْرُد. قال: والله إني لأعْجِز عن ذلك. فثَرَد الرفيق، ثم قال: [قم] الآن فكُلْ. فقال: والله لقد استَحْييتُ من كثرة خلافي عليك ولولا ذلك ما فعلتُ.

قال يونس: أتيت ابن سيرين فدعوتُ الجارية، فسمعته يقول: قولي إنه نائم. فقلتُ: معي خَبِيص. فقال: مكانَك[٩٢] حتى أخرج إليك.

قال أردشير: احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شَبع.

قال النبي ﷺ فيما رواه جابر بن عبد الله: هلاك الرجل أن يحتقر ما في بيته أن يقدِّمه إلى ضيفه، وهلاكُ الضيف أن يحتقر ما قُدِّم[٩٣] إليه.

وقال الشاعر:

يـــا ذاهبًـــا فـــي داره جاثيًـــا[٩٤]	بغيـــــر معنًـــــى وبـــــلا فائـــــدةْ
قـــد جُـــنَّ أضـــيافُك مـــن جـــوعهم	فـــاقرأْ علـــيهم ســـورة المائـــدةْ

وقال ابن بدر:

ونحـن نبـذل عنـد القحـط مـا أكلـوا	من السَّدِيف إذا لم يُؤْنَسِ القَزَعُ[٩٥]
وننحر الكُوم[٩٦] عَبْطًا[٩٧] في أرُومَتِنا	للنـــازلين إذا مـــا اســـتُنْزِلوا شـــبعوا

وقال آخر:

أطعَمنـــــي بيضـــــةً ونــــاوَلني ... مـن بعـد مـا ذُقْـتُ فقـدَه قـدَحا

وقـال أيَّ الأصـوات تَسْـألُني؟(٩٨) ... يَزيــــد: إنــــي أراك مُقْتَرحــــا

فقلـتُ صـوتَ المِقْلَى وجَرْدَقَـةً(٩٩) ... إن خـاب ذا الاقتـراحُ أو صَـلَحا

فقطَّـب الوجـه وانثنـى غَضِـبًا(١٠٠) ... وكــان ســكران طافحًــا فَصَــحَا

فقلــتُ إنــي مَزَحْــتُ قــال كــذا ... رأيــتَ حــرًّا بمثــل ذا مَزَحــا؟

قال ابن حبيب: كان الرجل إذا اشتد عليه الشتاء تنحى ونزل وحده لئلا ينزل به ضيفٌ فيكون صُقْعًا مستحبًّا.

وهذا ضد قول زهير:

بسَـطَ البيـوت لكـي تكـون مطيـةً ... مـن حيـث تُوضـع جَفْنـةٌ اسْـتَرْفِدِ

فإذا كان الشتاء انحاز الناس من الجدب والجهد، وإذا أخصبوا أغاروا للثأر لا للسؤال.

وقال الشاعر في عُبيد الله بن عباس:

ففي السنة الجدباء أَطعمتَ حامضًا ... وحُلـوًا وشَـحمًا تامِكًـا(١٠١) وسَـنامَا

وقال مجاهد في قول الله عز وجل: وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً: أي طعامًا، يقال: اتَّكأنا عند فلانٍ، أي طَعِمنا.

ذكر الأصمعي أن أعرابيًّا خرج في سفر ومعه جماعة، فأرمل[١٠٢] بعضُهم من الزاد، وحضر وقت الغدَاء وجعل بعضُهم ينتظر بعضًا بالغداء، فلما أبطأ ذلك عليهم عَمَد بعضهم إلى زادِه فألقاه بين يدي القوم فأقبلوا يأكلون، وجلس صاحب الزاد بعيدًا للتوفير[١٠٣]عليهم، فصاح به أعرابي: يا سُؤْدَدَاه! وهل شرفٌ أفضلُ من إطعام الطعام والإيثار به في وقت الحاجة إليه؟ لقد آثرتَ في مَخْمَصةٍ ويوم مَسْغَبَة، وتفرَّدتَ بمكرُمة قعد[١٠٤]عنها مَن أَرَى من نُظَرائك، فلا زالت نِعم الله عليك غاديةً ورائحة!

وفي مِثله يقول حاتمٌ الطائيُّ:

أكـفُّ يـدي مـن أن تنـال أكفَّهـمْ إذا مـا مـددْناها وحاجاتُنـا معَـا
وإنــي لأَسْــتَحْيِي رفيقــيَ أن يــرى مكـانَ يـدي من جانب الزاد أقْرَعا

قال: المخمصة: المجاعة. والخَمْص: الجوع.

قال شاعرٌ يذم رجلًا:

يرى الخمص تعذيبًا وإن يلقَ شَبْعةً يَبِتْ قلبُه من قلة[١٠٥] الهم مُبْهَما

وقال المرقَّش الأكبر:

إن يُخْصِـــبوا يَغْنَـــوْا بخصْـــبهم أو يُجْـــدِبوا فجُـــدوبهمْ أَلَـــمُ

[وكتب بعضُهم[١٠٦]إلى أخٍ له:] إن رأيتَ أن تُرْوي ظمأ أخيك بقربك، وتبرِّد غليله بطلعتك، وتؤنس وحشته بأنسك، وتجلو غشاء ناظره بوجهك، وتزيِّن مجلسه بجمال حضورك، وتجعل غداءك عنده في منزلك الذي هو فيه ساكن، وتمَّمْت له السرور بك باقيَ يومك، مؤثِرًا له على شغلك؛ فعلتَ إن شاء الله.

وقال الشاعر:

وكـأنَّ هـدْر دمـائهم فـي دُورهـم　　لَغَـط القَبِيـل[١٠٧] علـى خِـوان زيـادِ

قال بعض الخطباء: [١٠٨] العجبُ من ذي جِدَةٍ مُنْعَمٍ عليه يطوي جارُه جوعًا وقرًّا، وأفرُخُه شُعْثٌ جُرْدٌ من الريش، وهو مِبْطانٌ مُحْتَشٍ من حُلْوه وحامضه، مُكْتَنٌّ في كِنِّه ودِفْئه، مزيَّنٌ له شهوةٌ عن أداء الذي عليه لجاره وقريبه وذي حُلَّةٍ بَطِرٍ[١٠٩] رَفِهٍ؛ كيف يأمَنُ سلبًا مفاجِئًا؟ أما لو وجَّه بعض فضله إلى ذي حاجةٍ إليه كان مستديمًا لِما أُولِي، مستزيدًا مما أُوتِي.

قال الشاعر: [١١٠]

وإذا تأمَّـل شـخصَ ضـيفٍ مقبـلٍ　　متسَـرْبِلٍ سـربال مَحْـلٍ أغبَـرِ

أَوْمَـا إلـى الكَوْمَـاءِ هـذا طـارقٌ　　نحرتْنـيَ الأعـداءُ إن لـم تُنْحـرِي

[وفي هذه الأبيات ما يُستَحسَن: [١١١]

كـم قـد ولـدتُم مـن كـريمٍ ماجـدٍ　　دامِـي الأظـافر أو غمَـامٍ مُمْطِـرِ

سـدِكَتْ[112] أناملُـه بقـائم مرهـفٍ وبنشـــر عائـــدةٍ وذِروة منبـــر

يَلْقَــى الســيوف بوجهــه وبنحــره ويقــيم هامتــه مقــام المِغْفَــر

ويقول للطِّرْف اصطبر لشَبَا القَنَا فعَقَرْت رُكْن المجد إن لـم تُعْقَـر]

وقال آخَر:

وقــال وقــدَّم[113]كشــكيَّة فكُـلْ شِـبَعًا إنهـا فـي النهايـةْ

تُطَفِّــي المُــرار وتنفــي الخُمــار ومـا بعـدها فـي النهايـات غايـةْ

ولا تتوقَّــعْ أخيــرًا بَجِيــك ففــي أول المُســتطاب الكفايــةْ

وقال آخر:

كأنمـــا فُـــوه إذا تمـــدَّدا لِلَّقْــم أخــلاقُ جِــرابٍ أســودا

كأنــه مُخْتــرِصٌ[114]قــد جــوَّدا جانِي جرادٍ في وِعاءٍ مِقْلَدا[115]

وصــاحبٍ صــاحبتُ غيــر أبْعَــدا تــراه بــين الحُـرْبتَين مُسْـنَدا[116]

الحُرْبة: الغِرارة.

وقال جابر بن قَبيصة: ما رأيتُ أحلم جليسًا، ولا أفضل[117]رفيقًا، ولا أشبه سريرةً بعلانية؛ من زياد.

وقال جابر أيضًا: شهدتُ قومًا ورأيتهم بعيني، فما رأيت أقرأ لكتاب الله، ولا أفقه في دين الله من عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وما رأيتُ

رجلًا أعطى من صُلب ماله في غير ولائه من طلحة بن عبيد الله. وما رأيت رجلًا أسود من معاوية. وما رأيت رجلًا أنْصَع[118] ظَرْفًا، ولا أحضر جوابًا، ولا أكثر صوابًا؛ من عمرو بن العاص. وما رأيت رجلًا المعرفة عنده أنفع منها عند غيره من المغيرة بن شعبة.

ويقال: ما كان الطعامُ مَرِيئًا ولقد مَرَأَ، وما كان الرجل مَرِيئًا وقد مَرُؤ.

وقال لنا القطَّان أبو منصور رئيس أهل قزوين: الرجل من أرض أَردبيل إذا دخل بلدًا يَسأل فيقول: كيف الخُبز والمُبرِّز؟[119] ولا يسأل عن غيرهما. فقيل له: لِمَ ذلك؟ فقال: يأخذ الخبز والمُبرِّز ويأكل ويَسْلَح[120] إلى الصباح.

قال الشاعر:

وما تُنْسِنا الأيام لا ننسَ جوعنا ... بدار بني بدر وطول التَّلَدُّدِ

ظِلِلنا كأنا بينهم أهل مَأتمٍ ... على ميِّتٍ مُسْتودَعٍ بطنَ مَلْحَدِ

يحدِّث بعضٌ بعضنا عن مُصابه ... ويأمر بعضٌ بعضنا بالتجلد

وقال آخر:

دعُوني فإني قد تغدَّيتُ آنفًا ... فإنْ مسَّ كفي خبزَكم فاقطعوا يدي

وقال آخر يصف دار قوم:

الجوع داخِلَها واللَّوْحُ[112] خارجَها ... وليس يقرُبها خبزٌ ولا ماء

قال الهلالي: أتى رجلٌ أبا هريرة فقال: إني كنت صائمًا فدخلت بيت أبي فوجدت طعامًا فنسيت فأكلت؟ قال: الله أطعمك. قال: ثم دخلت بيتًا آخر فوجدت أهله قد حلبوا لَقْحَتهم فسقوني فنسيت فشربت؟ فقال: يا بني، هوِّن عليك فإنك قلما اعتدت الصيام.

وقال الشاعر:

وجدتُ وعدك زُورًا في مُزَوَّرَةٍ[١٢٢] ذكرتَ مبتدِئًا إحكامَ طاهيها[١٢٣]

فلا شفى الله من يرجو الشفاء بها ولا علتْ كفُّ مُلْق كفَّه فيها!

فاحْبِس رسولك عني أن يجيء بها فقد حبستُ رسولي عن تقاضيها

قال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه: قدمنا على رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطولنا علينا طَوْلًا، وأنت الجَفْنة الغرَّاء. فقال النبي ﷺ: «قولوا بقولكم ولا يستفزنَّكم الشيطان، فإنما أنا عبد الله ورسوله.»

وقال آخر:

وأحمرُ مُبْيَضُّ الزجاج كأنه رداء عروسٍ مُشْرَبٌ بخَلوقِ

له في الحَشَا بَرد الوِصال وطعمُه[١٢٤] وإن كان يَلقاه بلون حريق

كأن بياض اللوز[١٢٥]في جَنَباته كواكبُ دُرٍّ في سماء عقيق

قال يونس: أشد طعامٍ ضرًّا ما كان من عامٍ إلى عام، وهو اللِّبَأ الذي لا يوجد إلا في الولادة كلَّ عامٍ وإن كان مُزْبِدًا.

حكى يونس: التَّنافِيط[١٢٦] أن يُنزع شعرُ الجلد[١٢٧] ثم يُلقى في النار ثم يُؤكل، وذلك في الجدب.

وقال الشاعر:

جاورتُ شيبانَ فاحْلَوْلَى جِوارُهمُ إن الكرام خِيارُ الناس للجارِ

وكتب ابن دينار إلى صديق له: وكتبتَ تفضُّلًا منك تعتذر من تأخرك عن قضاء حق زيارتي بقصور يديك عن برٍّ يُشْبِهني ويُشبهك، فأما ما يشبهني في هذا الوقت فرغيفٌ وسكُرَّجَةُ كامَخٍ حِرِّيف يَثْقُب اللسان بحرافته.

وكان ابن أبي البغل إذا أُنشد:

أروني من يقوم لكم مقامي

يقول: لو شهدتُ قائله لقلت: كلب الحارس يقوم مقامك. هذه قصةٌ في حضور ما يشبهني، فأما ما يشبهك فمتعذِّر كما قيل:

ومطلب مثلي إن أردتَ عسير[١٢٨]

وقال رجل لعُبيد الله بن زياد بن ظَبْيان: ما أعددتُ في كنانتي سهمًا غيرك. فقال: لا تُعِدَّني في كنانتك، فوالله لو قمتُ فيها لطُلْتُها ولو جلستُ فيها لخرقتُها، ولئن انتظرتَ بي ما يشبهك طال الانتظار، والعامَّة

تتمثل١٢٩ – على خساسةِ لفظها: «إذا أردتَ ألا تزوِّج ابنتَك فغالِ بمهرها!» وأملي فيك على الأحوال بعيد، وظني فيك جميل، ولست أخشى فيما لي عندك الفوتَ فأُعْجِلَه.

وهل يُلْقَم الكلبُ إلا الحَجَر؟

العرب تقول: لئيمٌ جبان. [١٣٠]

وقال أعرابي: لا يكنْ بطن أحدكم عليه مَغْرَمًا، ليَكْسِرْه بالتُّمَيْرَة والكُسَيْرة والبُقَيْلَة والعُلَيْكة.

قال ابن الأعرابي: الفَرَزْدَقُ: الرغيفُ الواسع.

قيل لابن القِرِّيَّة: [١٣١] تكلَّم. فقال: «لا أحب الخبز إلا يابسًا!» أراد لا أحب أن أتكلم إلا بعد الارتِئاء.

وروى أبو عبيدة في تفسير بيت الأعشى في ديوانه:

[إذا ما همُ جلسوا بالعَشِيِّ] [١٣٢] فأحلامُ عادٍ وأيدي هُضُمْ

قال: شبَّهَهم بأنسال عاد، وهم ثمانية ذوو أحلامٍ وسؤدد: مالك – وهو سيد الثمانية – وعمَّار وطُفَيل، [١٣٣] وشَمِر، وقرزعة، [١٣٤] وحُمَمة، ونَئِض، [١٣٥] ودُفَيْف، وهم الذين بعث لقمان بن عادٍ جاريةً بِعُسٍّ من لبن فقال لها: ايتِي الحيَّ فادفعيه إلى سيدهم لا تسألي عنه. فأتت الجاريةُ الحي، فرأتهم مختلفين بين عاملٍ ولاعب، وثمانيةً على رءوسهم الطير

وقارًا، ورأتْ جاريةً من الحي فأخبرتها بما قال لقمان، قالت: هؤلاء سادة الحي، وسأصف لك كل واحدٍ منهم فادفعي العُسَّ إلى من شئتِ؛ أما هذا فعمَّار: أخَّاذٌ ودَّار،[١٣٦] لا تَخمُد له نار، للمُعْشِبات عقَّار (المُعْشِبة: التي تَسْمَن على شحْمٍ قديم). وأما هذا فحُمَمَة: غداؤه كلَّ يوم ناقةٌ سَنِمة،[١٣٧] وبقرةٌ شَحِمة، وشاةٌ[١٣٨] كَدِمَة. وأما هذا فقَرْزَعَة: [١٣٤] إذا لقي جائعًا أشبعه، وإذا لقي قِرنًا جَعْجَعه،[١٣٩] وقد خاب جيشٌ لا يغزو معه. وأما هذا فطُفَيل: غضبه حين يغضب وَيْل، ورضاه حين يرضى سَيْل، ولم تحمل مثلَه على ظهرها إبلٌ ولا خيل. وأما هذا فشَمِر: ليس في أهله بالشَّحيح القَتِر، ولا المُسْرِف البَطِر، ولا يَخْدَع الحيَّ إذا اؤتُمِر. [١٤٠] وأما هذا فدُفَيْف: قاري الضيف، ومُغْمِد السيف، ومُعِيل[١٤١] الشتاء والصيف. وأما هذا فنَئِضٌ: أَسْنَتَ الحيُّ فمرض، فعَدَل مرضُه عندهم إسناتَهُم (أي قحطَهم)، فقاموا[١٤٢] عليه فأوسعَهم دقيقًا ولحمًا غَرِيضًا، ومِسْكًا رَميضًا،[١٤٣] وكساهم ثيابًا بيضًا. وأما هذا فمالك: حاميتنا[١٤٤] إذا غزَوْنا، ومُطْعِمُ وِلْداننا إذا شَتَوْنا،[١٤٥] ودافع كلِّ كريهةٍ إذا عَدَتْ علينا. فدفعتِ العُسَّ إلى مالكٍ، فكان سيدَهم.

بشَّرت امرأةٌ زوجها بأن ابنها منه قد اتَّغَر،[١٤٦] فقال: أَتُبشِّرينني بعدوِّ الخبز؟ اذهبي إلى أهلك!

قال الشاعر:

مـــن يشـــتري منـــي أبـــا زَيْـــنِ　　　بكـــرَ بـــنَ نطَّـــاحٍ بفَلْسَـــيْنِ؟

كأنمـــا الآكِـــل مـــن خبـــزه يقلـــع منـــه شـــحمة العـــينِ

وأنشد غُلَيِّم من بني دُبَيْر: [147]

يــا بــنَ الكِــرام حَسَــبًا ونــائلَا حقًّــا أقــول لا أقــول بــاطلا

إليــك أشْــكو الــدَّهْرَ والــزَّلازِلا وكــلَّ عــامٍ نقَّــح الحَمَــائلا [148]

التَّنْقِيح: القَشْر، أي قشَروا حمائل سيوفهم فباعوها لشدة زمانهم.

وأنشد:

سـلا أمَّ عَبَّـادٍ إذا الـريح أَعْصَـفَتْ وجلَّـل أطـرافَ الرِّعـان قَتامُهـا[149]

وجفَّتْ بقايا الطِّرْق إلا نَضِيَّةً[150] يَصُدُّ الأشافي[151] والمَواسِي سَنامُها

وضـمَّ إلـيَّ الليـلُ منـزلَ رُفْقَـةٍ تَرَامَتْ بهم طَخْياءُ[152]داجٍ ظلامُها

تكـاد الصَّـبا تَهْتـزُّهُمْ مـن ثيـابهمْ شـديدًا بأَرْيـاط الرجـال اعتِصـامُها

لقـد عَلِمَـتْ أنِّـي مُفِيـدٌ ومُتْلِـفٌ ومُطْعِـمُ أيـامٍ يُحَـبُّ طَعامُهـا

وقال آخر:

إن بنـــي غاضِـــرَةَ الكرامـــا إن يُقِـمِ الضـيفُ بهـم أعوامـا

يكـنْ قِـراه اللحـمَ والسَّـناما أو يصـبحِ الـدهرُ لهـم غلامـا

يكنْ ظَرِيفًا وجهُه كُراما

وقال سَماعةُ بن أَشْوَل:

رأتْ إبــلًا لابنَــيْ عُبَيْــدٍ تمنَّعَــتْ   من الحقِّ لم تُورَكْ بحقٍّ إيالُها[١٥٣]

فقالــت ألا تغــدو لِقاحُــك هكــذا؟   فقلــتُ أبــتْ ضِــيفانُها وعِيالُهــا

فمـا حَلبَـتْ إلا الثُّلاثـةَ[١٥٤]والثُّنـى   ولا قُيِّلَــت إلا قريبًــا مقالُهــا

وأنشد أبو الجرَّاح:

أرى الخُـلان قـد صَـرموا وصـالي   وأضــحوا لا ســلام ولا كــلامْ

ومـا أذنبـتُ مـن ذنـبٍ إلـيهم   سـوى خَـفٍّ[١٥٥]المنـائح والسَّـوامْ

وقال آخر:

خِرقٌ إذا وَقِع[١٥٦]المطيُّ من الوَجَا   لـم يطْـوِ دون دقيقِـه ذو المِـزْوَدِ

حتـى تئـوب بـه قلـيلًا ...[١٥٧]   حَمِـدَ الرفيـقُ نـداك أو لـم يَحمَـدِ

وقال آخر:

تزودتُ إذ أقبلتُ نحوك[١٥٨]غاديًا   إليـك ونحـوَ[١٥٨]النـاسِ لا أتـزودُ

أرانـي إذا مـا جئـتُ أطلـبُ نـائلًا   نظـرتَ إلـى وجهـي كأنـك أرمـدُ

ويقال: أزواد[١٥٩] الركْب من قريشٍ أبو أمية بن المغيرة، والأسود[١٦٠]بن المطَّلب بن أسد بن عبد العزَّى، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية عمُّ عقبة؛ كانوا إذا سافروا خرج معهم الناس فلم يتخذوا زادًا ولم يوقدوا نارًا، كانوا يَكفونهم.

وقال الشاعر:

وبالبــدو جــودٌ[١٦١] لا يــزال كأنــه　　رُكــامٌ بــأطراف الإكــامِ يَمُــورُ

وقال آخر:

والنــاسُ إن شَــبِعتْ بطــونُهمُ　　فغيــرُهمْ[١٦٢] مــن ذاك لا يَشْــبعُ

وقال آخر:

دُورٌ تحــاكي الجِنــانَ حُســنًا　　لكــنَّ سُــكانها خِســاسُ

متــى أرَى الجنــد ســاكنيها　　وفــي دهاليزهــا يُــدَاسُ

وقال آخر:

لولا مخافة ضعفي عن ذوي رَحِمِي　　وحالُ معتصمٍ بي من ذوي عَدَمِ

وحاجةُ الأخ[١٦٣]تبدو لي فأُنْجِحها　　لم أَثْنِ في عملٍ كفي على قلمي

وقال آخر:

وأُوثِر ضيفي حين لا يوجد القِرى　　بقُــوتيَ أَحْبُــوه وأرقــد طاويــا

وما استَكْثرتْ نفسي لباذل وجهه　　نَــوالًا وإن كــان النــوال حياتيــا

وقال المبرد: البَطِنُ: الذي لا يَهُمُّه إلا بطنه. والرغيب: الشديد الأكل. والمنهوم: الذي تمتلئ بطنُه ولا تنتهي نفسُه.

وأنشد ابن الأعرابي:

وإن قِــرَى أهــل النِّبــاج أرانــبٌ وإن جـاء بعـد الرَّيْـث فهـو قليـلُ
إذا صد مَثْغُورٌ[١٦٤] وأعرض مُعْرضٌ فيــومٌ علــى أهــل النبــاج طويــلُ

وقال آخر:

يمينُك[١٦٥]فيها الخصب والناس جُوَّعٌ وقـد شَـمِلَتْهم حَرْجَـفٌ[١٦٦] ودَبُـورُ

وقال آخر:

ألقـتْ قوائمَهـا خَسًـا[١٦٧] وترنَّمـتْ طربًــا كمــا يتــرنَّم السَّــكْرانُ

يعني قِدْرًا. وقوائمها يعني الأثافي. وخسا: فرد.

وأنشد:

بـئس غـذاءُ العَـزَب المَرْمُـوعِ[١٦٨] حَوْأَبَــةٌ تُــنْقِضُ بالضــلوعِ

الرُّماع: [١٦٩] داء. وحوأبة: دلوٌ كبيرة. والحَوْب والحُوب: الإثم. والحِيبَة: الحال. والحَوْباء: النفْس. [١٧٠]

العرب تقول: ماءٌ لا تبن[١٧١] معه ولا غيره. خبْزٌ قَفار: لا أُدْم معه. وسويقٌ جافٌّ هو الذي لم يُلَتَّ بسمنٍ ولا زيتٍ. وحنظلٌ مُبَسَّل وهو أن يؤكل وحده.

قال الراجز:

بـئس الطعـامُ الحنظـلُ المُبسَّـلُ يـاجَعُ منـه كبـدي وأَكْسَـلُ[١٧٢]

ويَبْجَع أيضًا.

وقال أبو الجرَّاح: المبسَّل يُحرق الكبد. والمُبَكَّل: [١٧٣] أن يؤكل بتمرٍ[١٧٤] أو غيره، يقال: بكِّلوه[١٧٣] لنا، أي اخلطوه. قال: وعندنا طعامٌ يقال له الخَوْلَع، وهو أن يؤخذ الحنظل فيُنقع مراتٍ حتى تخرج مرارته، ثم يُخْلَط معه تمرٌ ودقيق فيكون طعامًا طيبًا.

وقال: الخَلِيطة والنَّخِيسة والقَطِيبة: أن يُحلب لبن الضأن على لبن المِعْزَى، والمعزى على لبن الضأن، أو حَلَب النُّوق على لبن الغنم.

قال: اسقني[١٧٥] وابْرِدْ غليلي

مَلِئَ الرجلُ: سَمِن بعد هزال.

قيل لطفَيْل العرائس: كم اثنين في اثنين؟ قال: أربعة أرغفة.

وقيل له: حُكِي أن العرب تقول: نحن العربَ أقرى الناس للضيف. فقال: إن هذا النصب على المدح.

وقال العُمانيُّ:

من كل جِلْفٍ[١٧٦] لم يكن مُصَرَّما جَعْدٍ يُـرَى منه التصنُّع رَيْثَما[١٧٧]

لــم يَتَجَشَّــأْ مــن طعــامٍ بَشَــما ... ...(١٧٨)

ولـم يَبِـت مـن فَتْـرةٍ مُوَصَّـمًا(١٧٩) يَغْمِـز صُـدْغَيه ويشـكو الأعظُمـا

إذا أجـــاع بطنَـــه تَحزَّمـــا(١٨٠) لم يَشرب الماءَ ولـم يخشَ الظَّما

يكفيه مِن قارِصَةٍ(١٨١) ما يمَّما

وخَلَّـــةٍ(١٨٢) منـــه إذا مـــا أَعْيَمـــا أصـــاب منـــه مَشْـــربًا ومَطعمـــا

لا يَعْقِـر الشـارفَ إلا مُحْرِمـا(١٨٣) ولا يَعَـاف(١٨٤)بَصَـلًا وسَـلْجَما

يومًـا ولـــم يَفْغَـــرْ لبطِّـــيخٍ فَمَـــا فهـو صـحيحٌ لا يخـاف سَـقَما

أسْود كالمحراث(١٥٨)يُدْعى شَجْعَما(١٦٨) صَـمَحْمَحٌ(١٨٧)مـن طُـول مـا تأثَّمـا

لـم يَبـلُ(١٨٨)يومًـا سَوْرةً مِـن العَمَـى ولـم يَحُـجَّ المسـجد المُكرَّمـا

ولـــم يَـــزُرْ حَطِيمـــه وزمزمـــا ولا تـــراه يطلـــب التفهُّمـــا

لـو لـم يُـرَبَّ(١٨٩) مُسْـلمًا مـا أسـلما مـا عبَـد اثنـان جميعًـا صَـنَما

عـاتٍ يـرى ضـرب الرجـال مغْنمـا إذا رأى مُصـــــدِّقًا تَجَهَّمـــــا

وهـزَّ فـي الكـف وأبـدى المِعصـما هِـــرَاوَتَيْن(١٩٠) نَبْعَـــةً وسَـــلَما

يَتـــرُك(١٩١) مـــا رام رُفاتًـــا رِممـــا وإن رأى إمَّـــرَةً(١٩٢) تزعَّمـــا

لـــم يُعْطـــه شـــيئًا وإن ترغَّمـــا وإن قَـــرَا عَهْـــدًا لـــه مُنَمْنَمـــا

هـــان عليـــه شـــقُّ مـــا قـــد رَقَّمـــا وأن يَـــدُقَّ طِينَـــه المُختَّمـــا

صَمْصـــامه مـــاضٍ إذا مـــا صـــمَّما إذا اعتَرَتْـه عِـزَّةٌ(١٩٣) ثـم انتَمَـى

فــي ثــروة الحـــي إذا مـــا يمَّمـــا　　ظل يرى حُكمًا عليه مُبْرَما[١٩٤]

أن يَظْلم الناسَ وألا يُظْلما

وقال آخر:

مـا كـان يُنْكَـر فـي نَـدِيِّ مُجَاشِـعٍ　　أكلُ الخَزير ولا ارتضاعُ الفَيْشَلِ[١٩٥]

وقال آخر:

بـلادٌ كـأن الجـوع يطلـب أهلَهـا　　بذَحْلٍ[١٦٩]إذا ما الضَّيْفُ صَرَّتْ جَنَادبُهْ[١٦٧]

وقال آخر:

كَرِيُّـــه لا يُطْعِـــمُ الكَرِيَّـــا[١٩٨]　　بالليـــــل إلا جِرْجـــــرًا مَقْليَّـــا

مُحْترقًا نصفًا ونصفًا نِيَّا

وقال الأصمعي: قال الهيثم بن جَراد – وذمَّ قومًا: والله ما أنتم آلُ فلاةٍ فتعصمَكم، ولا أنتم آل ريفٍ فتأكلون. فقيل: لو زِدتَ؟ فقال: ما بعد هذا شيء.

قال: وما أشبه هذا الجواب بقول عقيل بن عُلَّفة[١٩٩] حين قيل له: لم لا تطيل الهجاء؟ قال: يَكفيك من القِلادة ما أحاط بالعنق.

وقيل لابن[٢٠٠] عمر: لو دعوتَ الله بدعوات؟ فقال: اللهم عافنا وارحمنا وارزقنا. فقيل له: لو زدتنا؟ فقال: نعوذ بالله من الإسهاب.

قال شاعر:

إذا أَغلق البابَ الكريمُ من القِرى فليس على باب الفرزدق حاجبُ

فتًى يشتري حُسن الثناء بماله إذا اغبرَّ من برد الشتاء الكواكب

قال: وكلُّ لحمٍ وخبزٍ أُنضج دَفينًا فهو مَلِيل، وما كان في تَنُّور فهو شِواء، وما كان في قِدْرٍ فهو حميل. (٢٠١)

قال الأحنف لعمر بن الخطاب: إن إخواننا من أهل الكوفة والشام نزلوا في مُقْلَة(٢٠٢) الجمل وحِوَلاء الناقة؛ من أنهارٍ متفجرة، وثمارٍ متدلِّية. ونزلنا بسَبِخةٍ نَشَّاشة(٢٠٣) يأتينا ماؤنا في مثْل حلقوم(٢٠٤) النعامة أو مريء الحَمَل، فإما أن تشُقَّ لنا نهرًا، وإما أن ترفعنا إليك.

قال جابر: كان النبي ﷺ يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراءَ باتخاذ الدَّجاج.

والعرب تقول: أكْرِموا الإبل إلا في بيتٍ يُبنَى، أو دمٍ يُفدَى، أو عَزَبٍ يتزوج، أو حَمْل حَمالة.

وقال معاوية لأعرابي: ما تجارتك؟ قال: أبيع الإبل. قال: أما علمتَ أن أفواهها حَرَب(٢٠٥) وجلودها جَرَب، وبعرها حطب، وتأكل الذهب؟

وقال خالد بن صفوان: الإبلُ للبُعد، والبغال للثقل، والبَراذين للجَمال والدَّعَة، والحمير للحوائج، والخيل للكَرِّ والفَرِّ.

وقال آخر:

يَقْذفنَ في الأعناق والغَلاصِمِ[٢٠٦] قذف الجلاميد بكفِّ الراجمِ

يريد بالأعناق الحُلُوق.

وقال آخر:

نَغَار إذا ما الرَّوْع أبْدى عن البُرَى ونَقْرِي عَبيط اللحم والماءُ جامِسُ[٢٠٧]

وقال آخر:

تلك المكارمُ لا ناقٌ[٢٠٨] مُصرَّمةٌ ترعَى الفلاةَ ولا قَعْبٌ من اللَّبنِ

وقال أبو الصَّلت:

تلك المكارم لا قَعْبَانِ[٢٠٩] مِن لبنٍ شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أَبْوالا

ووصف بعض البلغاء التجارَ فقال: لا يوجد الأدب إلا عند الخاصة والسلطان ومُدبِّريه، وأما أصحاب الأسواق فإنا لا نَعْدَم من أحدهم خُلُقًا دقيقًا، ودينًا رقيقًا، وحرصًا مسرفًا، وأدبًا مختلفًا، ودناءة معلومة، ومروءة معدومة، وإلغاءَ اللَّفيف،[٢١٠] ومُجاذَبةً على الطَّفيف، يبلغ أحدُهم غاية المدح والذم في عِلْقٍ[٢١١] واحد في يوم واحد مع رجل واحد إذا اشتراه منه أو باعه إياه، إن بايعك مرابحةً[٢١٢] وخبَّر بالأثمان قوَّى الأَيْمان على البهتان، وإن قلَّدْتَه الوزنَ أعنتَ لسان الميزان، ليأخذ برُجْحانٍ أو يعطي بنقصان. وإن كان لك قِبله حقٌّ لَواه مُحتجًّا في ذلك بسُنَّة السُّوقيين،

يَرْضى لك ما لا يَرْضى لنفسه، ويأخذ منك بنَقْدٍ ويعطيك بغيره، ولا يرى أن عليه من الحق في المبايعة مثلَ ما له. إن استَنْصحتَه غشَّك، وإن سألتَه كَذَبَك، وإن صَدَقْتَه حَرَبَك. مُتمرِّدُهم صاعقةٌ على المُعامِلين، وصاحب سَمْتِهم نِقمةٌ على المسْتَرْسِلين(٢١٣) قد تعاطَوُا المنكر حتى عُرِف، وتناكروا المعروف حتى نُسِي، يتمسَّكون من المِلَّة بما أصلح البضائع، وينهَوْن عنها كلما عادتْ بالوضائع(٢١٤) يُسَرُّ أحدهم بحيلةٍ يُرْزَقُها(٢١٥) لسلعةٍ ينفِّقها، وغِيلةٍ لمسلمٍ يحميه الإسلام، فإذا أحكم حيلته وغيلته غدا قادرًا على حَرْدِه، فغَرَّ وَضَرَّ، وآب إلى منزله [بحطام قد جمعه مغتبطًا بما أباح من دينه]، وانتهك من حرمة أخيه، يَعُدُّ الذي كان منه حِذْقًا بالتكسب، ورِفْقًا بالمطَّلَب، وعِلْمًا بالتجارة، وتقدُّمًا في الصناعة.

فلما بلغت قراءتي هذا الموضع قال الوزير: إن كان هذا الواصف عَنَى العامة بهذا القول فقد دخل في وصفه الخاصة أيضًا، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاقَ إلا شائعة في أصناف الناس من الجند والكتَّاب والتُّنَّاء(٢١٦) والصالحين وأهل العلم. لقد حال الزمانُ إلى أمرٍ لا يأتي عليه النعت، ولا تسْتوعبه الأخبار، وما عَجَبي إلا من الزيادة على مر الساعات، ولو وقف لعله كان يُرْجَى بعض ما قد وقع اليأسُ منه، واعترض القنوط دونَه.

فقال ابن زُرْعة وكان حاضرًا: هذا لأن الزمان من قبل كان ذا لَبُوس من الدين رائع، وذا يدٍ من السياسة بسيطة، فأَخْلَق اللَّبوسُ [وبَلِيَ، بل تمزَّق] وفَنِي، وضعفت اليدُ بل شلَّتْ وقُطعت، ولا سبيل إلى سياسة

دينية لأسبابٍ لا تتفق إلا بعلل فلكية، وأمور سماوية. فحينئذٍ يكون انقياد الأمور الجانحة(٢١٧) لها في مقابلة حِران الأمور الجامحة(٢١٧) عنها، وذلك مُنتظَر في وقته، وتَمنِّي ذلك قبل إبَّانه وسواس النفْس وخَوَر الطِّباع. والناس أهدافٌ لأغراض الزمان ومُقلَّبون بحوادث الدهور(٢١٨) ولا فَكاك لهم من المكاره، ولا اعتلاقَ لهم بالمحابِّ [إلا] بالدواعي والصوارف التي لا سبيل لهم إلى تحويل هذه إلى هذه، ولا إلى تبديل هذه بهذه، واختيارُهم للتوجُّه إلى محبوبهم أو الإعْراض عن مكروههم ضعيفٌ طفيف، ولولا ذلك لكانت الحَسَرات تزول في وقت ما يُراد،(٢١٩) والغِبْطة تُملَك(٢٢٠) بإدراك ما يُتمنَّى. وهذا شأوٌ محكومٌ به بقوة النفس، غيرُ مُستيقَظٍ إليه(٢٢١) بقوة الحس.

فقال الوزير: أحسنتَ يا أبا علي في هذا الوصف، «وإن نَفْثك(٢٢٢) لَيَدلُّ على أكثر من ذلك.» ولو كان البال ظافرًا بنِعمة، والصدرُ فارغًا من كُربة، لكنَّا نبلغ من هذا الحديث مبلغًا نَشْفِي به غَلِيلنا [قائلين] ونُشْفَى به مُسْتمِعين، ولكني قاعدٌ معكم وكأني غائب، بل أنا غائبٌ من غير كاف التشبيه، والله ما أملك تصرُّفي ولا فكري في أمري؛ أرى واحدًا في فَتْلِ حَبْل،(٢٢٣) وآخرَ في حفر بئر، وآخر في نصب فخٍّ، وآخرَ في دسِّ حِيلة، وآخرَ في تقْبيح حَسَن، وآخر في شَحْذ حديد، وآخر في تمزيق عِرْض، وآخر في اختلاق كَذِب، وآخر في صَدْع مُلْتَئم، وآخر في حَلِّ عَقْد، وآخر في نَفْث سِحر، وناري مع صاحبي رماد، وريحُه عليَّ عاصفة، ونَسيمي بيني وبينه سَموم، ونصيبي منه هُموم [وغُموم]. وإني أحدثكم بشيء تعلمون [به] صدقي في شَكْواي، وتقفون منه على

تَفَسُّخي[٢٢٤] تحت بلواي، ولولا أني أطفئ بالحديث لهبًا قد تَضَرَّم صدري به نارًا، واحتشى فؤادي منه أُوَارًا؛ لمَا تحدَّثتُ به، ولو استطعتُ طيَّه لمَا نبسْتُ بحرفٍ منه، ولكنَّ كتماني للحديث أنْقَبُ لحجاب القلب من العَتَلة لسُور القَصْر:

دخلتُ منذ أيام فوصلت[٢٢٥] إلى المجلس، فقال لي: قد أعدتُ الخِلْعة فالْبَسها على الطائر الأسعد. فقلت: أَفْعَل. وفي تذكرتي[٢٢٦] أشياء لا بدَّ من ذكرها وعرضها.

فقال: هات. فقلت: يُتقدَّم[٢٢٧] بكذا وكذا، ويُفْعَل كذا وكذا. فقال: عندي جميع ذلك، أَمْضِ هذا كلَّه، واصنع فيه ما ترى، وما فوق يدك يد، ولا عليك لأحدٍ اعتراض. فانقلبتُ عن المجلس إلى زاويةٍ في الحجرة، وفيها تحدَّرت دموعي، وعلا شهيقي، وتوالى نشيجي، حتى كدتُ أَفْتضِح، فدنا مني بعض خدمي من ثقاتي فقال: ما هذا، الناس وقوفٌ ينتظرون بروزَك بالخِلْعة المباركة والتشريف الميمون وأنت في نَوْحٍ وندم؟! فقلت: تنحَّ عني ساعةً حتى أطفئ نار صدري، وإنما كان ذلك العارض لأني كنت عرضت على صاحبي تذكرةً مشتملةً على أشياء مختلفة فأمضاها كلَّها ولم يناظرني في شيء منها، ولا زادني شيئًا فيها، ولا ناظرني عليها، ولعلِّي قد بلوتُه بها، وأخفيت مَغْزاي في ضمنها، فخُيِّل إليَّ بهذه الحال أن غيري يقف موقفي فيقول فيَّ قولًا مُزخرَفًا، وينسب إليَّ أمرًا مؤلَّفًا، فيُمضي ذلك أيضًا له كما أمضاه لي، فوجدتُني[٢٢٨] بهذا الفكر الذي قد فَتَق لي[٢٢٩] هذا النوع من الأمر كراقمٍ على صفحة ماء،

أو كقابضٍ في جوٍّ على قطعةٍ من هواء، أو كمن ينفخ في غير فَحَم، أو يلعب في قيْد(٢٣٠) ولقد صدق الأول حيث قال:

وإنَّ امـــرأً دنيـــاه أكبـــر همِّـــه لمُستمســـكٌ منهـــا بحبـــلِ غُـــرُورِ

غير أني أذكر لكم ما عنَّ لي(٢٣١) من هذا الأمر:

اعلموا أني ظننتُ أن ما نظَّمَه(٢٣٢) الماضي – رحمه الله – وأصلحه، وبناه وقوَّمه، ونسَجَه ونَوَّقَه(٢٣٣) لا يستحيل في ثلاثين سنةً ولا خمسين سنة، وأن الحال تدوم على ذلك المنهاج، وتستمر على ذلك السِّياج، ونكون قد أخذنا بطريق من السعادة، وبلَغْنا لأنفسنا بعضَ ما كنا نسلِّط عليه التمني من الإرادة، فنجمعُ بين علو المرتبة، وشرف الرياسة، ونيل اللذة، وإدراك السرور، واصطناع العُرْف، وكسب الثناء، ونشر الذِّكر، وبُعْد الصِّيت؛ فعاد ذلك كلُّه بالضد، وحال إلى الخلاف، ووقف على الفكر المُضْني، والخوف المُقْلق، واليأس الحيِّ، والرجاء الميِّت، وما أحسن ما قال القائل:

أَظْمَتْنِـــيَ(٢٣٤) الـــدنيا فلمَّـــا جئتُهـــا مُسْتســـقيًا مَطَـــرتْ علـــيَّ مصـــائبا

فقال له ابن زُرْعة: إن الأمور كلَّها بيد الله، ولا يُسْتنجَز الخيرُ إلا منه، ولا يُسْتدفع الشرُّ إلا به؛ فسلْه جميل الصُّنع، [وحُسن النية]، وانْوِ الخير، وبُثَّ الإحسان، وكِلْ أعداءَك إلى ربك الذي إذا عرَف صدقَك وتوكُّلَك عليه فلَّل حَدَّهم، وعفَّر خدهم، وسيَّح الفرات إلى جمرتهم حتى يطفئها، وسلَّط الأَرَضةَ على أبدانهم حتى تَقْرضها، وشغلهم بأنفسهم،

وخالف بين كلمتهم، وصدَّع شمل جميعهم، وردهم إليك صاغرين ضارعين، وعَرَضهم عليك خاضعين، وما ذلك على الله بعزيز، وإن الله مع المحسنين على المسيئين.

قال: والله لقد وجدتُ رَوْحًا[٢٣٥] كثيرًا بما قلتُ لكم وما سمعتُ منكم، وأرجو أن الله يُعين المظلوم ويهين الظالم. قد تمطَّى الليل، وتغوَّرَتِ النجوم، وحنَّ البدن إلى التَّرَفُّه، فإذا شئتم[٢٣٦] فانصرفنا متعجِّبين.

هوامش

(١) ورد بعض هذا الرجز في المحاسن والأضداد ومجموعة المعاني ولسان العرب، وبعض ما ورد في هذه الكتب لم يرد هنا، كما أن بعض ما ورد هنا لم يرد هناك. وهذا ما ورد في اللسان، وهو ما لم يُذكر هنا:

أم حـــوار ضــــنؤها غيـــر أمـــر صهصــلق الصــوت بعينيهــا الصــبر

سائلة أصداغها لا تختمر ... إلخ.

(٢) في كلتا النسختين: «وتمطر»، وهو تحريف، والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٣) في اللسان: «على الذئب».

(٤) سح: أي كثير متتابع، كما في كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤١ لغة. وفي مجموعة المعاني وكتاب المحاسن والأضداد: «سبيح»، وهو يستقيم على الإضافة لا على الوصف. والذي في الأصل: «سيح»، وهو تحريف.

(٥) في الأصل: «تفر» بالتاء ... «ولا تقر»، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين.

(٦) في «أ» الوارد فيها هذا الكلام وحدها: «الأسامي»، ولم نجد هذه النسبة لأبي دلامة فيما راجعناه من الكتب، والذي وجدناه أن أبا دلامة كان مولًى لبني أسد، فلعل الصواب ما أثبتنا.

(٧) الهبيد: حب الحنظل. والحراد: ذكور الضباب، الواحد حردون بالدال المهملة أو الذال المعجمة. وتسع: أي تتسع لأكله مهما كثر.

(٨) كذا ورد هذا الشعر في كتاب الحيوان للجاحظ. وتدري: أي تمشط، والمدرى والمدراة: المشط. والذي في «أ» الوارد فيها هذا الشعر وحدها: «لجاذبته» مكان قوله «لجارتيْه»، وهو تحريف. ونثل: أي راث.

(٩) الأنوق: لفظ يطلَق على كل ما يأكل العذرة من الرخم وغيرها، قاله الجاحظ في كتاب الحيوان وذكر هذا الشعر شاهدًا على ذلك. والقرنبى: دويبة كالخنفساء وأعظم منها بيسير طويلة القوائم. وقد فسر اللغويون الأنوق أيضًا بأنه الطير الذي يبيض في الهواء، ولا يستقيم معناه هنا.

(١٠) هذا الشطر ساقط من الأصل، وقد أثبتناه عن الحيوان للجاحظ لتمام المعنى به. ويشير بقوله: «بات يعشي ... إلخ» إلى أنه كثير البراز، فيقول إنه إذا أكل تعشى مما يخرج منه ألفا جعل، لأن الجعل تقتات بالبراز. قاله الجاحظ.

(١١) هذا الشطر ساقط من الأصل، ولا يتم المعنى بدونه. ويشير إلى سعة فمها فيشبهه بالجدول الذي يُشرب منه.

(١٢) الغلصمة: متصل الحلقوم بالحلق، وقيل: هي اللحم الذي بين الرأس والعنق.

(١٣) الضمير في «تسمع» للمخاطب. والمسحل: المبرد.

(١٤) كذا في أرجوزة أبي النجم المنشورة في مجلة المجمع العلمي العربي. والذي في الأصل: «مديديها»، وهو تحريف. ويريد بالجحفل: شفتها.

(١٥) في الأصل: «يكفيه»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن أرجوزة أبي النجم المنشورة في مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٨م. ويلقيه: أي يلقي الماء، وفاعله قوله بعد: «قذف».

(١٦) الأهدل: المسترخي.

(١٧) دهدهتها: أي دحرجتها.

(١٨) المطري: الطاهي الذي يخلط الطعام بالأفاويه. وطرَّى الطعام: إذا خلطه بالتوابل.

(١٩) ضهب: أي اشو شيئًا غير كامل النضج، يريد الاستعجال. والتضهيب أيضًا: شيُّ اللحم على الحجارة المحماة.

(٢٠) أجمناه: أي مللناه.

(٢١) الدردق: الصبيان الصغار. والذي في الأصل: «الزردق»، وهو تحريف.

(٢٢) في «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: «يحنح»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن كتب اللغة. والفحيح: صوت الضب.

(٢٣) المقراة: الإناء الذي يُقرَى فيه. والقيل: اللبن الذي يُشرب نصف النهار وقت القائلة. وقد ورد هذا الشطر في الأصل هكذا: «هل لك في المعرى بقيل بي؟» ولا يخفى ما فيه من تصحيف.

(٢٤) الشكوة: وعاء من أدم يُتَّخذ للبن والماء. والنسي: اللبن الحليب يُصب عليه الماء.

(٢٥) «تخرج لحم الرجل الضوي»: أي تُسمن المهزول الضامر.

(٢٦) اللقوح: الناقة الحلوب.

(٢٧) الحازر: اللبن الحامض.

(٢٨) الوضع: جمع أوضع، وهو قليل لحم الوركين والإليتين، والأوضع والأرسح واحد.

(٢٩) تقض: تكسر.

(٣٠) كذا في ديوان الحماسة. والذي في «أ» الوارد فيها هذا الشعر وحدها: «لقد غلوا»، وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ولا الوزن.

(٣١) في «أ»: العراقي، ولم نقف على العراقي هذا الموصوف بما ذُكر. والذي أثبتناه عن «ب»، وإن كنا لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب ومعجمات الأعلام، إلا أنه ورد ذكره كثيرًا فيما سيأتي.

(٣٢) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «الحيلوهي»، ولم نجد هاتين النسبتين فيما راجعناه من كتب الأنساب ومعجمات الأعلام التي بين أيدينا.

(٣٣) المذاخر: الأجواف.

(٣٤) في الأصل: «الإناء»، مكان قوله «الاثنان»، وهو تحريف.

(٣٥) فوضى فضى: أي إنهم مشتركون في طعامهم لا يختص به واحد دون رفاقه. ويريد بالشطر الثاني أنهم ليس لأحدهم سر دون أصحابه. وفي الأصل: موص قضى، مكان «فوضى فضى»، وهو تحريف. والتصويب عن اللسان.

(٣٦) الهلقام: عظيم اللقم. والبطين: عظيم البطن.

(٣٧) يريدون بالدقيقة: الغنم. وبالجليلة: الإبل. وهذا مثَل يقال إذا قل العشب، وذلك لأن الشاة إذا قدرت على أكل العشب القصير القليل وشبعت منه، فإن الناقة لا تقدر على أكله لقصره وقلته فتلحسه. يُضرب للفقير يخدم الغني. وعبارة الأصل: «إذا شعت لحست الحليلة»، وفيه نقص وتحريف ظاهران، والتصويب عن البيان والتبيين وغيره.

(٣٨) الكر: ستون قفيزًا، وهو ستة أوقار حمار، وقيل: أربعون أردبًّا.

(٣٩) في الأصل: «بحاجته»، وهو تحريف.

(٤٠) يريد أن بطنه قد ضمرت فاسترخى رباطه حتى صار له صوت، فشبَّه ذلك الصوت باللغط.

(٤١) الأونان: الخاصرتان. وقد ورد هذا البيت في الأصل هكذا:

وبال الجوع في أرنبه حتى كأنه حبيب يدان إلى حبيب

وفيه تحريف ظاهر. والتصويب عن إصلاح المنطق لابن السكيت ولسان العرب.

(٤٢) متعقفًا: أي معوجًّا.

(٤٣) في الأصل: «دبل أما الجوز أو بطيخا»، وفيه تصحيف ظاهر، والتصحيح عن المخصص.

(٤٤) في «أ» التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون «ب»: «الأنزح» ... «النزح» بالنون والحاء، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين، والصواب ما أثبتنا نقلًا عن كتب اللغة.

(٤٥) وردت هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم في الأصل بالقاف، وهو تحريف.

(٤٦) لا يبزرون: من بزرت القدر إذا رميت فيها البزر وهو التابل. ولا يقدرون: من القدر بفتح القاف وهو الطبخ في القدر.

(٤٧) لم ترد هذه العبارة في الأصل.

(٤٨) في الأصل: «الكريث» بالثاء، وهو تصحيف، والتصحيح عن إصلاح المنطق. وفي الأصل: «معقر»، وهو تصحيف أيضًا، والتصحيح عن إصلاح المنطق كذلك.

(٤٩) في الأصل: «السويق»، وهو تحريف، والتصويب عن إصلاح المنطق. والشوبق: هو الخشبة التي يبسط عليها الخباز الخبز.

(٥٠) هريئة: أي بردًا، يقال: قرة (بكسر القاف) فيها هريئة، أي يصيب الناس منها ضر وموت كثير. والهريئة: وقت اشتداد البرد، كما في اللسان.

(٥١) التنوم: شجر له حب كحب الخروع. وينظم بطن وادي: أي يملؤه ويعمه.

(٥٢) كذا في «أ» وديوان الفرزدق، والذي في «ب»: «أبا العرجاء»، وهو خطأ من الناسخ.

(٥٣) الحب بضم الحاء: الجرة، ولعلهم كانوا يضعون الدقيق في الجرار.

(٥٤) أبو عمرة: كنية الجوع.

(٥٥) في الأصل: «بودقة» بالباء والقاف، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن كتب اللغة. وعبارة مجمع الأمثال: تزعم الأعراب أن أبا الضباع وجد تودية في غدير ... إلخ ما هنا.

(٥٦) الخِلف: الضرع. وفي الأصل: «الحلف» بالمهملة، وهو تصحيف.

(٥٧) هذه: إشارة إلى دعوته إياه، أي إن هذه الدعوة تكسبني زيارتك لي وإن لم تسعد، أي تُعنِّي على قضاء الحق كله. وفي الأصل: «تكثر» مكان «تكسب»، وهو تحريف، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٥٨) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «ترك»، وهو تحريف.

(٥٩) في «أ»: «استلقى»، وهو تحريف.

(٦٠) في «أ»: «فيطعمون»، وهو تحريف.

(٦١) العراق (بالضم): جمع عرق (بفتح فسكون)، وهو العظم الذي أُخذ أكثر ما عليه من اللحم وبقي عليه شيء يسير.

(٦٢) في كلتا النسختين: «صناع»، وهو تصحيف.

(٦٣) في «أ»: «ولا آجامكم»، وهو تحريف.

(٦٤) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «نيرت»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٦٥) يريد بالضالعة هنا القوية على احتمال ما يُلْقَى إليها، وكذلك الضالع الآتي بعد. والذي وجدناه في كتب اللغة أنه الضليع، من الضلاعة وهي القوة. ولم نجد الضالع بهذا المعنى. والذي في كتاب التنبيه على أغلاط أبي علي القالي، ص٢٢، أن المحفوظ: ضرس قاطع يقذف في مِعى جائع. وهذا هو الصحيح.

(٦٦) السحبل: العظيم المسن من الضباب. والورل دابة تشبه الضب وأعظم منه بيسير. والأرمل: الذي لا زوج له، ويقال ذلك في المذكر على التشبيه، قاله

في اللسان مستشهدًا بهذا البيت، وروايته فيه: «رعى الربيع والشتاء أرملا» مكان قوله: «وورلًا يرتاد.»

(٦٧) في «أ»: «بيت»، وهو تحريف. وقد سبق التعريف بهذه الدابة في الحاشية التي قبل هذه.

(٦٨) كذلك: أي إنه أرمل لا زوج له.

(٦٩) في الأصل: «مرى»، وهو تحريف، والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٧٠) السعدان: نبت تشبه شوكته حلمة الثدي، وهو من أفضل مراعي الإبل، ويقال في المثل: «مرعى ولا كالسعدان.»

(٧١) الحربث: نبت منبسط له ورق رقاق طيب الرائحة يزيل بخر الفم.

(٧٢) في الأصل: «وظبي»، وهو تحريف.

(٧٣) في الأصل: «طبية»، وهو تحريف.

(٧٤) ورد هذا البيت في الحيوان، ولم ينسبه كما هنا.

(٧٥) في «أ»: «وقال»، وهو تبديل من الناسخ.

(٧٦) في «أ»: «قال»، وهو تحريف.

(٧٧) الغرث: الجوع.

(٧٨) في الأصل: «فأجزاهم» بالجيم، وهو تحريف.

(٧٩) في الأصل: «مهجتي» وهو تحريف.

(٨٠) في الأصل: «ثأرت ثورة فأنا أثأرها»، وهو تصحيف في الكلمات الثلاث.

(٨١) الصاد: النحاس، وقيل: نوع منه. وفي الأصل: «الضأن»، وهو تحريف. والقنابل: طوائف الخيل، الواحد قنبل وزان جعفر وقنبلة، وفي الأصل: «قناديل» وهو تحريف. وفي ديوان حسان: «في المحلة»، والمعنى عليه يستقيم. وفي الأصل: «في الماة»، والظاهر أن هذا اللفظ محرف عما أثبتنا نقلًا عن محاضرات الأدباء. وقبل هذا البيت:

إذا اغبر آفاق السماء وأمحلت   كأن عليها ثوب عصب مسهما

وفي ديوان حسان: «حسبت قدور»، مكان قوله: «تخال».

(٨٢) في الأصل: «قادت ... وأقادها ... والمقاد»، وهو تحريف في هذه الكلمات الثلاث.

(٨٣) الملة: موضع النار.

(٨٤) في الأصل: «لقأت ... لقاء إذا جعلت»، وهو تحريف في هذه الكلمات الثلاث.

(٨٥) في الأصل: «واللقتة ... البحصة ... والودنة»، وهو تحريف في هذه الكلمات الثلاث.

(٨٦) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الشعر: «سل الله»، وهو تحريف لا يستقيم به المعنى، ولعل صوابه ما أثبتنا. ولم نجد هذين البيتين فيما راجعناه من الكتب. والخبوت: جمع خبت، وهو المطمئن من الأرض.

(٨٧) لا ينادي ... إلخ: أي إنهم لا يكلفون الضيف مئونة السؤال.

(٨٨) الصيحاني: ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغ. والمصلب: الذي خلط بالصليب، وهو الودك، وهو مثَل يُضرب للمتلاقين المتوافقين. وفي

الأصل: «مقلية» بالقاف والياء، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن مجمع الأمثال.

(٨٩) يلاحَظ أن تفسير البرذونة الرغوث بهذا المعنى المذكور هنا غير صحيح، إذ البرذونة لا ولد لها، والرغوث من البراذين هي التي لا تكاد ترفع رأسها من العلف، أما التي يرضعها ولدها فهي الرغوث من الشياه، فلعل في الكلام نقصًا، وتكملته: «والشاة الرغوث هي التي ... إلخ.»

(٩٠) في إحدى النسختين: «صم»، وهو تصحيف.

(٩١) في «ب»: «ابن دراج»، وهو تصحيف.

(٩٢) في «أ»: «فركابك».

(٩٣) في الأصل: «واتدم» مكان قوله «ما قدم»، وهو تحريف.

(٩٤) في الأصل: «خائبًا يعين»، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين.

(٩٥) السديف: لحم السنام. والقزع بالقاف: السحاب. وفي الأصل: «الفزع» بالفاء.

(٩٦) الكوم واحده كوماء بفتح الكاف، وهي الناقة العظيمة السنام.

(٩٧) في الأصل: «غيظًا»، وهو تصحيف.

(٩٨) في الأصل: «فاسلني، يريد» وهو تحريف.

(٩٩) الجردقة: الرغيف، فارسية. وفي الأصل: «خودبة»، وهو تحريف.

(١٠٠) في الأصل: «حصنًا»، وهو تحريف.

(١٠١) التامك: الكثير العظيم.

(١٠٢) أرمل من الزاد: فرغ ما عنده منه.

(١٠٣) في الأصل: «يعد القوفر»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين لا معنى له، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(١٠٤) في الأصل: «فقد»، وهو تحريف.

(١٠٥) في الأصل: «من شدة»، وهو خطأ من الناسخ. والبيت لحاتم الطائي.

(١٠٦) في «أ»: «كاتب»، ثم ذكر الكتاب.

(١٠٧) في الأصل: «القتيل»، وهو تصحيف.

(١٠٨) في «ب»: «الحكماء».

(١٠٩) في «ب»: «وذي خلة يطور به»، وهو تحريف.

(١١٠) هو العلوي صاحب الزَّنْج، كما في مجموعة المعاني.

(١١١) وردت هذه التكملة في «ب» مطموسة الحروف تتعذر قراءتها، مهمل من النقط ما ظهر منها. وقد أثبتناها هكذا أخذًا من السياق، وبعضها عن مجموعة المعاني.

(١١٢) سدكت أنامله ... إلخ: أي أُولِعتْ بقائم السيف، يقال «سدك بالشيء» إذا أُولِع به، وخفَّت يده في عمله.

(١١٣) في الأصل: «وقد قدم للقوم»، وهو تحريف. كما أن قوله «للقوم» زيادة من الناسخ لا يستقيم بها وزن البيت.

(١١٤) المخترص: الذي يضع في خرسه (بكسر الخاء)، أي جرابه، ما يريد. وفي «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها دون «ب»: محترض، وهو تصحيف. كما أن فيها «هنأه» مكان «كأنه»، ولا معنى له أيضًا.

(١١٥) أورد في اللسان هذا الشطر، مادة «قلد»، شاهدًا على أن المقلد (بكسر الميم) الرجل المجمع.

(١١٦) أورد في اللسان هذين الشطرين مادة «حرب». والذي في الأصل:

وصاحب صاحب عيرا يعبدا تراه بين الحرتين ... إلخ

ولا يخفى ما في ذلك من تحريف.

(١١٧) في الأصل: «أغضب».

(١١٨) في «أ»: «أيضيع طرف»، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(١١٩) المبرِّز: المطلِق للبطن.

(١٢٠) في كلتا النسختين: «يسرج» بالسين، وهو تحريف.

(١٢١) اللوح: العطش. والذي في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الشعر: «والنوح». وما أثبتناه هو المناسب لقوله بعد: «ولا ماء.»

(١٢٢) المزورة: مرقة تُعمل بغير لحم يصفونها للمرضى.

(١٢٣) في الأصل: «ظاميها»، وهو تحريف.

(١٢٤) في «ب»: «وطيبه».

(١٢٥) في «أ»: «اللون» بالنون، وهو تصحيف.

(١٢٦) وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط تتعذر قراءتها، وقد أثبتناها هكذا نقلًا عن كتب اللغة بعد تقليبها على عدة وجوه.

(١٢٧) في الأصل: «الخلد»، وهو تصحيف.

(١٢٨) في «أ»: «عزيز».

(١٢٩) في «أ»: تقول.

(١٣٠) كذا وردت هذه العبارة في الأصل، والظاهر أن لها بقية سقطت من الناسخ.

(١٣١) في الأصل: «ابن القرم».

(١٣٢) لم يرد هذا الشطر الذي بين مربعين في الأصل، وقد أثبتناه عن شعر الأعشين المطبوع في أوروبا. وفي الأصل: «وأنشد» مكان قوله «وأيدى»، وهو تحريف. وهضم بضمتين: جمع هضوم، وهو الجواد المتلاف.

(١٣٣) في الأصل: «وثميل»، وهو تحريف.

(١٣٤) كذا ورد هذا الاسم في كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام، ولم نجد من نصَّ على تصحيحه بالعبارة.

(١٣٥) كذا ورد هذا الاسم في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هنا، وبعد عدة أسطر. ولم نجد من نص على تصحيحه فيما راجعناه من المظان.

(١٣٦) ودَّره: أهلكه.

(١٣٧) في الأصل: «شبمة»، وهو تحريف.

(١٣٨) في الأصل: «وسماه»، وهو تحريف. والشاة الكدمة: الغليظة السمينة.

(١٣٩) جعجعه: نحره.

(١٤٠) اؤتمر: استُشير.

(١٤١) يقال: أعال الرجل أهله، إذا كفاهم ومانهم، كعالهم.

(١٤٢) قاموا عليه: أي قاموا بخدمته وما يصلحه في مرضه.

(١٤٣) الرميض: الحاد، يريد هنا حدة الرائحة. والذي في الأصل: «رفيضًا»، ولعله محرف عما أثبتنا، أو لعله: «فضيضًا» أي متفتتًا متكسرًا.

(١٤٤) حاميتنا ... إلخ: أي إنه يحمي بيوت الحي من المغيرين إذا خرج الرجال للغزو.

(١٤٥) في الأصل: «سنونا»، وهو تحريف.

(١٤٦) اتغر الغلام واثغر: نبت ثغره.

(١٤٧) في الأصل: «دينار»، وهو تحريف.

(١٤٨) في الأصل: «الحلائلا»، وهو تحريف.

(١٤٩) في الأصل: «قيامها»، وهو تحريف. وأطراف الرعان: يريد أطراف الجبال.

(١٥٠) في الأصل: «قصية» بالقاف والصاد، وهو تصحيف.

(١٥١) الأشافي: المثاقب، واحدته إشفى بكسر الهمزة وسكون الشين والفاء المفتوحة. وفي الأصل: «نصد السلافي»، وهو تحريف. يقول: إن سنامها لم يبقَ فيه ما تخرجه الأشافي ولا المواسي، جمع موسى.

(١٥٢) الطخياء: الظلمة الشديدة.

(١٥٣) كذا ورد هذا الشطر في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام، ولم نجده فيما راجعناه من الكتب.

(١٥٤) الثلاثة بضم الثاء: أي الثلاثة بفتحها. يريد أنها لم تحلب إلا الثلاثة من الآنية أو الاثنين. وقيلت بضم القاف وتشديد الياء المكسورة، ذكره ثعلب

هكذا، ورواها بعضهم: قيلت، بفتح القاف من القيل بمعنى اللبن الذي يُشرب وقت القائلة. اللسان، مادة «ثلث».

(١٥٥) خف المنائح: أي خفَّتها، مصدر خَفَّ. يريد قلة المنائح، جمع منيحة، وهي الناقة الممنوحة للانتفاع بوبرها وولدها ولبنها. وفي الأصل: «جف» بالجيم، وهو تحريف.

(١٥٦) في الأصل: «رنغ المطي من الرحا»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين. ويريد تواني المطايا وتخاذلها عن المشي من طول السفر وشدة ما أصاب حوافرها من المشي. يصف ممدوحه بالكرم في هذه الحال، وأنه خرق أي كريم متخرق في المعروف، وأن ذا مزوده (أي صاحب زاده القيم عليه) لم يُخْفِ دقيقه ولم يخبئه، بل يبذله للمُرملين من الرفاق.

(١٥٧) كذا ورد هذا الشطر في الأصل ناقصًا، ولم نقف عليه فيما راجعناه من الكتب.

(١٥٨) في الأصول: «نحول» مكان «نحوك»، و«حق» مكان «نحو»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(١٥٩) في الأصل: «ازدار الراكب»، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين.

(١٦٠) في شرح القاموس: «زمعة بن الأسود».

(١٦١) في الأصل: «جوع»، وهو تحريف، إذ ليس من المعروف تشبيه الجوع بالسحاب المتراكم، وإنما يشبَّه بذلك الجود.

(١٦٢) في الأصل: «فعثرتهم في»، وهو تحريف.

(١٦٣) في الأصل: «لاح»، وهو تصحيف.

(١٦٤) المثغور: الذي سقطت أسنانه لا يقدر على الأكل.

(١٦٥) في الأصل: «عينك»، وهو تحريف.

(١٦٦) الحرجف: الريح الشديدة، وكنى بالحرجف والدبور عن الجدب. وفي الأصل: «وقد شعلهم جرجف ودثور»، وهو تحريف.

(١٦٧) في الأصل: «قرانمها حسا»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين. والتصحيح عن كتب اللغة.

(١٦٨) في الأصل: «العرب المرفوع خوانه ...» إلخ البيت، وهو تحريف كما ترى.

(١٦٩) عبارة الأصل: «الرفاع وخوانه داء كثيرة»، وهو تحريف في جميع هذه الألفاظ، وقد ذكر اللغويون أن الرماع داء في البطن يصفرُّ منه الوجه. وتُنقِض الضلوع: أي تسمع للأضلاع نقيضًا، أي صوتًا من ثقل تلك الدلو.

(١٧٠) يلاحَظ أن استطراد المؤلف هنا بذكر الحوب لا مناسبة له، فإن الحوأبة في البيت إنما هي من مادة «حأب»، والحوب الذي ذكره من مادة «حوب».

(١٧١) يريد بالتبن ما يعم أنواع العلف.

(١٧٢) في الأصل: «وأبسل»، وهو تحريف.

(١٧٣) وردت هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم في الأصل بالدال مكان الباء، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن كتب اللغة، يقال: بكله، إذا خلطه.

(١٧٤) في الأصل: «ممرا وغيره»، وهو تحريف.

(١٧٥) لم ترد في الأصل بقية هذا البيت، ولم نجده فيما راجعناه من الكتب.

(١٧٦) في الأصل: «حلف» بالحاء المهملة، وهو تصحيف. وقوله «لم يكن مصرمًا»: إما أن يُفسَّر بأنه لم يكن منتعلًا، مأخوذ من الصرم بكسر الصاد وهو الخف الذي له نعل، وإما أن يراد أنه لم يكن ذا مال، مأخوذ من الصرمة بكسر الصاد وهي القطعة من الإبل من الأربعين إلى الخمسين، وقيل غير ذلك في عددها.

(١٧٧) ريثما: أي يتصنع ريثما ينال بغيته. وفي الأصل: ريَّما، وهو تحريف.

(١٧٨) ورد في هذا الموضع الذي وضعنا فيه هذه النقط شطر من هذه الأرجوزة مهمل أكثر حروفه من النقط ومطموس بعضها، ولم نهتدِ إلى وجه الصواب فيه، كما أننا لم نعثر على الأرجوزة في المصادر التي بين أيدينا. وها هو هذا الشطر كما في الأصل:ولم يرحنا غراثًا أدما

(١٧٩) يقال: وصمته الحمى (بتشديد الصاد)، إذا جعلت في جسده فترة، ويقال: وصَّمه التعب، إذا فتَّر جسمه وأكسله. وفي الأصل: «قترة» بالقاف، وهو تصحيف.

(١٨٠) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الشعر: إذا أجاح قبطة تخدما، وهو تحريف في جميع هذه الألفاظ. وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا.

(١٨١) القارصة: الطائفة من اللبن الحامض الذي يُحذي اللسان بحرافته.

(١٨٢) وخلة منه: أي من اللبن، واحدة الخل، معروف، أي الطائفة منه. والخل قد يكون من اللبن كما في كتب اللغة.

(١٨٣) في الأصل: لا يعرف الشادف المحترما، وفيه تحريف كما ترى، وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا. والشارف: المسنة من الإبل. أي لا يعقر الناقة إلا في الحج حين يجب عليه عقرها.

(١٨٤) في الأصل: «ولا يأنف»، وهو تحريف.

(١٨٥) المحراث: حديدة تحرك بها النار.

(١٨٦) الشجعم من الحيات: الشديد الغليظ. وفي الأصل: سجعما، بالسين المهملة، وهو تصحيف.

(١٨٧) الصمحمح: الشديد المجتمع الألواح.

(١٨٨) في الأصل: «يبك» بالكاف، وهو تحريف.

(١٨٩) في الأصل: «يرث» بالثاء المثلثة، وهو تصحيف.

(١٩٠) في الأصل: «إهاؤه ببعثة»، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين.

(١٩١) في الأصل: «ينزل»، وهو تحريف.

(١٩٢) الإمرة: الضعيف الرأي الذي يوافق كلًّا على ما يريد ولا رأي له.

(١٩٣) في الأصل: «غرة»، وهو تحريف.

(١٩٤) في الأصل: «منهما»، وهو تحريف.

(١٩٥) في «أ» الوارد فيها وحدها هذا الشعر: «عزي» مكان «ندي»، و«حريز» مكان «خزير»، وهو تحريف كما ترى، والتصحيح عن النقائض. والبيت لجرير. والخزير: لحم يُقطع صغارًا ويُلقى في الماء فإذا أُمِيت طبخًا ذرَّ عليه الدقيق.

(١٩٦) في الأصل: «بدخل»، وهو تصحيف.

(١٩٧) صرير الجندب: مثَل يُضرب للأمر يشتد حتى يقلق صاحبه. والأصل فيه أن الجندب إذا رمض في شدة الحر لم يقر في الأرض، وطار فتسمع لرجليه صريرًا. والجندب طائر أصغر من الصدى يكون في البراريِّ.

(١٩٨) إذا أكريتَ إنسانًا بعيرك أو أكراك بعيره فكلٌّ منكما كريُّ صاحبه، قاله في اللسان وأنشد هذا الرجز. والجرجر: الفول بلغة أهل العراق، أو هو نبت. والذي في الأصل: «كدنة» مكان قوله «كريه»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا بعد تقليب هذه الكلمة على عدة وجوه.

(١٩٩) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «ابن علقمة».

(٢٠٠) في «ب»: «لأبي عمرو».

(٢٠١) كذا في الأصل، ولم نجد هذا اللفظ بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة، والذي وجدناه بالمعنى المذكور: «قدير»، أي مطبوخ في القدر. ولعل قوله «حميل» بالحاء المهملة مصحَّف عن «جميل» بالجيم، وهو الشحم المذاب، فيكون هنا كلام سقط من الناسخ قبل هذه الكلمة المصحَّفة التي نحن بصددها.

(٢٠٢) «مقلة الجمل» و«حولاء الناقة» يُتمثل بهما في الخصب والنعمة، فيقال: هم في مثل حدقة البعير، وذلك أن حدقة البعير أخصب ما فيه، لأن بها يعرفون مقدار سمنه، وفيها يبقى آخر النِّقْي، وهو مخ العظم. ويقال: صاروا في حولاء الناقة، إذا صاروا في خصب، وإذا وُصفت الأرض قيل كأنها حولاء الناقة، لأن ماء الحولاء أشد ماء خضرةً. والحولاء: الماء الذي يخرج على رأس الولد إذا وُلد، وليس في الكلام فعلاء بالكسر ممدودًا إلا حولاء وعنباء وسيراء. وقيل: الحولاء: غلاف أخضر كأنه دلو عظيمة مملوءة ماء

وتتفقأ حين تقع على الأرض، وهو قائد السَّلَى، أي يخرج قبله، ويقال أيضًا: هم في مثل حولاء السلى. انظر ما يعوَّل عليه للمحبي ولسان العرب.

(٢٠٣) نشَّاشة: أي نزَّازة بالماء لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها.

(٢٠٤) حلقوم النعامة ومريء الحمل: مثَلان في قلة ما يأتيهم من الماء وضيق مسايله إليهم.

(٢٠٥) حَرَب: أي ذات حرب، وهو والكلب واحد وزنًا ومعنًى. وجلودها جرب: أي ذات جرب.

(٢٠٦) الغلاصم: جمع غلصمة، وهي رأس الحلقوم. يريد أن هذه الإبل تقذف الطعام في حلوقها وأعناقها قذف الحجارة، يصفها بقوة القذف قذف الطعام. والذي في الأصل: «يقدمن» مكان «يقذفن»، وهو تحريف.

(٢٠٧) البيت لذي الرمة. والبرى: الخلاخيل. والماء الجامس: الجامد. يقول إنهم يغارون على النساء إذا اشتد الفزع، وكشف الرعب عن سيقانهن فأبدين من خلاخيلهن، فهم إذ ذاك يحمونهن ويكفينهن ما يفزعهن. ثم يقول في الشطر الثاني: إنهم كرام، إذا اشتد البرد وجمد الماء يقرون أضيافهم عبيط اللحم، وفي رواية: سديف. وقد ورد هذا البيت في الأصل هكذا:

يغار إذا ما الزرع أبدى عن الثرى   ويقـــــرى ... ... إلـــــخ

وفيه تصحيف في بعض كلماته كما ترى، والتصويب عن ديوان ذي الرمة وغيره.

(٢٠٨) الناق: جمع ناقة. وفي «أ» التي ورد فيها وحدها هذا البيت: «لا ناب» بالباء، وهو تحريف، إذ الناب الواحدة – وهي المسنة من الإبل – لا تكون مصرَّمة، أي بالغة صرمة، وهي عدة من الإبل تبلغ الأربعين.

(٢٠٩) القعب: القدح الضخم.

(٢١٠) اللفيف: الصديق.

(٢١١) العلق: النفيس من المتاع.

(٢١٢) يريد بالمرابحة هنا أن يقول المشتري للبائع: أربحك في هذه السلعة كذا فوق ما اشتريتها به من الثمن، أو أن يقول البائع للمشتري ذلك.

(٢١٣) السمت: هيئة أهل الخير وطريقتهم. والمسترسلون: من استرسل إليه، إذا انبسط إليه واستأنس ثقة به واتكالًا على ما بينهما من ود وصلة. وفي الأصل: المترسلين، وهو تحريف.

(٢١٤) الوضائع: الخسائر.

(٢١٥) في «أ»: «يزورها» بتشديد الواو، وهو وإن صح به المعنى إلا أنه لا يستقيم به السجع.

(٢١٦) التنَّاء: الدهاقين ورؤساء القرى، الواحد تانئ.

(٢١٧) ورد هذان اللفظان في كلتا النسختين كلٌّ منهما مكان الآخر، والسياق يقتضي ما أثبتنا كما ترى.

(٢١٨) في «ب»: «الأمور».

(٢١٩) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «في فوت الإيراد»، وهو تحريف.

(٢٢٠) في «ب»: «تدرك»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٢٢١) في كلتا النسختين: «عليه»، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٢٢٢) كذا ورد هذا الكلام الذي بين هاتين العلامتين في «ب»، والذي في «أ»: «وأن تقبله كيدك على أعزز من ذلك»، وفي هذا الكلام تحريف كما ترى لا يُفهم له معنى.

(٢٢٣) وردت هذه العبارة في كلتا النسختين مهمل بعض حروفها من النقط تتعذر قراءتها.

(٢٢٤) في كلتا النسختين: «تفسحي»، وهو تحريف.

(٢٢٥) في «ب»: «فدخلت».

(٢٢٦) في «أ»: «وفي فكري».

(٢٢٧) يتقدم بكذا: أي يؤمر به.

(٢٢٨) في «ب»: «فوجدته»، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا كما في «أ».

(٢٢٩) في «أ»: «فيَّ».

(٢٣٠) في كلتا النسختين: «في مد»، وظاهر أن معناه لا يناسب ما هنا، ولعله محرف عما أثبتنا.

(٢٣١) في «ب»: «ما غرفي»، وهو تحريف.

(٢٣٢) في «أ»: «ما يظهر»، وهو تحريف.

(٢٣٣) في «أ»: وقوفه، وهو تحريف. ويلاحَظ أن «أ» وحدها هي التي وردت فيها هذه الكلمة والتي قبلها.

(٢٣٤) في «أ»: «أطعمتني»، وفي «ب»: «أطمعتني»، وهو تحريف في كلتا النسختين. والبيت للمتنبي.

(٢٣٥) الروْح بفتح الراء والراحة كلاهما بمعنى واحد.

(٢٣٦) هذه الجملة أُريد بها الإيذان بالانصراف.

الليلة الثالثة والثلاثون

عدنا إلى ما كنا فيه من حديث الممالحة – وكان قد استزادني – فكتبت له هذه الورقات وقرأتها بين يديه، فقال كلامًا كثيرًا عند كل ما مر مما يكون صلة لذلك الحديث، خَزَلْتُه طلبًا للتخفيف:

قال حمَّاد الراوية: عن قتادة قال زيادٌ لغَيْلَان بن خَرَشة: أحبُّ أن تحدثني عن العرب وجَهْدِها وضنك عيشها لنحمد الله على النعمة التي أصبحنا بها. فقال غيلان: حدثني عمي قال: توالت على العرب سِنون [سبعٌ في الجاهلية] حَصَّت[1] كلَّ شيء، فخرجتُ على بَكْرٍ لي في العرب، فمكثتُ سبعًا لا أذوق فيهن شيئًا إلا ما ينال بعيري من حشرات [الأرض] حتى دنوتُ[2] إلى حِواء[3] عظيم، فإذا ببيتٍ جَحِيشٍ[4] عن الحي فمِلْت إليه، فخرجت إليَّ امرأةٌ طُوالة حسَّانة،[5] فقالت: مَن؟ قلت: طارق ليلٍ يلتمس القِرى. فقالت: لو كان عندنا شيءٌ آثرْناك به، والدالُّ على الخير كفاعله: جُسْ هذه البيوتَ فانظر إلى أعظمها، فإن يك في شيء منها خيرٌ ففيه. ففعلتُ حتى دنوتُ[6] إليه، فرحَّب بي صاحبه وقال: مَن؟ قلت: طارق ليلٍ يلتمس القِرَى. فقال: يا فلان. فأجابه، فقال: هل عندك (من) طعام؟ قال: لا. قال: فوالله ما وَقَر في أذني شيءٌ كان أشدَّ عليَّ منه. فقال: هل عندك من شراب؟ قال: لا. ثم تأوَّه وقال: قد أبقينا في ضَرْع فلانة[7] شيئًا لطارقٍ إن طَرَق. قال: فأْتِ به. فأَتَى

العَطَن فابتعثها، فحدثني عمي أنه شهد فتح أَصْفِهان وتُسْتَر ومِهْرَجان[8] قُذَق وكُور الأَهْواز وفارس، وجاهد عند السلطان وكثر ماله وولدُه؛ قال: فما سمعتُ شيئًا قطُّ كان ألذَّ إليَّ من شَخْب تلك الناقة في تلك العُلْبة، حتى إذا ملأها ففاضت من جوانبها وارتفعت عليها رَغْوةٌ كجُمَّة[9] الشيخ أقبل بها نحوي فعَثَر بعُودٍ أو حجر، فسقطت العلبة من يده، فحدثني أنه أُصيب بأبيه وأمه [وولده] وأهل بيته، فما أُصيب بمصيبة أعظم عليه من ذهاب العُلْبة. فلما رآني[10] كذلك ربُّ البيت خرج شاهرًا سيفه، فبعث الإبل ثم نظر إلى أعظمها سَنامًا، على ظهرها مثل رأس الرجل الصَّعِل،[11] فكشف عن فُوَّهتِه[12] ثم أوقد نارًا، واجْتَبَّ سَنامَها، ودفع إليَّ مُدية وقال: يا عبد الله، اصْطَل واجْتَمِلْ.[13] فجعلتُ أَهْوِي بالبَضْعَة إلى النار، فإذا بلغتْ إنَاها أكلتُها، ثم مسحتُ ما في يدي من إهالتها على جلدي، وكان قد قَحَل[14] على عَظْمي حتى كأنه شَنٌّ،[15] ثم شربت ماءً وخررتُ مَغْشِيًّا عليَّ فما أفقتُ إلى السَّحَر.

فقطع زيادٌ الحديثَ وقال: لا عليك أن تخبرنا بأكثر من هذا، فمَن المنزول به؟[16] قلت: عامر[17] بن الطُّفَيْل. قال: أبو عليٍّ؟ قلت: أبو علي.

واستعادني الوزير [أدام الله علوَّه] هذا الحديثَ مرتين وأكثر التعجب، وقال: صدق القائل في العرب: مُنِعُوا الطعامَ وأُعْطُوا الكلام!

تَغَدَّى أبو العَيْناء عند ابن مكرِّم فقدَّم إليه عُراقًا،[18] فلما جَسَّه قال: قِدْركم هذه قد طُبِخَت بشِطْرنج؟[19]

وقدَّمَ إليه يومًا قِدْرًا فوجدها كثيرة العظام فقال: هذه قِدْرٌ أم قبر؟

وأكل عنده أبو العَيْناء يومًا فسُقِي ثلاث شَرَبات باردة، ثم طلب الرابعةَ فسُقي شربةً حارَّة فقال: [لعل] مزمَّلتَكم[٢٠] تعتريها حُمَّى[٢١] الرِّبْع.

قال سَلَمة: بقي أبو القَمْقام ببغداد وكنَّا نأتيه ونسمع منه، فجاءنا بجَفْنة فيها جُوذَاب[٢٢] فجعل أصحابُنا يأكلون، ثم أتاهم بسَفُّودٍ فيه يَرابِيع فسَلتَها في الجفنة، فعلم القومُ أنهم قد دُهُوا، فجعلوا يَسْتقيئون ما أكلوا.

وقالت عائشة [رضي الله عنها]: يا رسول الله، لي جارتان بأيَّتهما أبدأ؟ قال: «بأدناهما بابًا منك.» [٢٣]

وقال حكيم: ينبغي ألا يُعطَى البخيلُ أكثر مِن قُوتِه، ليُحْكَم عليه بمثل ما حكم [به] على نفسه.

وقال الشاعر:

أفلح مَن كانت له قَوْصَرَّةْ[٢٤]	يأكل منها كلَّ يومٍ مرةْ
أفلح من كانت له مِزَخَّةْ[٢٥]	يَزُخُّها ثم ينام الفَخَّةْ
أفلح من كانت له دَوْخَلَّةْ[٢٦]	يأكل منها كلَّ يومٍ مَلَّةْ
أفلح من كانت له هِرْشَفَّةْ[٢٧]	ونَشْفَةٌ[٢٨] يملأ منها كَفَّهْ

أفلـح مـن كانـت لـه كِرْدِيـدَةْ[٢٩]   يأكـل منهـا وهـو ثـانٍ جِيـدَهْ

وقال أبو فرعون الشاشيُّ يخاطب الحُجَّاج:

يـا خيـرَ رَكْـبٍ سـلكوا طريقـا   ويمَّمـوا مكـة والعَقِيقـا

وأَطْعَمـوا ذا الكَعْـكَ والسَّـوِيقا   والخُشْـكنانَ[٣٠] اليـابسَ الرقيقـا

وقال آخر:

رأيـتُ الجـوع يطـرُدُه رغيـفٌ   ومِـلْءُ الكـفِّ مـن مـاء الفُـراتِ

وقال النبي ﷺ: «الطاعمُ[٣١] الشاكر بمنزلة الصائم الصابر.»

قبَّل مُزَبِّدٌ[٣٢] جاريةً بَخْراءَ، فقال لها: أظنكِ تعشيت بكَرِش، أو احتَشَيْتِ صَحْنًا[٣٣] فقالت: ما أَكَلْتُ إلا خَرْدلًا. قال: قد ذهب النصف الثاني وبقي ما قبله.

قال شاعر:

وبـاتوا يُعَشُّـون القُطَيْعـاءَ ضـيفَهُمْ   وعنـدهم البَرْنِيُّ في جُلَلٍ دُسْمِ[٣٤]

وقال آخر:

وما أطعمونا الأَوْتَكَى[٣٥] من سماحةٍ   ولا مَنَعـوا البَرْنـيَّ إلا مـن البُخْـلِ

سمعتُ الحجَّاجيَّ يقول: كُلِ الخبز أو السمك، فإنْ أكل أحدَهما كان مطيعًا. فإذا نفيتَ فقلتَ: لا تأكل الخبزَ والسمك، فإنْ أكل

أحدَهما لم يَعْصك. وإذا قلتَ: لا تأكل الخبز أو السمك، لم يكن له أن يأكل أحدَهما، لأن التقدير في النفي: لا تأكلْ أحدَهما، والتقديرَ في الإيجاب: ائتِ أيَّهما شئتَ، فهذه خاصِّيَّة «أو». السَّوِيق: الجَشِيش،[36] لأنه رُضَّ وكُسِر. المِجَشَّة: رحًى صغيرةٌ يُجَشُّ بها.

رُوي أن رسول الله ﷺ رأى الشُّبْرُم[37]عند أسماء بنت عُمَيْس فقال: «حارٌّ حارٌّ»، وأَمر بالسَّنا.[38]

ويقال: أكل البطيخ[39] مَجْفَرَة، أي يقطع ماءَ النكاح.

ويقال: فلانٌ عظيمُ المُجْرَأَشِّ[40] أي الوسط، فرسٌ مُجْرَئِشُّ[40] الجنبَين، واجْرَأَشَّت[40] الإبلُ، إذا بَطِنت، وإبل مُجْرَئِشَّة[40] أي بِطان. ويقال: كَثْأَةُ[41] قِدْركم، وهي ما ارتفع منها عند الغَلْي.

وقال النبي ﷺ فيما رواه ابن عباس قال: سمعتُه يقول: «ليس بمؤمنٍ مَن بات شبعانَ [رَيَّانَ] وجارُه جائعٌ طاوٍ.»

قال عمر: مدمن اللحم كمدمن الخمر.

وقال لَقِيط بن زُرَارة يذُمُّ أصحابَه يوم جَبَلة:

إنَّ الشِّواء والنَّشيل والرُّغُفْ والقَيْنَةَ الحَسْنَاءَ والكأس الأُنُفْ
للضاربين الهامَ والخيلُ قُطُفْ

قيل لدُبٍّ: لمَ تُفْقِر رجلًا في ليلةٍ من كثرة ما تأكل [من] عنبه؟ فقال: لا تَلُمْني، فإن بين يديَّ أربعة أشهرٍ أَنْجَحر فيها فلا أتلمَّظُ إلا بالهواء.

قال ابن الأعرابي: إذا أَقْدَح[٤٢] الرجلُ مرةً بعد مرة فأطعم لحمَه المساكينَ سُمِّي مُتمِّمًا، وبه سُمِّي ابنُ نُوَيْرة، ومن ذلك قول النابغة:

إنــي أُتمِّــم أيْســاري وأمــنحُهمْ مَثْنَى الأيادي[٤٣] وأَكْسُو الجَفْنَةَ الأُدُمَا

الثُّرْتُم[٤٤] من فتات الطعام، ويقال التُّرْتُم أيضًا: [ما فَضَل من[٤٥] الطعام في الإناء.] ويقال: طعامٌ ذو نُزُل[٤٦] والمَلِيح والمِلْح: السِّمَن، يقال: تَمَلَّحت الجارية وتحلَّمَتْ، إذا سمِنَت.

وقال أبو الطَّمَحان القَيْنيُّ: [٤٧]

وإنــي لأرجــو مِلْحَهـا فــي بطــونكم وما كَشَـطتْ مـن جلْد أشعثَ أغْبَـرا

هكذا سمعتُ. ويقال: سَمِن حتى كأنه خَرْس،[٤٨] والخرس: [٤٨] الدَّنُّ بعينه. وفي المثل: «إن آخر الخرس[٤٨] لدُرْدِيٌّ» أي آخر الدَّنِّ دُرْدِي.

وأُنْشِد:

حبَّــذا الصَّــيْفُ حبَّــذا مــن أوانِ وزمــــانٍ يفــــوق كـــلَّ زمــــان!

زمــنُ الخمــر والمَســاورِ والجَشْــ ـن[٤٩] ووَرْد[٥٠] الخِلافِ والريحانِ

زمــنٌ كانــت المَضــائِرُ[٥١] فيــه بلحـــوم الجِـــدَاءِ والحُمْـــلان

وصُـــدورُ الـــدَّجاجِ بالخــلِّ والمُـــ ـــرِّي ونشـرِ السَّـذَاب والأنْجُـذَانِ[٥٢]

وسِـــمانٌ مـــن الفَـــراريج تُغْلَـــى بعصـــير الأعنـــاب والرُّمـــان

وشِـــوا الـــوزَّةِ اللذيـــذة والقـــا رِص بـــين الحليـــب والألْبـــانِ

ونَقِــي الســويق بالســكَّر المَنْـــ ـخُول في الثلج في الزُّجاج اليماني

وقِـــلالٌ تُحَـــطُّ مِـــن بَكَـــراتٍ مُرْوِيـــاتٌ غَلائـــلَ العطشـــان

واعترض حديثُ العلم، فأنشد ابنُ عُبيدٍ الكاتب لسابقٍ الزُّبيري قوله:

العلم يجلو العَمى عن قلب صاحبه كمـا يُجَلِّـي سـوادَ الظُّلْمـة القَمَـرُ

وقال أيضًا:

إذا مـا لـم يكـن لـك حُسـن فهـمٍ أسـأتَ إجابـةً وأسـأتَ فهمـا

آخر:

العلـم يُـنعِش أقوامًـا فيَـنْقَعُهُمْ[٥٣] كالغَيْـث يُـدرك عِيـدانًا فيُحْييهـا

فقال الوزير: عندي في صحيفة حفظ الصِّبا: العلم سراجٌ يُجلِّي الظلمة، وضياءٌ يكشف العَمَى. التذلُّل مكروهٌ إلا في استفادته، والحرص مذمومٌ إلا في طلبه، والحسد مَنْهِيٌّ عنه إلا عليه.

ثم عاد الحديث إلى الممالحة:

حدثني مُطَهَّر بن أحمد الكاتب عن ابن قرَارة العطار قال: اجتمع ذات يومٍ عندي على المائدة أبو علي بن مُقْلَة وأبو عبد الله اليزيدي، وكان ابن مقلة يفضل الهريسة وكان اليزيدي يفضل الجُوذابَة، وكان كل واحد منهما يصف النوع الذي يقول به ويؤثره، فقال اليزيدي: الهريسة طعام السوقيين والسِّفْلة وليست الجوذابة بهذه الصفة. فقال لي ابن مقلة: ما اسم الجوذابة بالفارسية؟ فقلت: جَوْزاب. (٥٤) فقال: ضُمَّ الكاف.٥٥ وفهمتُ ما أراد، فقلت: نسأل الله العافية، والله لقد عافتْها نفسي. وسكت اليزيدي.

قال يزيد بن ربيع: الكباب طعام الصعاليك، والماء والملح طعام الأعراب، والهرائس والرءوس طعام السلاطين، والشِّواء طعام الدُّعَّار، والخل والزيت طعام أمثالنا.

وحدثني ابن ضبعون الصوفي قال: قال لي أبو عمر الشاري(٥٦) صاحب الخليفة: انهض بنا حتى نتغدى، فإن عندي مَصُوصًا(٥٧) وهُلامًا(٥٨) وبقية مطجَّنة، وشيئًا من الباذنجان البوراني البائت المخمَّر. قلت: هذه كلها تزايين المائدة، فأين الأدم؟!

كان عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس يكثر أكل الجوذاب ولا يؤْثر عليه شيئًا، وكان يقول: يشد العضدين، ويقوي الساعدين، ويجلو الناظرَين، ويزيد في سمع الأذنين، ويحمِّر الوجنتَين، ويزيد في المني، وهو طعام شهي، فأي شيء بقِيَ؟

وبلغ المنصور وصفُه هذا فقال: بحقٍّ ما وصفه، ولا نقبل أكله.

وقال وكيع بن الجراح: التمتين[٥٩] على المائدة خيرٌ من زيادة لونين، وكمال المائدة كثرة الخبز، والسَّمِيذ الأبيض أحلى من الأصفر.

وكان يحيى بن أكثم يحب[٦٠] الجُوذاب، فبلغه أن رجلًا ممن [يحضر] عنده يعيب الجوذاب، فقال يحيى: إن ثبت عندي هذا توقفت عن شهادته، وحكمت عليه بضعف الحس وقلة التمييز، فبلغ الرجلَ ذلك فاحترس، فقال له يحيى يومًا: ما قولك في الجوذاب؟ فقال: أشرف مأكلٍ وأطيبه، سهل المدخل، لذيذ المطعم، جيِّد الغذا، قليل الأذى. قال: أصبت، هكذا أريدك.

أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: ما من داخلٍ إلا وله حيرةٌ فابْدءوه بالسلام، وما من مدعوٍّ إلا وله حشمة فابدءوه باليمين. [٦١]

قال حَمْدان: قلت لجاريةٍ أردت شراءها – وكانت ناعمة البدن، رطبةً شَطْبة،[٦٢] غضَّة بَضَّة: ما كان غذاؤك عند مولاك؟ قالت: المبَطَّن. قلت: وما المبطن؟ قالت: الأرز الرَّيَّان من اللبن، بالفالُوذَج الرَّيَّان من العسل، والخَبِيصة الرَّيَّانة من الدُّهْن والسكَّر والزعفران. قلت: حُقَّ لك.

وقال ابن الجصَّاص الصوفي: دخلت على أحمد بن رَوْحٍ الأَهْوازي فقال: ما تقول في صَحْفة أرزٍ مطبوخ فيها نهرٌ من سمن، على حافاتها كثبانٌ من السكر المنخول؟ فدمعتْ عيني. فقال: ما لك؟! قلت: أبكي

شوقًا إليه، جعلنا الله وإياك من الواردين عليه بالغَوَّاصة والرَّدَّادَتَين! فقال لي: ما الغواصة [والردادتان]؟ (٦٣) قلت: الغواصة الإبهام، والردادتان: السبابة والوسطى. فقال: أحسنت، بارك الله عليك.

شكا رجلٌ إلى عمر الجوعَ، فقال: أكذك وأنت تَنِثُّ نَثَّ(٦٤) الحَمِيت؟ أي تَرْشَح كما يرشح الزِّقُّ.

وقال ابن سُكَّرة:

أطمعنـــي فـــي خَـــرُوفكم خَرَفـــي	فجئـــتُ مُســـتعجلًا ولـــم أَقِـــفِ
وجئـــتُ أرجـــو أطرافَـــه فغـــدَت	في طَـرَفٍ والسِّـماك(٦٥) في طَـرَفِ
وحـــذروني مـــن ذكـــر رُزَّتِـــه	يـا حَـرَّ صـدري لهـا ويـا لَهفـي!
عاينتُـــه والـــذي يفصِّـــله	والقلـب منـي علـى شـفا جُـرُف
مـا حـلَّ بـي منـك عنـد منصـرفي	مـــا كنـــتُ إلا فريســـة التلـــف

ويقال: القانع غنيٌّ وإن جاع وعَرِي، والحريص فقير وإن ملك الدنيا.

قيل لإبراهيم الخليل عليه السلام: بأي شيء اتخذك الله خليلًا؟ قال: بأني ما خُيِّرتُ بين أمرين إلا اخترت الذي لله، وما اهتممتُ لما تكفَّل لي به، وما تغدَّيتُ وما تعشيت إلا مع ضيف.

واعترض حديثٌ فقال: أنشدني بيتَي ابن غسَّان البصري في حديث بَخْتِيار – يعني عز الدولة – فأنشدته:

أقــام علــى الأهــواز ســتين ليلــةً   يــدبر أمــر الملــك حتــى تــدمَّرا

يـــدبر أمـــرًا كـــان أولُـــه عمًـــى   وأوســـطه ثُكْـــلًا وآخـــرُه خَـــرَا

فقال: ما أعجب الأمور التي تأتي بها الدهور! عُدْ إلى قراءتك. فعدتُ وقرأتُ:

رُوي في الحديث: لا تأكلوا ذِرْوة الثَّريد، فإن البركة فيها.

وقال أعرابي: اللبن أحد اللحمين، ومَلْك العجين أحد الرَّيْعَين، والمَرَقة أحد اللحمَين، والبلاغة أحد السَّيْفين،(٦٦) والتمنِّي أحد السُّكْرَين. (٦٧)

أراد مُزَبِّد أضحيةً فلم يجدها، فأخذ ديكًا ليضحي به، فوجه إليه جيرانُه شاةً شاةً حتى اجتمع عنده سبع شِياه، فقال: ديكي أفضل عند الله من إسحاق، لأنه فُدِي بكبش وديكي بسبعة.

الكُتَل: اللحم،(٦٨) والعَيْمَة: (٦٩) شهوة اللبن، والقَرَم: شهوة اللحم.

وقال ﷺ: «من أحب أن يرقَّ قلبه فليكثر من أكل البَلَس.» قيل: هو التين.

وقال أعرابي:

يمُـــنُّ علـــيَّ بـــالتزويج شـــيخي   وفـــي التـــزويج لـــي هـــمٌّ وشـــغْلُ

وكنـــتُ مـــن الهمـــوم رَخِـــيَّ بـــالٍ   فحـــلَّ مـــن الهمـــوم علـــيَّ ثِقْـــل

فقلــت لــه: مننــتَ بغيــر مــنٍّ   ومــا لــك بالــذي أسـديتَ فضــل

أعُــزَّابَ العشــيرة لــو علِمــتمْ   بحــالي حــين لــي بيــتٌ وأهــل

علِمــتمْ أنكــم فــي حــال عــيشٍ   رَخِــيٍّ مــا لَــه يــا قــومُ عَــدْلُ

قال إسحاق الموصلي: أملى بعض الفقهاء بالكوفة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كره السَّمَر إلا في الفقه، يريد كثرة السمر إلا في الفقه.

قيل لميسرة الرأْس: [٧٠] ما أكثرُ ما أكلتَ؟ قال: مائة رغيفٍ بكَيْلَجة مِلح. فقيل: هذا أكلك في بيتك؟ قال: آكل في بيتي رغيفين، وأَحْتَشي[٧١] إلى الليل فِشْل الخيل.

تناول الفضل بن العباس تفاحةً فأكلها، فقيل: ويحك، تأكل التحيات؟! فقال: والصلوات والطيبات.

يقال: الطُّعْمة: الكسب. ويقال: جئتُ بالطُّعْمة. والطُّعْم: الطعام. والطُّعْم: الذوق. وهذه الأرض طُعْمةٌ لك وطَعْمَة.

قال إسحاق: كنت يومًا عند أحمد بن يوسف الكاتب، فدخل أحمد بن أبي خالد الكاتب ونحن في الغناء، فقال: والله ما أجد شيئًا مما أنتم فيه. قال إسحاق: فهان عليَّ وخفَّ في عيني. فقلت له كالمستهزئ به: جُعلتُ فداك! قصدتَ إلى أرق شيء خلقه الله وألينه على الأذن والقلب، وأظهره للسرور والفرح، وأنفاه للهمِّ والحُزن، وما ليس للجوارح

منه مئونةٌ غليظة، وإنما يَقْرَع السمعَ وهو منه على مسافة فتَطْرَب له النفس؛ فذمَمْته؟! ولكنه كان يقال: لا يجتمع في رجل شهوةُ كل لذة. وبعد، فإن شهوة كل رجلٍ على قدر تركيبه ومزاجه. قال: أجل، أمَّا أنا فالطعام الرقيق أعجب إليَّ من الغناء. فقلت: إي والله، ولحمُ البقر والجواميس والتيوس الجبلية بالباذنجان المبزَّر أيضًا تُقدمه؟ فقال: [الغناء] (٧٢) مختلَفٌ فيه، وقد كرهه قوم. قلت: فالمُخْتلَف(٧٣) فيه أَطْلِقْه لنا حتى تُجْمِعوا على تحريمه، أعلمتَ – جُعلتُ فداك – أن الأوائل كانت تقول: من سمع الغناء [على] حقيقته مات؟ فقال: اللهم لا تُسْمِعْناه على الحقيقة إذن فنموت! فاستظرفتُه في هذه اللفظة، وقدَّموا إليه الطعام فشُغِل عن ذم الغناء.

قال سعيد بن أبي عروة: نزل الحَجَّاج في طريق مكة فقال لحاجبه: انظر أعرابيًّا يتغدى معي وأسأله عن بعض الأمر. فنظر الحاجب إلى أعرابيٍ بين شَمْلَتَين فقال: أجب الأمير. فأتاه فقال له الحجاج: إذن فتغدَّ معي. فقال: إنه دعاني من هو أولى منك فأجبتُه. قال: ومن هو؟ قال: الله عز وجل دعاني إلى الصوم فصمت. قال: أفي هذا اليوم الحار؟ قال: نعم، صمتُه ليومٍ هو أشد منه حرًّا. قال: فأفطر وصُمْ غدًا. قال: إن ضمنتَ لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إليَّ. قال: فكيف تسألني عاجلًا بآجل لا تقدر عليه؟ قال: إنه طعام طيب. قال: إنك لم تطيبه ولا الخبَّاز، ولكن العافية طيَّبَتْه. ولم يفطر، وخرج من عنده.

قال أعرابي: هذا الطعام مَطْيَبةٌ للنفس، مَحْسَنةٌ للجسم.

قال أبو حاتم: حدثنا الأصمعي قال: قال أبو طفيلة الحِرْمَازِيُّ: [٧٤] قال أعرابي: ضِفْتُ رجلًا فأتانا بخبزٍ من بُرٍّ كأنه مناقير النِّغْران،[٧٥] وأتانا بتمرٍ كأعناق الوِرْلان[٧٦] يَوْحَل فيه الضرس.

وقال آخر، ونظر إلى رجلٍ يأكل بالعين والفم واليد والرأس والرجل: لو سألتَه عن اسمه لمَا ذكره، ولو طلع ولدُه الغائب عليه ما عرَفه:

يلعب بالخمسة في قصعةٍ ... لعب أخي الشِّطْرَنج بالشاهِ

قال ابن الأعرابي: كان المُحَسِّن الضبي[٧٧] شَرِهًا على الطعام، وكان دميمًا، فقال له زياد ذات يوم: كم عيالُك؟ قال: تسع بنات. قال: فأين هن منك؟ فقال: أنا أحسن منهن، وهن آكَلُ مني. فضحك. وقال: جاز[٧٨] ما سألتَ لهن. وأمر له بأربعة آلاف درهم، [فقال:]

إذا كنتَ مرتاد الرجال لنفعهم ... فنادِ[٧٩] زيادًا أو أخًا لزيادِ

يُجِبْكَ امرُؤٌ يعطي على الحمد مالَه ... إذا ضن بالمعروف كلُّ جوادِ

وقال سِنان بن أبي حارثة:

ثُمَّةَ أُطْعِمُ زادي غيرَ مدَّخرٍ ... أهلَ المحلَّة من جارٍ ومن جادي[٨٠]

قد يعلم القوم إذ طال اغترابُهمُ ... وأَرْملوا الزادَ أنِّي مُنْفِدٌ زادي

وقال السَّفَّاح بن بكر:

والمالئُ الشِّيزَى[٨١] لأضيافه ... كأنها أعضادُ حوضٍ بِقاعْ

لا يخــــرج الأضـــيافُ مـــن بيتِـــه إلا وهُـــــم منــــــه رِواءٌ شِـــــباعْ

أورد أعرابي إبلَه فأبى أهل الماء أن يجيزوه، وقالوا: إبلك كثيرة، فإن أوردتَ فشَرْطٌ أن تقف بعيدًا عن الماء وتسقي ما جاءك منها، ولا تُحَاجِزْ[٨٢] بها. قال: أفعل. وأنشأ يقول:

ربَّ طبـــــيخ مِرْجَـــــلٍ مُلهْـــــوجِ يَسْـــــلُتُه القـــومُ ولمَّـــا يَنْضَـــج

حُشَّ بشيء مِن ضِرامِ العَرْفَجِ[٨٣]

فانقضَّت الإبل كلُّها على الماء فشربت.

قال الشاعر:

شـربُ النبيـذ على الطعام قليلُه[٨٤] فيـــه الشـــفاء وصـــحة الأبــــدانِ

وإذا شــــــربتَ كثيــــــرَه فكثيــــــرُه مُـــزج عليـــك ركائـــبَ الشـــيطانِ

فتكـــونَ بـــين الضـــاحِكِين كبُومَـــةٍ عميـــاءَ بـــين جماعـــة الغربـــان

فاحـــذر بجُهـــدك أن تُـــرى كجَنِيبَـــةٍ بعـــد العِشـــاء تُقـــاد بالأَرْســـانِ

قال حمزة المصنِّف في بعض كتبه: قال النبي ﷺ لسلمان الفارسي أنِ اتَّخذْ لنا سورًا، أي طعامًا كطعام الوليمة، وهي فارسية.

قال شيخنا أبو سعيد السيرافي: أخطأ هذا المتأوِّل، وإنما أراد النبي ﷺ أن سلمان اتَّخذ لنا خندقًا يوم الأحزاب، لأنه حَضَّ٨٥ على ذلك، وليس ذا من ذاك إلا باللفظ.

وقال جُعَيْفِران المُوَسْوس في وصف عصيدة:

وماءِ عصيدة حمراءَ تحكي إذا أبصرتَها ماءَ الخلُوق[٨٦]
تزلَّ عن اللَّهَاةِ تمرُّ سهلًا وتَجري في العظام وفي العروقِ

قال الحسن بن سهل: أشياءُ تذهب هباءً: دينٌ بلا عقل، ومالٌ بلا بذل، وعشقٌ بلا وصل. فقال حُميد: بقي عليه مائدةٌ بلا نَقْل،[٨٧] ولحسةٌ بلا فضل.

قيل لصوفي: ما حدُّ الشِّبع؟ قال: الموت.

وقيل لآخر: ما حدُّ الشبع؟ قال: آكُل حتى يقع عليَّ السُّبات فأنام على وجهي، وتتجافى أطرافي عن الأرض.

وقيل لآخر: ما حدُّ الشبع؟ قال: أن أُدخِل إصبَعي في حلقي فيَصِل إلى الطعام.

قال يعقوب: أصبحتُ خالفًا لا أشتهي الطعام. وخُلوف البَطْن تغيُّره.

ويقال: مَغَسَني بطني، وهو المَغْس، ورجل مَمْغُوس.

ويقال: غَمَزَنِي[٨٨] بطني ومَلَكَني.

والعامة تقول: كلُّ ما في القِدْر تُخرجه المِغْرَفة.

ورجل مُقَرْضِبٌ،[٨٩] وقُراضِب، وقِرْضَاب: إذا كان أكولًا، وكذلك السيف واللص، قال الشاعر:

وليس يردُّ النفْسَ عن شهواتها — من القوم إلا كلُّ ماضي العزائمِ

ومرَّ ابن عامرٍ على عامر بن عبد القيس وهو يأكل بَقْلًا بملح، فقال: لقد رضيتَ باليسير. فقال: أرضَى مني باليسير من رضي بالدنيا عِوَضًا عن الآخرة.

قال عبد الملك بن مروان: لا تستاكنَّ إلا عرْضًا، ولا تأكلنَّ إلا عضًّا، ولا تشربنَّ إلا مصًّا، ولا تركبنَّ إلا نصًّا،[٩٠] ولا تعقِدنَّ[٩١] إلا وَصًّا.

ويقال: ماءٌ قَراح، وخبزٌ قَفار: لا أُدْم معه، وسَوِيقٌ جافٌّ، ولبنٌ صريح: لم يخالطه شيء.

وقال سعيد بن سلمة: شيئان لا تشبع منهما ببغداد: السمك والرُّطب.

قال أعرابي: أكلتُ «فِرْسِكَة»[٩٢] وعليَّ خَوْخَة، فجاء غلام حَزَوَّرٌ[٩٣] فنظر حُرَّني.[٩٤]

الفرسكة: الخَوخة المقدَّدة. والخَوْخة: القميص الأخضر بطِّن بفَرْوٍ. والحرة:[٩٥] الأذُن.

قيل لحاتم الأصم: بم رُزِقت الحكمة؟ قال: بخَلَاوة البطن، وسخاوة النفس، ومكابدة الليل.

وقال شقيق البلخي: العبادة حِرفة، وحانوتُها الخَلْوة، وآلتُها الجوع.

قال لقمان: إذا امتلأت المَعِدة نامت الفكرة، وخَرِست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال عمر: لولا القيامة لشاركناكم في لِين عيشكُم.

وقال بعض العرب: أقلِل طعامَك تَحمد منامك.

قال يحيى بن مُعاذ: الشبع يُكْنى بالكفر.

وقال غيره: الجوع يُكْنى بالرحمة.

وقال أعرابي:

تحيَّـــزُ منـــي خيفـــةً أن أضِـــيفها   كما انحازت الأفعى مخافةَ ضاربِ

وذكر المهلَّب اللحم [فقال]: إذا التقى الوارد والغابر فتوقَّع الفساد.

هوامش

(١) في «ب»: «أهلكت»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا. يقال: حص الشعر ونحوه، إذا استأصله.

(٢) في «ب»: «وقعت».

(٣) الحواء: جماعة البيوت.

(٤) الجحيش: من قولهم: رجل جحيش المحل، إذا نزل ناحية عن الناس ولم يختلط بهم. ويريد بعد ذلك المنزل وانعزاله عن منازل ذلك الحي.

(٥) طوالة حسانة: أي طويلة حسنة.

(٦) في «ب»: دفعت إليه. والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٧) فلانة: كناية عن اسم بعض نياقه. وفي «أ»: الغلابة، وهو تحريف.

(٨) تستر: مدينة عظيمة بخوزستان. ومهرجان قذق: كورة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة، من نواحي الجبال. وغير هذين من البلاد المذكورة هنا معروف فلا مقتضى للتعريف به.

(٩) الجمة: مجتمع شعر الرأس، وهي أكبر من الوفرة.

(١٠) في «ب»: «فلما رأى ذلك».

(١١) الصعل: الدقيق الرأس.

(١٢) فوهة الشيء: أعلاه، يريد أعلى السنام. وفي الأصول ما يشبه في الرسم كلمة عرقوبها، ولا مقتضى لكشف عرقوب الناقة هنا.

(١٣) اجتمل الشحم: أذابه في النار.

(١٤) قحل على عظمي: أي يبس من وهج الحر وبُعد عهده بالماء.

(١٥) الشن: المزادة اليابسة الخلقة.

(١٦) في «أ»: «عليه».

(١٧) عامر بن الطفيل هو ابن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، وهو ابن عم لبيد.

(١٨) العراق: العظم الذي أُخذ ما عليه من اللحم.

(١٩) يريد بهذه العبارة وصف ما في القدر باليبس والصلابة كبيادق الشطرنج.

(٢٠) المزملة: جرة أو خابية خضراء في وسطها ثقب فيه قصبة من الفضة أو الرصاص يُشرب منها.

(٢١) حمى الربع هي التي تأخذ يومًا وتدع يومين، ثم تجيء في اليوم الرابع.

(٢٢) الجوذاب: طعام يُتَّخذ من سكر وأرز ولحم، وهو فارسي.

(٢٣) في «ب»: «إليك».

(٢٤) القوصرة: وعاء من قصب يُرفع فيه التمر من البواري. ويُنسب هذا الشعر إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٢٥) في رواية: «طوبى لمن كانت ... إلخ.» والمزخة: زوجة الرجل، لأنها يزخها، أي يجامعها. والفخة: نومة الغداة، وقيل: نومة التعب. وفي الأصل: القخة بالقاف، وهو تصحيف.

(٢٦) الدوخلة: سقيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب، وهي كالزنبيل. والملة: المرة.

(٢٧) في رواية: «طوبى لمن كانت ... إلخ.» والهرشفة: خرقة يُنشف بها ماء المطر من الأرض ثم تُعصر في الإناء، وإنما يُفعل ذلك إذا قل الماء. ذكره صاحب اللسان وأورد هذا البيت شاهدًا عليه.

(٢٨) في الأصل: «ومنشر»، وهو تحريف. والنشفة: خرقة تُنشف بها اليد.

(٢٩) الكرديدة: القطعة العظيمة من التمر. وهو ثان جيده: أي وهو في راحة ودعة.

(٣٠) الخشكنان: الخبز اليابس، وهو المعروف عندنا بالبسكويت. انظر المعجم الفارسي الإنجليزي لاستاينجاس.

(٣١) الطاعم: أي ذو الطعام، أو المطعوم.

(٣٢) في كلتا النسختين: «مزيد» بالياء المثناة، وهو تصحيف. ومزبد بالموحدة هو صاحب النوادر المعروف.

(٣٣) الصحنا والصحناة، ويُمدَّان ويُقصَران: إدام يُتخذ من السمك الصغار، مشهٍّ مصلح للمعدة.

(٣٤) القطيعاء: التمر السهريز، والتمر السهريز: الصغير، وهو أردأ التمر، وقيل هو البسر قبل أن يدرك، والبرني نوع جيد من التمر. والجلة: وعاء يُتَّخذ من الخوص يوضع فيه التمر. والدسم: الغلاظ.

(٣٥) الأوتكى هو التمر السهريز، وهو والقطيعاء التي تقدم شرحها في الحاشية السابقة واحد. وفي المخصص: «اللؤم» مكان «البخل». وفي الأصل: «الأربكى» مكان «الأوتكى»، وهو تحريف.

(٣٦) في الأصل: «الحشيش»، وهو تصحيف.

(٣٧) الشبرم: نبات له حب كالعدس، وأوراقه تشبه الطرخون. وفي النهاية لابن الأثير عن أم سلمة أنها شربت الشبرم ... إلخ، فقال: إنه حارٌّ حارٌّ. وفسر الشبرم بأنه حب كالحمص يُطبخ ويُشرب ماؤه للتداوي، وقيل إنه نوع من الشيح. أخرجه الزمخشري عن أسماء بنت عميس.

(٣٨) السنا: نبات معروف في الأدوية، له حمل إذا يبس وحركته الريح سمعت له زجلًا، الواحدة سناة. وعرفه بعضهم بأنه نبات يشبه الحناء، زهره إلى الزرقة، وحبه مفرطح إلى الطول، عريض الأوراق، وأجوده الحجازي، ويُعرف بسنا مكة، وقد يقال له السنا المكي. ونوع آخر ينبت ببلاد الروم، ويقال له السنا الرومي.

(٣٩) في الأصل: «البطيح» بالحاء المهملة، وهو تصحيف.

(٤٠) وردت هذه الألفاظ التي تحت هذا الرقم في الأصل بالحاء والسين المهملتين، وهو تصحيف، والتصويب عن كتب اللغة.

(٤١) في الأصل: «كباة» بالباء الموحدة، وهو تصحيف، والتصويب عن كتب اللغة.

(٤٢) أقدح الرجل: أي ضرب بالقداح في الميسر.

(٤٣) كذا ورد هذا البيت في اللسان. والذي في الأصل: «مشي الأناقي» مكان قوله: مثنى الأيادي، وهو تحريف. والأدم بضمتين: هو الأدم بتسكين الدال، أي ما يؤتدم به. يقول: إنه يفوز بهذا اللحم فيطعمه المساكين.

(٤٤) في الأصل: الثريم، وهو تصحيف، والتصويب عن كتب اللغة.

(٤٥) لم ترد هذه العبارة في «أ» المنقول عنها وحدها هذا الكلام، غير أنها تكملة يقتضيها سياق الكلام أخذًا من كتب اللغة، وواضح أن الكلام بدونها يكون ناقصًا.

(٤٦) ذو نزل: أي ذو بركة.

(٤٧) في الأصل: «العتبي»، وهو تصحيف.

(٤٨) في الأصل: «الحرش»، وهو تصحيف في المواضع الثلاثة التي تحت هذا الرقم.

(٤٩) الجشن: لفظ فارسي معناه مجتمعات الناس في الأعياد والولائم ونحو ذلك، كما في المعجم الفارسي الإنجليزي لاستاينجاس. ولم نجد للمساور معنى يناسب السياق، فلعله تحريف لم نهتد إلى وجه الصواب فيه. وفي الأصل: «ومن» مكان «زمن»، وهو تحريف.

(٥٠) في الأصل: «وبرد» مكان «وورد»، وهو تحريف.

(٥١) في الأصل: «ومن كانت المضار»، وفيه تحريف لا يخفى. والمضائر: جمع مضيرة، وهي لحم يُطبخ باللبن المضير، أي الحامض، وقد يخلطون به الحليب. أما كيفية عملها فقد ذُكرت في كتب الأطعمة فانظرها.

(٥٢) الأنجذان: نبات له أصل أغلظ من الإصبع، وقرون كقرون اللوبياء فيها حبٌّ كالعدس، وهو فارسي معرَّب.

(٥٣) ينقعهم: أي يرويهم. وفي الأصل: «ينفعهم» بالفاء. ولعل صوابه ما أثبتنا أخذًا من التشبيه.

(٥٤) ضبطنا هذا اللفظ بفتح الجيم وبالزاي بعدها لما تقتضيه النكتة الآتية. وهذا اللفظ بالفارسية يُنطق بالذال أو الزاي كما في معجم استاينجاس، بمعنى الطعام الذي يُتخذ من اللحم والأرز والسكر والبندق.

(٥٥) أراد بالكاف هنا الكاف الفارسية وهي تنطق جيمًا مصرية، ويشير إلى لفظ جوز بالفارسية وهو الفساء، فهو ينفره من هذا الطعام بهذه النكتة.

(٥٦) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «ابن أبي عمرة الشرابي».

(٥٧) المصوص: طعام من لحم يُطبخ ويُنقع في الخل، ويكون من لحم الطير خاصة.

(٥٨) الهلام كغراب: طعام من لحم عجل بجلده، وقيل: مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن.

(٥٩) التمتين: تقوية الطعام بالأفاويه.

(٦٠) في «أ»: «يؤثر».

(٦١) في «أ»: «بالتمييز»، وهو تحريف.

(٦٢) الشطبة: الجارية الحسناء الغضة، وقيل: الطويلة.

(٦٣) لم ترد هذه الكلمة في الأصل، والسياق يقتضيها أخذًا من الجواب.

(٦٤) في الأصل: «تمت مت»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن المصادر التي بين أيدينا، ونصه فيها. وفي حديث عمر أنه جاءه رجل فقال له: هلكت. فقال له: أهلكت وأنت تنث كما ينث الحميت؟

(٦٥) في الأصل: «والشمال»، وهو تحريف، والتصويب عن يتيمة الدهر.

(٦٦) في الأصل: الشيئين، وهو تحريف، والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٦٧) في الأصل: «السلوين»، وهو تحريف لا معنًى له.

(٦٨) الكتل: اللحم، أي القطع منه، الواحدة كتلة. وفي الأصل: «الكبل» بالباء، وهو تصحيف.

(٦٩) وردت هذه الكلمة في الأصل مضطربة الحروف تتعذر قراءتها، وما أثبتناه عن كتب اللغة.

(٧٠) في «ب»: «التراس».

(٧١) في كلتا النسختين: «وأتجشأ»، وهو تحريف.

(٧٢) لم ترد هذه الكلمة في كلتا النسختين، والسياق يقتضيها.

(٧٣) في كلتا النسختين: «بالاختلاف»، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٧٤) في الأصل: «الجرماري» وهو تصحيف.

(٧٥) النغران: جمع نغر بضم ففتح، وهو فرخ العصفور أو طائر يشبهه.

(٧٦) الورلان: جمع ورل بالتحريك، وهو دابة شبيهة بالضب.

(٧٧) في «أ»: «المحشى» مكان «المحسن»، وفي «ب»: «الألصبي» مكان «الضبي»، وهو تحريف.

(٧٨) جاز ما سألت: أي نفذ أمرنا به، ومنه قولهم: السرور توقيع جائز، أي نافذ ماضٍ، وفي كلتا النسختين: «جاء».

(٧٩) في «أ»: «فبادر».

(٨٠) الجادي: طالب الجدوى.

(٨١) الشِّيزَى بكسر الشين وفتح الزاي: خشب أسود تُصنع منه القصاع. ويريد هنا نفس القصاع. وأعضاد الحوض: ما شد حوله من البناء. وفي الأصل: «السرى» مكان قوله «الشيزى»، وهو تصحيف.

(٨٢) المحاجزة: الممانعة.

(٨٣) حش النار: أوقدها. والعرفج: ضرب من النبات سهلي سريع الاتقاد، وهو من شجر الصيف، وهو لين أغبر إلى الخضرة له ثمرة خشناء كالحسك وزهره أصفر ولهبه شديد الحمرة.

(٨٤) في الأصل: «بلية»، وهو تحريف.

(٨٥) في الأصل: «خص»، وهو تصحيف.

(٨٦) في الأصل: «تجلي» مكان «تحكي»، و«الحلوق» مكان «الخلوق»، وهو تحريف. والخلوق: ضرب من الطيب قوامه الزعفران.

(٨٧) النقل: ما يُتنقل به على الطعام.

(٨٨) في الأصل: «عمرني» بالعين والراء المهملتين، وهو تصحيف.

(٨٩) في الأصل: قرضب وقرضب. وما أثبتناه عن كتب اللغة.

(٩٠) النص: الارتفاع.

(٩١) في الأصل: «يقعدن» مكان «يعقدن»، وهو تحريف. وما أثبتناه هو الملائم للوصِّ، وهو الإحكام في العمل.

(٩٢) في الأصل: «الفرشلة» بالشين المعجمة واللام، وهو تحريف لا معنى له، والتصحيح والضبط عن المخصص.

(٩٣) الحزوَّر: الغلام الذي اشتد وقوي وخدم.

(٩٤) في الأصل: «حديتي» بالدال، وهو تحريف.

(٩٥) في الأصل: «الحدية»، وهو تحريف.

الليلة الرابعة والثلاثون

وقال الوزير في بعض الليالي: قد والله ضاق[1] صدري بالغيظ لما يبلغني عن العامة من خوضها في حديثنا، وذكرِها أمورَنا، وتتبُّعها لأسرارنا، وتنقيرها عن مكنون أحوالنا،[2] ومكتوم شأننا، وما أدري ما أصنع بها، وإني لأهُمُّ في الوقت بعد الوقت بقطع ألسنةٍ وأيدٍ وأرجلٍ وتنكيلٍ شديدٍ لعل ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة ويقطع هذه العادة، لحاهم الله! ما لهم لا يقبلون على شئونهم المهمة، ومعايشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولمَ ينقِّبون عما ليس لهم، ويُرْجِفون بما لا يجدي عليهم؟ ولو حققوا ما يقولون ما كان لهم فيه عائدةٌ ولا فائدة، وإني لأعجب من لَهَجهم[3] وشَغَفهم بهذا الخُلُق حتى كأنه من الفرائض المحتومة، والوظائف الملزومة. وقد تكرر منا الزجر، وشاع الوعيد، وفشا الإنكار بين الصِّغار والكبار، ولقد تعايَى عليَّ هذا الأمر وأُغلق دوني بابُه، وتكاثف عليَّ حجابه، والله المستعان.

فقلت: أيها الوزير، عندي في هذا[4] جوابان: أحدهما ما سمعتُ من شيخنا أبي سليمان، وهو من تفوَّق في الفضل والحكمة والتجربة ومحبة هذه الدولة[5] والشفقة عليها من كل هبَّة ودبَّة، والآخر مما سمعتُه من شيخ صوفيٍ، وفي الجوابين فائدتان عظيمتان. ولكن الجملة خَشناء، وفيها بعض الغلظة، والحق مر، ومن توخى الحق احتمل مرارته.

قال: فاذكر الجوابين وإن كانا غليظين، فليس يُنتفع بالدواء إلا بالصبر على بشاعته، وصُدود الطبع عن كراهته.

قلت: أما أبو سليمان فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمن كان الله عز وجل جعله سائسَ الناس، عامتِهم وخاصتهم، وعالمِهم وجاهلِهم، وضعيفِهم وقويِّهم، وراجحِهم وشائلِهم؛ أن يَضْجَر مما يَبلُغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة، منها: أن عقلَه فوق عقولهم، وحلمَه أفضل من حُلُومهم، وصبرَه أتم من صبرهم. ومنها أنهم إنما جُعلوا تحت قدرته، ونيطوا بتدبيره، واختُبروا بتصريفهم على أمره ونهيه، ليقوم بحق الله تعالى فيهم، ويصبر على جهل جاهلهم، ويكونَ عماد حاله معهم الرفق بهم، والقيامَ بمصالحهم. ومنها أن العلاقة التي بين السلطان وبين الرعية قوية لأنها إلهيةٌ، وهي أوشج من الرحم التي تكون بين الوالد والولد، والملِك والدٌ كبير كما أن الوالد ملكٌ صغير، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من الرفق به، والحنوِّ عليه، والرقة له، واجتلاب المنفعة إليه؛ أكثر مما يجب على الولد في طاعة والده، وذلك أن الولد غِرٌّ، وقريب العهد بالكون، وجاهلٌ بالحال، وعارٍ من التجربة، كذلك الرعية الشبيهة بالولد وكذلك الملك الشبيه بالوالد. ومما يزيد هذا المعنى كشفًا، ويُكسبه لطفًا، أن الملك لا يكون ملكًا إلا بالرعية، كما أن الرعية لا تكون رعيةً إلا بالملك، وهذا من الأحوال المتضايفة، والأسماء المتناصفة. وبسبب هذه العلاقة المُحْكمة، والوُصْلَة الوشيجة، ما لهِجَت العامة بتعرف حال سائسها، والناظرِ في أمرها، والمالِك لزمامها، حتى تكون على بيانٍ من رفاهة عيشِها، وطِيب حياتها، ودُرُورِ مواردها، بالأمن[٦] الفاشي بينها،

والعدلِ الفائض عليها، والخيرِ المجلوب إليها، وهذا أمرٌ جارٍ على نظام الطبيعة، ومندوبٌ إليه أيضًا في أحكام الشريعة.

قال: ولو قالت الرعية لسلطانها: لِمَ لا نخوض في حديثك، ولا نبحث عن غيب أمرك؟ ولم لا نسأل عن دينك ونِحْلتك وعادتك وسيرتك؟ ولم لا نقف على حقيقة حالك في ليلك ونهارك، ومصالحُنا متعلقةٌ بك، وخيراتُنا متوقَّعةٌ من جهتك، ومسرَّتُنا ملحوظةٌ[7] بتدبيرك، ومَساءتُنا مصروفة باهتمامك، وتَظلُّمُنا مرفوعٌ بعزك، ورفاهِيَتُنا حاصلةٌ بحسن نظرك، وجميلِ اعتقادك، وشائع رحمتك، وبليغ اجتهادك؟ ما كان جواب سلطانها وسائسها؟ أما كان عليه أن يعلم أن الرعية مُصيبةٌ في دعواها التي بها استطالت؟ بلى والله، الحقُّ معترَفٌ به وإن شَغَب الشاغب، وأعْنَت المُعْنت.

قال: ولو قالت الرعية أيضًا: ولِمَ لا تبحثُ عن أمرك؟ ولِمَ لا تسمع كلَّ غثٍّ وسمين منا، وقد ملكت نواصينا، وسكنتَ ديارنا، وصادرْتَنا على[8] أموالنا، وحُلْت بيننا وبين ضِياعنا، وقاسمْتنا مواريثنا، وأنسيْتَنا رَفَاغَة[9] العيش، وطِيبَ الحياة، وطُمأنينة القلب، فطُرُقنا مَخُوفة، ومساكننا مَنْزُولة،[10] وضِياعُنا مُقْطَعة، ونِعَمنا مسلوبة، وحَريمُنا مُستباح، ونَقدنا زائف، وخَراجُنا مُضاعف، ومعاملتُنا سيئة، وجُنديُّنا متغطرس، وشُرطيُّنا منحرف، ومساجدُنا خَرِبة، ورُفوفُها مُنتهَبة، ومارِسْتاناتُنا خاوية، وأعداؤنا مُسْتكْلِبة، وعيوننا سخينة، وصدورُنا مَغِيظة، [وبليَّتنا متصلة]،

وفرحُنا معدوم؟ ما كان الجواب أيضًا عما قالت وعما لم تقل، هيبةً لك، وخوفًا على أنفسها من سطوتك وصَوْلتك؟

وحكى لنا في عُرْض هذا الكلام أنه رُفِع إلى الخليفة المعتضد أن طائفةً من الناس يجتمعون [بباب الطَّاق ويجلسون] في دُكَّان شيخٍ تَبَّان، ويخوضون في الفضول والأراجيف وفنونٍ من الأحاديث، وفيهم قومٌ سَراة وتُنَّاء[١١] وأهل بيوتاتٍ، سوى من يَسْتَرِق السمع منهم من خاصة الناس، وقد تفاقم فسادهم وإفسادهم. فلما عرف الخليفة ذلك ضاق ذرعًا، وحَرِج صدرًا، وامتلأ غيظًا، ودعا بعُبيد الله بن سليمان، ورمى بالرَّقِيعة١٢ إليه، وقال: انظر فيها وتفهَّمها. ففعل، وشاهد مِن تربُّد[١٣] وجه المعتضد ما أزعج ساكنَ صدره، وشرَّد آلِفَ صبْره، وقال: قد فهمتُ يا أمير المؤمنين. قال: فما الدواء؟ قال: تَتقدَّم بأخذهم وصَلْب بعضهم، وإحراق بعضهم، وتغريق بعضهم، فإن العقوبة إذا اختلفت كان الهول أشدَّ، والهيبةُ أَفْشَى، والزجر أنجع، والعامةُ أخوف. فقال المعتضد – وكان أعقل من الوزير: والله لقد برَّدتَ لهيبَ غضبي[١٤] بفَوْرَتِك هذه، ونقلتَني إلى اللين بعد الغِلظة، وحَطَطْتَ عليَّ الرفق من حيث أشرتَ بالخُرْق، وما علمتُ أنك تستجيز هذا في دينك وهدْيك ومروءتك. ولو أمرتُك ببعض ما رأيتَ بعقلك وحزمك، لكان من حسن المؤازرة، ومبذول النصيحة، والنظر للرعية الضعيفة الجاهلة؛ أن تسألني[١٥] الكفَّ عن الجهل، وتبعثَني على الحلم، وتحبِّبَ إليَّ الصفح وتُرغِّبني في فضل الإغضاء على هذه الأشياء. وقد ساءني جهلك بحدود العقاب، وبما تُقابَل به هذه الجرائر، وبما يكون كُفْئًا للذنوب. ولقد عصيتَ الله بهذا الرأي، ودللتَ

على قسوة القلب، وقلة الرحمة، ويُبْس الطينة، ورِقَّة الديانة، أما تعْلمُ أن الرعية وديعة الله عند سلطانها، وأن الله يسائله عنها: كيف سُسْتها؟ ولعله لا يسألها عنه، وإن سألها فلِيؤكِّد الحجة عليه منها، ألا تدري أن أحدًا من الرعية لا يقول ما يقول إلا لظلمٍ لَحِقه أو لَحِق جارَه،[١٦] وداهيةٍ نالتْه أو نالتْ صاحبًا له؟ وكيف نقول لهم: كونوا صالحين أتقياء مقبلين على معايشكم، غيرَ خائضين في حديثنا، ولا سائلين عن أمرنا، والعرب تقول في كلامها: «غلبَنا السلطانُ فلبِس فَرْوتنا، وأكل خُضْرتنا»، وحَنَق المملوك على المالك معروف؟ وإنما يُحتمل السيد على صروف تكاليفه، ومكارهِ تصاريفه، إذا كان العيش في كَنَفِه رافِغًا، والأمل فيه قويًّا، والصَّدْر عليه باردًا، والقلبُ معه ساكنًا. أتظن أن العمل بالجهل ينفع، والعُذْرَ به يَسَع؟ لا والله ما الرأيُ ما رأيت، ولا الصواب ما ذكرْتَ، وجِّهْ صاحبَك وليكن ذا خبرةٍ ورفق، ومعروفًا بخيرٍ وصدقٍ، حتى يعرف حال هذه الطائفة، ويقف على شأن كل واحدٍ منها في معاشه، وقدر ما هو متقلِّبٌ فيه ومنقلِبٌ إليه، فمن كان منهم يصلح للعمل فعلِّقْه به، ومن كان سيئ الحال فصِلْه من بيت المال بما يعيد نَضْرَةَ حاله، ويُفِيدُه طمأنينة باله. ومن لم يكن من هذا الرهط، وهو غنيٌّ مكفِيٌّ، وإنما يُخرجه إلى دكان هذا التَّبَّان البَطَر والزهو؛ فادْع به، وانصحه، ولاطفه، وقل له: إن لفظَك مسموع، وكلامَك مرفوع، ومتى وقف أمير المؤمنين على كُنْه ذلك منك لم تجدْك إلا في عَرْصَة المقابر، فاستأنفْ لنفسك سيرةً تسلم بها من[١٧] سلطانك، وتُحمَد عليها عند إخوانك، وإياك أن تجعل نفسك عِظَةً لغيرك بعدما كان غيرُك عظةً لك! ولولا أن الأخذ بالجريرة الأولى مخالفٌ

للسيرة المُثْلى، لكان هذا الذي تسمعه ما تراه، وما تراه تود أنك لو سمعتَه قبل أن تراه.

فإنك يا عُبيد الله إذا فعلت ذلك فقد بالغتَ في العقوبة، وملكتَ طرَفَي المصلحة، وقمتَ على سواء السياسة، ونجوتَ من الحَوْب والمأثم في العاقبة.

قال: وفارق الوزير حضرة [الخليفة]، وعمل بما أُمر به على الوجه اللطيف، فعادت الحال ترِفُّ بالسلامة العامة، والعافية التامَّة. فتقدَّمَ إلى الشيخ التَّبَّان برفع حال من يقعد عنده حتى يواسَى إن كان محتاجًا، ويُصرَّف إن كان متعطِّلًا، ويُنصح إن كان متعقِّلًا.

فقال الوزير: ما سمعتُ مثل هذا قط، وما ظننتُ أن الخطب في مثل هذا يبلغ هذا القدر، فهات الجواب الآخر الذي حفظتَه عن الصوفي. فقلتُ: إن كان هذا كافيًا فإن ذلك فضل.

فقال: هكذا هو، وإن فيما مر لكفاية وما يَزيد على الكفاية، ولكنَّ الزيادة من العلم داعيةٌ إلى الزيادة من العمل، والزيادة من العمل جالبة الانتفاع بالعلم، والانتفاع بالعلم دليلٌ على سعادة الإنسان، وسعادةَ الإنسان مقسومةٌ على اقتباس العلم والتماس العمل، حتى يكون بأحدهما زارعًا وبالآخر حاصدًا، وبأحدهما تاجرًا وبالآخر رابحًا.

فوصلت الحديثَ وقلت: حدثني شيخ من الصوفية في هذه الأيام قال: كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة، وقد اشتعلتْ خراسان بالفتنة، وتبَلْبلَتْ دولة آل سامان بالجور وطول المدة؛ فلجأ محمد بن إبراهيم صاحبُ الجيش إلى قايين[18] وهي حصنُه ومعقله، وورد أبو العباس صاحبُ جيش [آل] سامانَ نيسابور بعِدَّةٍ عظيمة، وعُدَّةٍ عميمة، وزينةٍ فاخرة، وهيئةٍ باهرة. وغلا السِّعر، وأُخِيفت السبل، وكثُر الإرجاف، وساءت الظنون، وضجَّت العامة، والتَبَس الرأي، وانقطع الأمل، ونَبَح كلْبٌ كلِبٌ من كل زاوية، وزأر كلُّ أسد من كل أَجَمَة، وضَبَحَ كلُّ ثعلبٍ من كل تَلْعَة.

قال: وكنا جماعةً غرباء نأوي إلى دُوَيْرة[19] الصوفية لا نَبرحها، فتارةً نقرأ، وتارةً نصلي، وتارةً ننام، وتارةً نَهْذي، والجوع يعمل عمله، ونخوض في حديث آل سامان، والواردِ من جهتهم إلى هذا المكان، ولا قدرة لنا على السِّيَاحة لانسداد الطرق، وتَخَطُّفِ الناس للناس، وشمول الخوف، وغلبة الرعب. وكان البلد يتَّقد نارًا بالسؤال والتعرُّف والإرجاف بالصدق والكذب، وما يقال بالهوى والعصبية، فضاقت صدورُنا، وخبُثتْ سرائرنا،[20] واستولى علينا الوسواس، وقلنا ليلةً: ما ترَوْن يا صحابنا[21] [ما] دُفِعْنا إليه من هذه الأحوال الكريهة؟ كأنا والله أصحاب نَعَمٍ وأرباب ضِياعٍ نخاف عليها الغارة والنهب، وما علينا من ولاية زيدٍ وعزل عمرو وهلاك بكر ونجاة بِشْر، نحن قوم قد رضينا في هذه الدنيا العسيرة ولهذه الحياة القصيرة بكِسرةٍ يابسة، وخِرقةٍ بالية، وزاويةٍ من المسجد مع العافية من بلايا طُلَّاب الدنيا. فما هذا [الذي] يعترينا من هذه الأحاديث التي

ليس لنا فيها ناقةٌ ولا جمل، ولا حظٌ ولا أمل، قوموا بنا غدًا حتى نزور أبا زكريَّاء الزاهد، ونظلّ نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه، ساكنين معه، مقتدين به. فاتفق رأينا على ذلك، فغدونا[٢٢] وصرنا إلى أبي زكرياء الزاهد، فلما دخلنا رحَّب بنا وفرح بزيارتنا، وقال: ما أشوقني إليكم،[٢٣] وما ألْهَفَني[٢٤] عليكم! الحمد لله الذي جمعني وإياكم في مقامٍ واحد، حدِّثوني ما الذي سمعتم، وماذا بلغكم من حديث الناس، وأمر هؤلاء السلاطين، فرِّجوا عني وقولوا لي ما عندكم، فلا تكتموني شيئًا فما لي والله مرعًى في هذه الأيام إلا ما اتصل بحديثهم، واقترن بخبرهم. فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد، دُهِشْنا واستوحشنا، وقلنا في أنفسنا انظروا من أي شيء هربنا،[٢٥] وبأي شيء عَلِقْنا، وبأي داهيةٍ دُهِينا. قال: فخفَّفنا الحديثَ وانسللنا، فلما خرجنا قلنا: أرأيتم ما بُلينا به، وما وقعنا عليه إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ؟ ميلوا بنا إلى أبي عمرو الزاهد فله فضلٌ وعبادة وعلمٌ وتفرُّدٌ في صومعته، حتى نقيم عنده إلى آخر النهار، فقد نبا بنا المكان الأول، وبَطَل قصدنا فيما عزمنا عليه من العمل. فمشينا إلى أبي عمرو الزاهد واستأذنَّا فأذن لنا، ووصلْنا إليه فسُرَّ بحضورنا، وهَشَّ لرؤيتنا، وابتهج بقصدنا، وأعظم زيارَتنا، ثم قال: يا أصحابنا، ما عندكم من حديث الناس، فقد والله طال عطشي إلى شيء أسمعه، ولم يدخل عليَّ اليومَ أحدٌ فأستخبره، وإن أذني لدى الباب لأسمع قرْعَة أو أعرف حادثة؟ فهاتوا ما معكم وما عندكم، وقُصُّوا عليَّ القصة بفصِّها ونصها، ودعوا التورية والكناية، واذكروا الغثَّ والسمين، فإن الحديث هكذا يطيب، ولولا العظم ما طاب اللحم، ولولا النوى ما

حلا التمر، ولولا القِشْر لم يوجد اللُّب. فعجبنا من هذا الزاهد الثاني أكثر من عجبنا من الزاهد الأول، وخاطَفْناه الحديث، وودَّعناه وخرجنا، وأقبل بعضنا على بعضٍ يقول: أرأيتم أظرف من أمرنا وأغرب من شأننا؟! انظروا من أي شيء كان تعريجنا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ. وتلدَّدنا وتبلَّدنا وقلنا: يا أصحابنا، انطلقوا إلى أبي الحسن الضرير وإن كان مَضْرِبه(٢٦) بعيدًا فإنا لا نجد سكوننا إلا معه، ولا نظفر بضالَّتنا إلا عنده، لزهده وعبادته وتوحده وشغله بنفسه مع زَمانته في بصره، وورعه، وقلة فكره في الدنيا وأهلها. وطوينا الأرض إليه، ودخلنا عليه، وجلسنا حواليه في مسجده، ولمَّا سمع بنا أقبل على كل واحد منا يلمسه بيده، ويرحب به، ويدعو له ويقرِّب، فلما انتهى أقبل علينا [وقال:] أمن السماء نزلتم عليَّ؟ والله لكأني قد وجدت بكم مأمولي، وأحرزتُ غاية سُولي، قولوا لي غيرَ محتشمين: ما عندكم من أحاديث الناس؟ وما عزم [عليه] هذا الوارد؟ وما يقال في أمر ذلك الهارب إلى قايين؟ وما الشائع من الأخبار؟ وما الذي يتهامس به ناس دون ناس؟ وما يقع في هواجسكم ويَسْتبقُ إلى نفوسكم؟(٢٧) فإنكم بُرُد الآفاق، وجوَّالة الأرض، ولقَّاطة الكلام، ويتساقط إليكم من الأقطار ما يتعذَّر على عظماء الملوك وكبراء الناس.

فورد علينا من هذا الإنسان ما أنسى الأول والثاني، ومما زاد في عجبنا أنا كنا نعُدُّه في طبقةٍ فوق طبقات جميع الناس، فخفَّفنا الحديث معه، وودَّعناه، وخنَسْنا من عنده، وطفِقنا نتلاوم على زيارتنا لهؤلاء القوم لما رأينا منهم، وظهر لنا من حالهم، وازْدريناهم، وانقلبنا متوجِّهين إلى دُوَيْرتنا التي غدونا منها مُسْتَطْرِقِين كالِّين، فلقِينا في الطريق شيخًا من

الحكماء يقال له أبو الحسن العامري، وله كتابٌ في التصوف قد شحنه بعلمنا وإشارتنا، وكان من الجوَّالين الذين نقَّبوا في البلاد واطَّلعوا على أسرار الله في العباد؛ فقال لنا: من أين درجتم؟ ومن قصدتم؟ فأجلسناه في مسجد، وعَصَبْنا حوله، وقصصنا عليه قصتنا من أولها إلى آخرها ولم نحذف منها حرفًا. فقال لنا: في طيِّ هذه الحال الطارئة غيبٌ لا تقفون عليه، وسرٌّ لا تهتدون إليه، وإنما غرَّكم ظنُّكم بالزهاد، وقلتم لا ينبغي أن يكون الخبر [عنهم كالخبر] عن العامة لأنهم الخاصة، ومن الخاصة خاصةُ الخاصة، لأنهم بالله يلوذون، وإياه يعبدون، وعليه يتوكلون، وإليه يرجعون، ومن أجله يتهالكون، وبه يَتَمَالكون.

قلنا له: فإن رأيت يا معلم الخير أن تكشف عنا هذا الغطاء، وترفع هذا السِّتْر، وتعرِّفنا منه ما وهب الله لك من هذا الغيب، لنكون شاكرين، وتكون من المشكورين. فقال: نعم، أما العامة فإنها تلهج بحديث كبرائها وساستها لما ترجو من رخاء العيش، وطيب الحياة، وسعة المال، ودُرُور المنافع، واتصال الجَلَب، ونَفَاق السوق، وتضاعف الربح. فأما هذه الطائفة العارفة بالله، العاملة لله، فإنها مُولَعةٌ أيضًا بحديث الأمراء، والجبابرة العظماء، لتقف على تصاريف قدرة الله فيهم، وجرَيان أحكامه عليهم، ونفوذ مشيئته في مَحَابِّهم ومكارههم في حال النعمة(٢٨)عليهم، والانتقام منهم، ألا ترونه قال جل ثناؤه: حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ؟ وبهذا الاعتبار يستنبطون خَوَافِي حكمته، ويطَّلعون على تتابع نعمته وغرائب نقمته، وها هنا يعلمون أن كل مُلْكٍ سوى مُلك الله زائل، وكلَّ نعيمٍ غير نعيم الجنة حائل، ويصير هذا

كله سببًا قويًّا لهم في الضَّرَع إلى الله، واللِّيَاذ بالله، والخشوع لله، والتوكل على الله، وينبعثون به من حِران الإباء إلى انقياد الإجابة، ويتنبهون من رقدة الغفلة، ويكتحلون باليقظة من سِنَة السهو والبطالة، ويَجِدُّون في أخذ العَتاد، واكتِساب الزاد إلى المعاد، ويعملون في الخلاص من هذا المكان الحَرِج بالمكاره، المحفوف بالرزايا، الذي لم يفلح فيه أحدٌ إلا بعد أن هدَّمه وثَلَمه، وهرب منه، ورحل عنه إلى محلٍّ لا داء فيه ولا غائلة، ساكنُه خالد، ومقيمُه مطمئن، والفائز به منعَّم، والواصل إليه مكرَّم. وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق يَضِحُ لمن رفع الله طرْفه إليه، وفَتَح باب السر فيه عليه، وقد يتشابه الرجلان في فعل وأحدُهما مذموم والآخر محمود، وقد رأينا مصلِّيًا إلى القبلة وقلبُه معلَّق بإخلاص العبادة، وآخرَ إلى جانبه أيضًا يصلي إلى القبلة وقلبُه في طَرِّ[٢٩] ما في كُمِّ الآخَر. فلا تنظروا من كل شيء إلى ظاهره إلا بعد أن تصلوا بنظركم إلى باطنه، فإن الباطن إذا واطأ الظاهر كان توحُّدًا، وإذا خالفه إلى الحق كان وَحْدَةً، وإذا خالفه إلى الباطل كان ضلالةً، وهذه المقامات مرتَّبةٌ لأصحابها، وموقوفةٌ على أربابها، ليس لغير أهلها فيها نفَسٌ، ولا لغير مستحقِّها منها قَبَس.

قال الشيخ الصوفي: فوالله ما زال ذلك الحكيم يحشو آذاننا بهذه وما أشبهها، ويملأ صدورنا بما عنده حتى سُرِرنا،[٣٠] وانصرفنا إلى مُتَعشَّانا وقد استفدنا على يأسٍ منا فائدةً عظيمة لو تمنَّيْناها بالغُرم الثقيل والسعي الطويل لكان الربح معنا، والزيادة في أيدينا.

فلما سمع الوزير هذا عجب وقال: لا أدري أكلام أبي سليمان في ذلك الاحتجاج أبلغ، أم الحكاية عن المعتضد أشْفَى، أم رواية الشيخ الصوفي أطرف! وما علمتُ أن في البحث عن سر الإرجاف هذه اللطيفة الخفية، وهذه الحجة الجلية. وكنت أرى أن الصوفية لا يرجعون إلى ركنٍ من العلم، ونصيبٍ من الحكمة، وأنهم إنما يَهْذُون بما لا يعلمون، وأن بناء أمرهم على اللعب واللهو والمجون.

فقلت: لو جُمع كلام أئمتهم وأعلامهم لزاد على عشرة آلاف ورقة عمن نقف[٣١]عليه في هذه البقاع المتقاربة، سوى ما عند قومٍ آخرين لا نسمع بهم ولا يبلغنا خبرهم. قال: فاذكر لي جماعةً منهم. قلت: الجُنَيد بن محمد الصوفي البغدادي العالم، والحارث بن أسد المحاسِبي، ورُوَيْم، وأبو سعيد الخرَّاز، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو يزيد البِسْطامي، والفتح الموصلي، وهو الذي سُمع وهو يقول: إلى متى تُردِّدُني في سكك الموصل، أما آن للحبيب أن يلقى حبيبَه؟ فمات بعد جمعة.

فقال: هذا عجب. ولقد مر في هذا الفن ما كان فوق حسباني وأكثر مما كان[٣٢] في ظني، وكم من شيء حقيرٍ يُطَّلع منه على أمرٍ كبير!

وقال: أنشِدني شيئًا. فأنشدته قول الشاعر:

رجعتُ على السفيه بفضل حلمي ... وكان تَحَلُّمي عنه لِجَاما

وظَنَّ بيَ السَّفَاهَ فلم يجدني ... أُسافِهُه وقلت له سلاما

فقام يجرُّ رجلَيْه ذليلًا ... وقد كَسَب المذلَّة والملاما

وفضلُ الحلم أبلغُ في سفيهٍ وأَحْرَى أن يَنال به انتقاما

فقال: ما أعجب أمرَ العرب؛ تأمر بالحلم مرةً، والصبر والكظم مرة، وتَحُثُّ بعد ذلك على الانتصاف وأخذ الثأر، وتذُمُّ السَّفَه وقمعَ العدو! وهكذا شأنها في جميع الأخلاق، أعني أنها ربما حضَّتْ على القناعة والصبر والرضا بالميسور، وربما خالفتْ هذا فأخذت تذكر أن ذلك فَسَالةٌ ونقصان هِمَّةٍ ولِينُ عَرِيكةٍ ومَهانَة نفس. وكذلك أيضًا تحثُّ على البسالة(٣٣) والإقدام والانتصار والحمية والجسارة، وربما عَدَلتْ(٣٤) إلى أضداد هذه الأخلاق والسجايا والضرائب والأحوال، في أوقاتٍ يحسن فيها بعضها ويقبح بعضها، ويُعذر صاحبها في بعضها ويُلام في بعضها، وذلك لأن الطبائع مختلفة، والغرائز(٣٥) متعادية، فهذا يمدح البخل في عُرْض الحزم، وهذا يَحْمد(٣٦) الاقتصاد في جملة الاحتياط، وهذا يذم الشجاعة في عرض طلب السلامة. وليس في جميع الأخلاق شيءٌ يحسُن في كل زمانٍ وفي كل مكانٍ، ومع كل إنسان، بل لكل ذلك وقتٌ وحِينٌ وأوان.

قال: ولَعَمري إن القيام بحقائق هذه الأشياء وحدودها صعبٌ، لأنها لا توجد إلا متلابسةً ومتداخلةً، وتخليصُ كل واحدٍ منها بحده وحقيقته ووزنه مما يَفُوت ذرع الإنسان الضعيف المُنَّة، المنْتشِر الطينة.

قال: ومنه أن الحكيم قال للإسكندر: «أيها الملك، أَرِدْ حياتَك لرجالِك، ولا تُرِدْ رجالَك لحياتك.» ولو قلَب عليه قالِبٌ فقال: لا،

«ولكِنْ أَرِدْ رجالك لحياتك، ولا تُرِد حياتَك لرجالك»، لكان الفضل واقعًا، والدعوى قائمة.

وكان يُحكَى عن أعرابي حديثٌ مضحكٌ: قيل لأعرابي: أتريد أن تُصْلب في مصلحة الأمة؟ فقال: لا، ولكني أحب[٣٧] أن تُصْلَب الأمة في مصلحتي.

قال: وليس يجوز أن يكون الناسُ مختلفين في ظاهرهم بالصور والحُلي حتى يُعرَف بها زيدٌ من عمرو، وبكرٌ من خالد، ولا يختلفون في باطنهم حتى يكون هذا مطبوعًا على الشح وإن مدح الجود، وهذا مجبولًا على الجبن وإن تشيَّع للشجاعة. وليس يجوز في الحكمة أن يكثروا ولا يختلفوا،[٣٨] وليس يجوز أيضًا أن يُضَمَّ الجنس والنوع ولا يأتلفوا. وكلُّ ما أساغتْه الحكمة أبرزتْه القدرة، وكلُّ ما جادتْ به القُدْرة شَهِدت له الحكمة، فسبحان من له هذا التدبير اللطيف، وهذا العزُّ الغالب، وهذا السر الخافي، وهذه العلانية البادية، وهذا الفعل المحكم، وهذا النعت المُستعظَم!

وحكيتُ أيضًا في شيء جرى: قال حكماء فارس: قد جرَّبنا الملوك، فإذا ملكَنا السمحُ الجواد جادت علينا السماء والأرض، وإذا ملكَنا البخيل بخلت علينا السماء والأرض.

قال أبو سليمان: هذا إذا صح فهو شاهد الفيض الإلهي المتصل بالمَلِك السمح، ونُضُوبِه عن الملك البخيل لأن المَلِك إلهٌ بشري.

وقال مَرَّةً: ما التمنِّي – وقد كان جرى ما اقتضى السؤال عنه؟ فقلت: أحفظ نصًّا لبعض الحكماء: إن التمني فضل حركة النفْس. فقال: جوابٌ رشيق، وإن كان فقيرًا إلى البسط.

فقال: هات من حديث يونان شيئًا آخر. فقلت: قال أرسطوطاليس: لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايتَه كنا قد بدأنا العلم بنقيضه، ولكنا نطلبه لنَنْقص كلَّ يومٍ من الجهل ونزداد كلَّ يومٍ من العلم.

قال: حدِّثني بشيء فيه جوابٌ حاضر، وللبديهة فيه توقدٌ ظاهر.

فحدَّثْت أن رجلًا أتَى الزُّهريَّ فسأله أن يحدِّثه ويروي له فأبى عليه، فقال له الرجل: إن الله لم يأخذ الميثاق على الجُهَّال أن يتعلموا حتى أخذ الميثاق على العلماء أن يعلِّموا، فقال: صدقت. وحدثه.

وحدثنا القاضي أبو حامد المَرْوَرُّوذِيُّ، قال: وقف سائلٌ من هؤلاء الأنكاد علينا في جامع البصرة وفي المجلس ابن عَبْدلٍ المنصوري وابن معروف وأبو تمَّام الزَّيْنبي، فسأل وألح، فقلت له من بين الجماعة – وقد ضجرتُ من إلحاحه وصَفاقة وجهه: يا هذا، نزلتَ بوادٍ غير ذي زرع، قال: صدقتَ، ولكن يُجْبى إليه ثمراتُ كل شيء. فضحكت الجماعة، ووهبنا له دراهم.

ومن الجواب الحاضر المُسْكت الذي حزَّ الكبد ونَقَب الفؤاد(٣٩) ما جرى لأبي الحسين البَتِّي(٤٠) مع الشريف محمد بن عمر، فإن ابن

عمر قال للبتي: [٤٠] أنت والله شَمَّامةٌ ولكنها مسمومة. فقال البتي[٤٠]على النفس: لكنك أيها الشريف شمَّامةٌ مشمومةٌ، عُطِّرت[٤١] الأرضُ بها، وسارت البُرُد بذكْرها.

وقال نصر بن سيَّارٍ بخراسان لأعرابي: هل أُتْخِمْت قطُّ؟ قال: أما من طعامك وطعام أبيك فلا. فيقال إن نصرًا حُمَّ من هذا الجواب أيامًا، وقال: ليتني خَرِسْتُ ولم أَفُهْ بسؤال هذا الشيطان.

وجرى حديث الذكور والإناث، فقال الوزير: قد شرَّف الله الإناثَ بتقديم ذكرهن في قوله عز وجل: يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ، فقلت: في هذا نظر. فقال: ما هو؟ قلت: قدَّم الإناث – كما قلتَ – ولكنْ نكَّر وأخَّر الذكور ولكنْ عرَّف، والتعريف بالتأخير أشرفُ من النكرة بالتقديم. ثم قال: هذا حسن. قلت: ولم يترك هذا أيضًا حتى قال: أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا. فجمع الجنسين بالتنكير مع تقديم الذكران. فقال: هذا مستوفًى.

وقال: ما معنى كأسٌ أُنُف؟ فكان من الجواب أن يعقوب قال: يقال كأسٌ أُنُف، أي لم يُشْرَب منها قبل ذلك، وكذلك يقال روضةٌ أُنُف، إذا لم يكن رعاها أحد.

وقال لَقِيط:

إنَّ الشِّـــوَاء والنَّشـــيل والرُّغُـــفْ   والقَيْنَـة الحسـناءَ والكـأس الأُنُـفْ

للطاعنين الخيلَ والخيلُ قُطُفْ

قال: ما النَّشِيل؟ فإن الشواء والرغف معروفان. قلت: ما ضمتْه القِدْر من اللحم وغيره، لأنه يُنْشَل ويُغْرف. فقال: هذا بابٌ إنْ ألحنا عليه جوَّع!

قال: ما تحفظ في حديث الأكل؟ قلت: الأكل والذم. (٤٢)

ومن مليحه ما حضرني: قيل لجُمَّيز: (٤٣) ما تشتهي؟ قال: بَسِيسٌ مَقْلِيٌّ بين غليان قدور، على رائحة شواء، بجنب خَبِيص. فضحك – أضحك الله سنه بالفرح والسرور، وانتظام الأحوال واتساق الأمور – وقال: هات حديثًا نخرج به مما كنا فيه. فقلت: كتب سعد بن أبي وقاص إلى رستم صاحب الأعاجم: إسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، وقتالُكم أحب إلينا من صلحكم. فبعث إليه رستم: أنتم كالذباب إذ نظر إلى العسل فقال: من يُوصِلني إليه بدرهمين؟ فإذا نَشِب فيه قال: من يخرجني منه بأربعة؟ وأنت طامع، والطمع سيُرديك. فأجابه سعد: أنتم قومٌ تُحادُّون اللهَ وتعاندون أنفسكم، لأنكم قد علمتم أن الله يريد أن يحوّل الملك عنكم إلى غيركم، وقد أخبركم بذلك حكماؤكم وعلماؤكم وتقرر ذلك عندكم، وأنت دائمًا تدفعون القضاء بنحوركم، وتتلقَّوْن عقابه بصدوركم، هذه جُرْأةٌ منكم وجهلٌ فيكم، ولو نظرتُم لأبصرتم، ولو أبصرتم لسَلِمتم، فإن الله غالبٌ على أمره. ولما كان الله معكم كانت علينا ريحُكم، والآن لما صار الله معنا [صارت] ريحنا عليكم، فانْجوا

بأنفسكم، واغتنموا أرواحكم، وإلا فاصبروا لحَرِّ السلاح، وألم الجراح، [وخزي[٤٤] الافتضاح.] والسلام.

كتب حذيفة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن العرب قد تغيرت ألوانها ولحومها. فكتب عمر إلى سعد: ارْتَد للعرب منزلًا مَرَاحًا. فارتاد لهم الكوفة، وهي بقعةٌ حصباء، ورملةٌ حمراء. فقال سعد: اللهم رب السماء وما أظلت، والأرض وما أقلَّت، والريح وما ذرَّتْ؛ بارك لنا في هذه الكوفة!

وسمع عمر مُنْشدًا ينشد:

ما ساسنا مثلُك يابن الخطابْ	أَبَرَّ بالأقصى وبالأصحاب

بعد النبي صاحب الكتابْ

فنَخَسَه عمر وقال: أين أبو بكر، ويلك؟!

قال عمر وهو بمكة: لقد كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مُدَرَّعة صوف، وكان فظًّا يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصَّرت، وقد أمسيت ليس بيني وبين الله أحدٌ. ثم تمثَّل:

لا شيء مما ترى تَبقَى بشاشتُه	يبقى الإله ويُودي المالُ والولدُ
لم تُغْنِ عن هرمزٍ يومًا خزائنه	والخلد قد حاولت عادٌ فما خَلَدوا
ولا سليمان إذ تسري الرياحُ به	والإنس والجن فيما كُلِّفُوا عُبُدُ

أيــن الملــوك التــي كانــت نوافلهــا ... مــن كــل أوبٍ إليهــا راكــبٌ يَفِــدُ؟

حــوضٌ هنالــك مَــوْرُودٌ بــلا كــذبٍ ... لا بــدَّ مــن وِرْدنــا يومًــا كمــا وردوا

وقال عمر: خير الدواب الحديد الفؤاد، الصحيح الأوتاد.

وقال عمر: كانت العرب أُسْدًا في جزيرتها يأكل بعضُها بعضًا، فلما جمعهم الله بمحمَّدٍ لم يقم لهم شيء.

رأى رستم في النوم أن النبي ﷺ أخذ سلاح فارس وختم عليه ودفعه إلى عمر، فارتاع رستم من ذلك وأيقن أنه هالك.

وقال: أنشِدني شيئًا. فأنشدته لبعض آل أبي طالب:

ولســـتُ بمـــذعنٍ يومًـــا مطيعًـــا ... إلـــى مـــن لســـتُ آمـــنُ أن يجـــورا

ولكنـــي متـــى مـــا أخْـــشَ منـــه ... أحـــالف صـــارمًا عضـــبًا ثَئُـــورا

وأنـــزل كـــلَّ رابيـــةٍ بَـــراحٍ ... أكـــون علـــى الأميـــر بهـــا أميـــرا

وأنشَدني لعبد الله بن الزَّبير، ولقد تُمُثِّل به:

إنــي لَمِــن نَبْعــةٍ صُــمٍّ مكاســرُها ... إذا تقادحت القَصْبَاءُ(٤٥) والعُشَرُ

ولا أَلـــينُ لغيـــر الحـــقِّ أَتْبعُـــهُ ... حتى يَلِينَ لضِرْس الماضغ الحَجَرُ

وحدَّثتُه أن المأمون قال: قليل السَّفَه يمحو كثيرَ الحِلم، وأدنى الانتصار يُخْرِج من فضْل الاغتفار، وعلى طالب المعروف المعذرة(٤٦)

عند الامتناع، والشكرُ عند الاصطناع، وعلى المطلوب إليه تعجيل الموعود، والإسعاف بالموجود.

فقال: من أفضلُ هؤلاء؟ يعني بني العباس. فكان الجواب أن المنصور أنْقدُهم،[٤٧] والمأمونَ [أمجدُهُم]، والمعتصم أنجدُهم، والمعتضد أقصدُهم. فقال: كذلك هو. وقال: فالباقون؟ [قلت:] ليس[٤٨] فيهم بعد هؤلاء من يُوحَّد بالذكر، لأنه في نقصه وزيادته مُشاكلٌ لغيره. فقال: لله دَرُّك.

هوامش

(١) في «أ»: «فاض».

(٢) في «ب»: «أخبارنا».

(٣) في «ب»: «بحثهم».

(٤) في «ب»: «لهذا».

(٥) في «أ»: «هذه المقالة»، وهو خطأ من الناسخ.

(٦) في كلتا النسختين: «بالأمر»، وهو تحريف.

(٧) في «ب»: «ملحقة»، وهو تحريف.

(٨) في «أ»: «عن أموالنا».

(٩) في «ب»: «رفاعة» بالعين المهملة، وهو تصحيف. ورفاغة العيش: خفضه ولينه.

(١٠) في «ب»: «ومنازلنا مسكونة».

(١١) التناء: الدهاقين والرؤساء.

(١٢) الرفيعة: الرقعة المرفوعة.

(١٣) في كلتا النسختين: «من يريد»، وهو تصحيف.

(١٤) في «ب»: «لهيب غيظي بقسوتك»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(١٥) في «أ»: «على»، ولم يظهر منها في «ب» إلا نون وياء، وسائرها مطموس.

(١٦) في كلتا النسختين: «دارة» بالدال، وهو تحريف.

(١٧) في «أ»: «على» مكان «من»، وهو خطأ من الناسخ.

(١٨) قايين: بلد قريب من طبس بين نيسابور وأصبهان، وهي فرضة خراسان.

(١٩) في نسخة «وترة» مكان «دويرة». والوترة: ما وتر بالأعمدة من البيوت.

(٢٠) في «ب»: «أنفسنا».

(٢١) في كلتا النسختين: «بأصحابنا دفعنا»، وفي «ب»: بين قوله «بأصحابنا» وقوله «دفعنا» فراغ يسع كلمة، ولعل صواب العبارة ما أثبتنا، إذ هو مقتضى السياق.

(٢٢) في «ب»: «فسرنا» مكان قوله «فغدونا».

(٢٣) في «ب»: «إلى زيارتكم».

(٢٤) في «ب»: «والهفي».

(٢٥) ورد في «أ» من هذه الكلمة باء ونون بعدهما ألف، وفي «ب» لم يظهر منها إلا هاء ونون وألف، والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٢٦) يريد بمضربه بيته، مستعار من مضرب الخيام.

(٢٧) في «ب»: «إلى قلوبكم»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٢٨) ٢٨ في كلتا النسختين: «النقمة»، وهو تحريف.

(٢٩) الطر: الاستلال.

(٣٠) في كلتا النسختين: «سددنا».

(٣١) عمن نقف: أي مروية عمن نقف. وفي كلتا النسختين: على ما نقف. وقوله «على» هنا لا مقتضى له.

(٣٢) في «ب»: «وأكثر مما دار في خلدي»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٣٣) في «أ»: «الفشالة»، وفي «ب»: الغسالة، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٣٤) في «ب»: «عمدت».

(٣٥) في «أ»: «والقرائن»، وهو تحريف.

(٣٦) في «أ»: «يمدح»، وهو تكرار مع ما سبق.

(٣٧) في «ب»: «أريد».

(٣٨) رواية «ب»: «ولا يختلفوا في باطنهم حتى يكون مطبوعًا»، وفيها تكرار ظاهر.

(٣٩) في «ب»: «القلب».

(٤٠) في «ب»: «الليثي».

(٤١) في نسخة: «فطنت»، وفي نسخة أخرى: «وطئت»، وهو تحريف في كلتا النسختين، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٤٢) يشير بهذه العبارة إلى قولهم في المثل: «أكلًا وذمًّا» في الشيء يُؤكل ويذم. ذكره صاحب العقد، ولم يرد في كتب الأمثال الأخرى.

(٤٣) في الأصل: «حمير» بالحاء والراء، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن عيون الأخبار وغيره.

(٤٤) في «أ»: «والصافي» مكان هذه الزيادة المنقولة عن «ب».

(٤٥) ورد هذا البيت في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الشعر دون «ب» هكذا:

إلــى لمــن سعــه صــم بــه كاســرها ... أو أينــا رحــب العضــبنة والقشــر

وهو كما ترى مملوء بالتصحيف والتحريف في جميع كلماته تقريبًا. وقد بحثنا عن هذا الشعر في المصادر التي بين أيدينا فلم نجد غير البيت الثاني، وهو منسوب في مجموعة المعاني إلى عبد الله بن الزبير الأسدي ولم نجده في ترجمته. وقد قلبنا جميع كلمات هذا البيت على جميع ما تحتمله من الوجوه حتى استقام وزنه ومعناه على هذا الوجه الذي أثبتنا. والنبع: شجر تُتَّخذ منه أجود الرماح. وصمٌّ مكاسرها: أي صلبه. ويقال: تقادح الشجر، إذا كان رخوًا، فمتى حركته الريح حكَّ بعضه بعضًا فأورى نارًا، فإذا أريد الانتفاع به في إيراء النار بعد لم يورِ. والقصباء: جماعة القصب. والعشر: شجرة تُتخَذ منه الزناد.

(٤٦) في «أ»: المقدرة، وهو تحريف.

(٤٧) في «أ»: «أنذرهم»، ولم يظهر منها في «ب» غير الهاء والميم، وسائرها مطموس. ولعل الصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السجع.

(٤٨) الذي في «أ»: «أشرفهم»، وهو تحريف. ويلاحَظ أن كلمة «فيهم» غير موجودة في «ب»، وقد أثبتناها أخذًا من قوله في «أ»: «أشرفهم».

الليلة الخامسة والثلاثون

وقال ليلةً: ما الفرق بين الإرادة والاختيار؟ فكان من الجواب أن كلَّ مرادٍ مختار، وليس كلُّ مختارٍ مرادًا، لأن الإنسان يختار شرب الدواء الكريه وضرب الولد النجيب وهو لا يريد، ويختار طرح متاعه في البحر [إذا أُلْجِئ] [1] وهو لا يريد، وهما وإن كانا انفعالَيْن فأحدهما – وهو الاختيار – لا يحدث إلا عن جَوَلَان وتنقيرٍ وتمييز، والآخر – وهو الإرادة – يَفجأ ويَبْغَت[2] وربما حمل على طلب المراد بالكره الشديد. وفي عرض الاختيار سَعَةٌ للتمكُّن، وليس ذلك في عرض الإرادة. والعرب تستعمل الإرَاغَة في موضع الإرادة، والأول من راغ يَرُوغ والثاني من رَاد يَرُود، والهمزة مُجْتَلَبةٌ للتعدي.

قال: فما الفرق بين المحبة والشهوة؟ فكان الجواب أن الشهوة ألصق بالطبيعة، والمحبة أَصدَر عن النفس[3] الفاضلة، وهما انفعالان إلا أن أحد الانفعالين أشدُّ تأثرًا وهو انفعال الشهوة، وأنه[4] يقال: شَهِيَ وأَشْهَى،[5] ويقال في الآخر: حَبَّ وأحبَّ، ويتداخلان كثيرًا بالاستعمال، لأن اللغة جاريةٌ على التوسع كما هي جاريةٌ على التضيُّق، ومن ناحية التضيق فُزِع إلى التحديد والتشديد، ومن ناحية التوسُّع جُرِي على الاقتدار والاختيار. [6] وفي عرض هذين بلاءٌ آخر، لأنه بين الإيجاز والإطناب، وبين الكناية والتصريح، وبين الإنجاز[7] والإبطاء. فقال: هذا باب.

ثم ناولني رقعةً بخطه فيها مطالب نفيسةٌ تأتي على علمٍ عظيم، وقال: باحِثْ عنها أبا سليمان وأبا الخير ومن تعلم أن في مُجاراته فائدةً؛ من عالمٍ كبير، ومتعلمٍ صغير، فقد يوجد عند الفقير بعض ما لا يوجد عند الغني، ولا تَحْقِرْ أحدًا فاه بكلمةٍ من العلم، أو أطاف بجانبٍ من الحكمة، أو حكم بحالٍ من الفضل، فالنفوس معادن. وحصِّل ذلك كلَّه وحرِّرْه في شيء وجئني به. وكان في الرقعة:

ما النفْس؟ وما كمالُها؟ وما الذي استفادت في هذا المكان؟ وبأي شيء باينت الروح؟ وما الروح؟ وما صفته؟ وما منفعته؟ وما المانع من أن تكون النفس جسمًا أو عَرَضًا أو هُما؟ وهل تبقى؟ وإن كانت تبقى فهل تعلم ما كان الإنسان فيه ها هنا؟ وما الإنسان؟ وما حدُّه؟ وهل الحد هو الحقيقة أم بينهما بَوْن؟ وما الطبيعة؟ وهلَّا أغنى الروح عن النفْس، أو هلَّا أَغْنَت النفْس عن الروح! وهلَّا كَفَت الطبيعة! وما العقل؟ وما أنحاؤه؟ وما صنيعه؟ وهل يُعْقَل العقل؟ وهل تتنفس النفْس؟ وما مرتبتُه – أعني العقل – عند الإله؟ وهل ينفعل؟ وهل يفعل؟[٨] وإن كان ينفعل ويفعل٨ فقِسْط الفعل فيه أكثر من قسط الانفعال؟ وما المعاد المشار إليه، أهو للإنسان أم لنفسه أم لهما؟ وما الفرق بين الأنفس، أعني نفس عمرو وزيدٍ وبكرٍ وخالد؟ ثم ما الفرق بين أنفس أصناف[٩] الحيوان؟ وهل المَلَك حيوان، فقد علمتَ أنه يقال له حيٌّ؟ وهل فيه حياة؟ وعلى أي وجهٍ يقال إن الله عز وجل حيٌّ، والملَك حي، والإنسان حي، والفرس حي؟ وهل يقال الطبيعة حية، والنفس حية، والعقل حي؟ فإن هذا وما أشبهه شاغلٌ لقلبي، وجاثمٌ في صدري، ومعترضٌ بين نفسي وفكري، وما أحب أن أبوح به

لكل أحدٍ، وقد بيَّنْتُه[١٠] في هذه الرقعة، فإن أحببتَ أن تعرضها على أبي سليمان فافعل، ولكن لا تدع خطي عنده، بل انسخه له، وحصِّل ما يجيبك به، ويصدع لك بحقيقته، ولخِّصْه، وزِنْه بلفظك السهل، وإفصاحك البيِّن، وإن وجب أن تباحث غيره فافعل، فهذا هذا. وإن كان الرجوعِ فيه إلى الكتب الموضوعة من أجله كافيًا، فليس ذلك مثلَ البحث عنه باللسان، وأخذِ الجواب عنه بالبيان، والكتابُ مَوات، ونصيب الناظر فيه مَنْزُور، وليس كذلك المذاكرة والمناظرة والمواتاة،[١١] فإن ما يُنال من هذه أَغَضُّ وأطْرأ، وأهْنأ وأمْرأ. واجعل هذه الخدمة مقدَّمةً على كل مهمٍّ لك، فإني ناظرك، طامعًا في الجواب المقنع الشافي.

فعرضتُها كما رسم على أبي سليمان وقرأتُها [عليه]، وتمهَّلْتُ في إيرادها بحضرته، فلما فهمها ووقف عليها عجب وقال: هذه مسائل المتحكِّمين[١٢] وطلبات المُدِلِّين، واقتراحات المقتدرين، ومُنْيَة الأولين والآخرين.

قلت: هو كما قلتَ أيها الشيخ، ولا بدَّ من جوابٍ يُعْرض عليه يأتي على بعض مآرب النفس، وإن لم يأتِ على قاصية ما في المطلوب، فقال كلامًا كثيرًا واسعًا أنا أحكيه على وجهه من طريق المعنى، وإن انحرفتُ عن أعيان لفظه، وأسباب نظمه، فإن ذلك لم يكن إملاءً ولا نسخًا، وأجتهدُ أن ألزم متن المراد، وسَمْتَ المقصود – إن شاء الله – [عز وجل].

قال: أما قوله: ما النفْس؟ فإن التحديد يُعْوِز، والرسم لا يَشْفي، والوصفَ مقصِّرٌ عن الغاية، لأنها ليس لها جنسٌ ولا فصل فينشأ الحد بهما [ومنهما]. والاسم الشائع – أعني النفس – أخلَص إلى المطلوب، وأحضَر للمقصود من التحديد، ولهذا ما اختلف الناس قديمًا وحديثًا في حدها، فقال قائل: النفْس مِزاج الأركان. وقال قائل: النفس تألُّف الأُسْطُقُسَّات. وقال قائل: النفْس عرَضٌ[١٣] محرِّكٌ[١٤] بذاته. وقال قائل: النفس هوائية. وقال قائل: النفس روح حارَّة. وقال قائل: النفس طبيعةٌ دائمةُ الحركة. وقال قائل: النفس تمامٌ لجسمٍ طبيعي ذي حياة. وقال قائل: النفس جوهرٌ ليس بجسمٍ، محرِّكٌ للبدن ... وعلى هذا. ولعل آخرين يقولون في تحديدها ونعتها أقوالًا أخر، لأن الملحوظ[١٥] بسيط، والمدروك بعيد، والناظرين كثيرون، والباحثين مختلفون، والكثرة فاتحة الاختلاف، والاختلافُ جالبٌ للحَيْرة، والحيرة خانقةٌ للإنسان، والإنسان ضعيفُ الأَسْر،[١٦] محدود الجُمْلة، محصور التفصيل، مقصور السَّعْي، مملوك الأول والآخر، غشاؤه كثيف، وباعه قصير، وفائتُه[١٧] أكثرُ من مُدْرَكه، ودعواه أحضر من برهانه، وخطؤه أكثر من صوابه، وسؤاله أظهر من جوابه، فعلى هذا كله الاعتراف بها – أعني بالنفس – وبوِجْدانها أسهلُ من الفحص عن كُنْهها وبُرْهانها.

قال: وإنما صَعُب هذا لأن الإنسان يريد أن يعرف النفس وهو لا يعرف النفس إلا بالنفس، وهو محجوبٌ عن نفسه بنفسه. وإذا كان الأمر على هذا، فالأمرُ أن كل من كانت نفسُه أَصْفَى، ونورُه أشعَّ، ونظره أعلى، وفكره أثقب، ولحظُه أبعد؛ كان من الشك أنْجَى، وعن الشُّبْهة أنأى،

وإلى اليقين أقرب. والإنسان ذو أشياء كثيرةٍ من جملتها نفسُه، فلِكثرة ما هو به كثيرٌ يَعجِز عن إدراك ما هو به واحدٌ، أي إنسان. وكيف لا يكون هذا النعت حقًّا، وهذا المقول صدقًا، وهو مركَّبٌ في مركَّب، والنفس مبسوطة، وإنما فيه جزءٌ يسير ونصيبٌ قليل من ذلك البسيط؟ فكيف يدرَك بجزء منها كلُّها وبقليل منها جميعُها؟[18] هذا متعذِّرٌ إن لم يكن محالًا، وبعيدٌ إن لم يكن معدومًا، ويكفي أن تعلم أن النفس قوةٌ إلهية واسطة بين الطبيعة المصرِّفة للأسطقسات والعناصر المتهيِّئة، وبين العقل المنير لها، الطالع عليها، الشائع فيها، المحيطِ بها. وكما أن الإنسان ذو طبيعة لآثارها الظاهرة في بدنه، [كذلك هو ذو نفس لآثارها الظاهرة في آرائه] وأبحاثه ومطالبه ومآربه، وكذلك هو ذو عقلٍ لتمييزه وتصفُّحه، واختباره وفحصه واستنباطه، ويقينه وشكِّه، وعلمه وظنه،[19] وفهمِه وروِيَّته وبديهته وذِكْره، وذهنِه وحفظه وفكره، وحكمته وثقتِه وطُمأنينته. وكذلك هو ذو اعترافٍ بالأحد[20] الذي لا سبيل إلى جحده، والبَرَاء من هُويَّته، وكيف يجِد أثرَ الجحد، أو يُحِسُّ بلمسةٍ من الشك وسِنْخُه ينبو عن ذلك، وفطرتُه تأباه، ولهذا النُّبوِّ والإباء[21] يَفْزَع إليه، ويَتوكل عليه، ويَطلب الفرجَ من عنده، ويلتمس الخير من لدنه؟ فانظر إلى هذه السلسلة الوثيقة التي لا يفصمها شيءٌ لا في زمانٍ ولا في مكانٍ، ولا في يقظةٍ ولا في منامٍ، فهذا هذا، وفيه مقنع.

وأما فعل النفس فقد وضح أنه إثارة العلم من مظانه، واستخلاصُه من العقل بشهادته، مع إفاضاتٍ لها أُخر، وإنالاتٍ منها جليلة عند

الإنسان، بها يَنَال ما يكمُل به، وبكماله يجد السعادة، وبسعادته ينجو من شِقْوته.

وأما قوله: ما الذي استفادت في هذا المكان؟ فإنها أفادت وما استفادت، إلا أن تُجعل إفادتُها للقابل منها استفادةً لها، وفي هذا تجوزٌ ظاهر، ولا يقال للشمس إذا طلعت على بسيط الأرض والعالَم: ما الذي استفادت؟ ولكن يقال: ما الذي أفادت؟ فيُعلم حينئذٍ بالعيان أنها أفادت أشياء كثيرة، صورًا مختلفة، ومنافع جمَّةً بالقصد الأول، وأما القصد الثاني فأضداد هذه، وهذا القصد مفروضٌ باللفظ ليكون مُعينًا على تبليغ الحكمة إلى أهلها.

وأما قوله: بأي شيء باينت النفس الروحَ؟ فهو ظاهر، وذلك أن الروح جسمٌ يضعُف ويقوَى، ويصلح ويفسد، وهو واسطةٌ من البدن والنفس، وبه تُفيض النفس قُوَاها على البدن، وقد يحس ويتحرك، ويَلَذُّ ويتألم. والنفس شيءٌ بسيطٌ عالي الرتبة، بعيدٌ عن الفساد، منزَّه عن الاستحالة.

وأما المانع أن تكون النفس جسمًا [فللبساطة التي وُجدت للنفس ولم تُوجد للجسم، وبيان هذا أن كل نعت أُطْلق على الجسم نُزِّهت عنه النفس، وكلَّ نعت أطلق على النفس نبا عنه الجسم، فذاك كان المانع من ذلك. وقد أتت مذاكرةٌ في النفس منذ ليالٍ بشرحٍ مغنٍ، وبيانٍ تامٍّ، إلا أن هذا المكان أحوج إلى الإلمام، ولم يأتِ على ما في النفس. وإذا بطل أن

تكون النفس جسمًا] فهي بألا تكون عرَضًا أَقْمَن وأَخْلق، لأنه لا قِوام للعرَض بنفسه.

وأما قوله: وهل تبقَى؟ فكيف لا تبقى وهي مبسوطةٌ لا يدخل عليها ضد، ولا يدب إليها فساد، ولا يصل إلى شيء منها بِلًى؟ والإنسان إنما يَبْلَى ويفسُد ويخلَق ويبطُل ويموت ويفقِد، لأنه يفارق النفس، والنفس تفارق ماذا حتى تكون في حكم الإنسان بشكله؟ ولو كانت كذلك كانت لعمري تموت وتبلى، فأما والإنسان بها كان حيًّا وجب ألا يكون حُكمُها حكم الإنسان.

وأما قوله: أو هما؟ فقد بان أن النفس متى لم تكن جسمًا ولا عرَضًا على حدةٍ أنها لا تكون أيضًا بهما نفسًا، لأن البينونة التي منعت في الأول هي التي تمنع في الثاني. وليست النفس والعرَض كالخل والسكَّر حتى إذا جُمع بينهما كان منهما شيء آخر، لأن الجسم والجسم إذا اختلطا كان منهما شيءٌ ما له قَوامٌ ما، وإن ذلك القوام مُسْتَلٌّ منهما، وليس كذلك البسيط وغير البسيط، فهذا هذا.

وأما قوله: وهل تَفْنَى؟[٢٢]فقد بان أنها تَبقَى ولا تَفْنى، وليس يطرأ عليها ما يفنيها لبساطتها وبعدها من التركيب العجيب [المعرَّض] للتحلل.

وأما قوله: وهل تعلم ما كان فيه الإنسان ها هنا؟ فإن هذا بعيد من الحق، لأنها قد وصلت إلى معدن الكرامة وجنة الخلد، فلا حاجة بها إلى علم العالم السُّفلي الذي لا ثبات له ولا صورة، لغلبة الحيلولة عليه.

وتذكُّر الحيلولة حيلولة، وذلك دليل النقص واعتراضُ الألم، ولو أن إنسانًا نُقِل[٢٣] من كَرْب حبسٍ ضيقٍ إلى روض بستان ناضر بهيج مُونِق، ثم تذكَّرَ ما كان فيه في حال ما هو عليه؛ لكان ذلك مؤذيًا لنفسه، وكارِبًا لقلبه، وقادحًا في رَوْحه، وآخذًا من حبوره وغبطته، ومُدْخِلًا للتنغيص عليه في نشوته.

وأما قوله: وما الإنسان؟ فالإنسان هو الشيء المنظوم بتدبير الطبيعة للمادة المخصوصة بالصور البشرية، المؤيَّد بنور العقل من قِبل الإله. وهذا وصفٌ يأتي على القول الشائع عن الأولين إنه حي ناطقٌ مائتٌ، [أي حي] من قِبل الحس والحركة، ناطقٌ من قِبل الفكر والتمييز، مائتٌ من قِبل السَّيَلان والاستحالة. فمن حيث هو حي شريكُ الحيوان الذي هو جنسه، ومن حيث هو مائتٌ هو شريكُ ما يتبدَّل ويتحلل، ومن حيث هو ناطقٌ هو إنسانٌ عاقلٌ حصيف، ومن حيث يبلغ إلى مُشاكَهة المَلَك بقوة الاختيار البشري والنور الإلهي – أعني يُنْعَت[٢٤]في حياته هذه التي وُهِبَت له بَدْءًا بصحة العقيدة، وصلاح العمل، وصدق القول – هو مَلَك، فإن لم يكن ملَكًا فهو جامع لصفاته، ومالكٌ لحِلْيَته. ولمَّا كان جنسه مشتمِلًا على التفاوت الطويل العريض، كان نوعه مشتمِلًا على التفاوت الطويل العريض، ومن كان نوعه كذلك كانت آحادُه كذلك، وكما أن الجنس يَرْتَقي إلى نوعٍ كامل كذلك النوع يرتقي إلى شخص كامل.

وأما قوله: هل الحد هو الحقيقة أو بينهما بون؟ فإن الحد راجعٌ إلى واضعه ومتقصِّيه،[٢٥] بدلالة أنه يضعه ويفصِّله،[٢٦] ويخلِّصه ويسوِّيه

ويُصلِحه. فأما الحقيقة فهي الشيء وبها هو ما هو، حَدَّه صاحبُه أم لم يحدَّه، رَسَمه قاصدُه أم لم يَرْسُمه، فملحوظ الحقيقة عين الشيء [وموضوع الحد ليس هو عين الشيء].

وأما قوله: وما الطبيعة؟ فهي أيضًا قوةٌ نفسية، فإن قلتَ عقليةٌ لم تُبْعد، وإن قلتَ إلهيةٌ لم تُبْعد، وهي التي تسري في أثناء هذا العالَم محرِّكةً ومسكِّنة، ومجدِّدةً ومُبْلِية، ومُنْشِئةً ومبيدة، ومُحْيِيةً ومميتة، وتصاريفها ظاهرةٌ للحسائس، وهي آخر الخلفاء في هذا العالَم، وهي بالموادِّ أعلق، والموادُّ لها أعشق، وليس لها تَرَقي النفس في الثاني(٢٧) إلى عالم الروح، لأنه لا كون هناك ولا فساد، فلو رَقِيَتْ إلى هنالك لبَقِيَت عاطلة. وليس كذلك النفس، فإن لها في عالَمها البهجة والغبطة، والحبور والسرور، والدوام والخلود والخلافة الإلهية، وهذا هناك في مقابلة ما كان لها ها هنا من الفضائل التي لا يأتي عليها إحصاء، ولا يحصلها استقصاء.

وأما قوله: وهلَّا أغنى الروح عن النفس! فهو يغني عنها، ولكن في جنس الحيوان الذي لم يكمُل فيكون إنسانًا. فأما في الإنسان فلا، لأن الإنسان بالنفس هو إنسانٌ لا بالروح، وإنما هو بالروح حي فحسب.

وأما قوله: وهلَّا أغنت النفسُ عن الروح! فإن الروح كالآلة للنفس حتى ينفُذ تدبيرُها بوساطته في صاحب الروح، وليس ذلك لعجز النفس، ولكن لعجز ما ينفُذ فيه التدبير. وإذا حُقِّق هذا الرمز لم يكن هناك عجز،

لأنه نظامٌ موجودٌ على هذه الصورة، وصورةٌ قائمةٌ على هذا النظام، فليس لأحد أن يعلل ذلك بلِمَ ولا بكيف إلا من طريق الإقناع.

وأما قوله: هلَّا كَفَت الطبيعة! فقد كفت في مواضعها التي لها الولاية عليها من قِبل النفس، كما كفت النفسُ في الأشياء التي لها عليها الولاية من قِبل العقل، كما كفى العقلُ في الأمور التي له الولاية عليها من قِبل الإله. وإن كان مجموع هذا راجعًا إلى الإله، فإنه في التفصيل محفوظُ الحدود على أربابها، وهذا كالملِك الذي له في بلاده جماعةٌ فيَصْدُرون عن رأيه، وينتهون إلى أمره، ويتوخَّوْن في كل ما يعقدونه ويَحُلُّونه، ويَنْقُضُونه ويُبْرمونه؛ ما يرجع إلى وِفاقه، وكلٌّ ذلك منه وله وبأمره، وقد كفاه أولئك القومُ ذلك كلَّه.

فإن قال قائلٌ: فكيف مثَّلتَ سياسةً إلهيةً بسياسةٍ بشرية؟ وأين هذه من تلك؟

فالجواب أن البشر المسكين لم يُجِدَّ هذه السياسة من تلقاء نفسه، ولا بما هو به مَهِينٌ ضعيف عاجزٌ مسكين، بل بما فاض عليه من تلك القُوى وتلك الصور، فهو إذا أبرز شيئًا أبرز على مثال تلك، لأنه قد أُعْطِي القالَب، فقد سهل عليه أن يُفْرِغ فيه، ووُهِب له الطابَع، فهو يَخْتِم به، وهُيِّئ على ذلك فهو يجري عليه، وهذا سَوْقٌ إلهي وإن كان الانسياق[٢٨] بشريًّا، ونَظْمٌ رُبُوبيٌّ وإن كان الانتظام إنسيًّا. وفي الجملة إحدى السياستين، أعني البشرية هي ظلٌّ للأخرى، أعني الإلهية، والسُّفْليَّات منقادةٌ منفعِلةٌ للعُلويَّات، والعلويات مستولِياتٌ على

السفليات، بحق العدل وما هو مقتضاها، ولأن هذه فواعل أعني العلويات، وتلك قوابل أعني المنفعِلات. ووجب ذلك لأن الصورة في الفاعل أغلب، والهَيُولَى في القابل أغلب، والعالَمان متواصلان، والسياستان متماثلتان، والسيرتان متعادلتان، والتدبيران متقابلان. ولكنَّ التدبير إذا نَفَذ في السفلي يُسمَّى بشريًّا، وإذا نفذ في العلوي يُسمَّى إلهيًّا، وإن كانا في التحقيق إلهيَّين، وإنما اختلفا بحسب الصدور والورود، والفصول والوصول، والشخوص[٢٩] والبلوغ. والعادة جارية بأن يشبِّه الإنسانُ شيئًا من الأشياء بالشمس والقمر، ولا يشبه الشمسَ والقمر بشيء آخر، لأن للأعلى النعتَ الأول، وللأسفل النعت الأرذل، فهذا كما ترى.

وأما قوله: وما العقلُ؟ وما أنحاؤه؟ وما صنيعه؟ فإن الجواب عن هذا لو وقع[٣٠] في خَلَد كثير لكان محمولًا على التقصير، وكذلك فيما تقدَّم. ولكن هذا مكان قد اقتُرح فيه الإيجاز والتقريب، وهذان لا يكونان إلا بحذف الزوائد المفيدة، وإلا بتفريق العلائق الموضَّحة. وبعد، فالعقل أيضًا قوةٌ إلهية [أبسط من الطبيعة، كما أن الطبيعة قوة إلهية] أبسط من الأسطقسات، وكما أن الأسطقسات أبسط من المركَّبات. وعلى هذا حتى تنتهي المركَّبات إلى مركب في الغاية، كما بلغت المبسوطات إلى مبسوطٍ في النهاية، فالتقى الطرفان على ما يقال له: كُلٌّ، فلم يكن بعد ذلك مطلبٌ لا في هذا الطرَف ولا في هذا الطرَف. والعقل هو خليفة الله، وهو القابل للفيض الخالص الذي لا شَوْب فيه ولا قذًى. وإن قيل: هو نورٌ في الغاية، لم يكن ببعيد، وإن قيل بأن اسمه

مُغْنٍ عن نعته لم يكن بمنكر. وإنما عجزنا عن تحديد هذه البسائط لأنا حاولنا عند علمها[(٣١)] أن تكون في صورة المركبات أو قريبة منها، وأن تصير لنا أصنامًا نتمثلها ونُوَكَّل بها. [(٣٢)] وهذا منا تَعَجْرُفٌ مردودٌ علينا، وخطأٌ يلزمنا الاعتذار منه إلى كل من أحسَّ به منا، وينبغي أن نتوب إلى الله في كل وقتٍ من وصفه بما لا يليق به، ومن طرْح الوهم على شيء قد حجبه عن معارفنا، ورفعه عن عقولنا، وقصَرَنا على حدودنا اللازمة لنا، وأشكالنا المشتملة علينا. هذا حديث العقل إذا لُحِظ في ذِرْوته.

فأما إذا فُحِص عن آثاره في حضيضه، فإنه تمييزٌ وتحصيلٌ وتصفُّحٌ وحُكم وتصويبٌ وتخطئة، وإجازةٌ وإيجابٌ وإباحة. وإياك أيها السامع أن يكون مفهومُك من هذه الأسماء والأفعال والحروف أشياءَ متمايزة، فتجعلَ شيئًا واحدًا أشياء. ومن كثَّر الواحد فهو أشد خطأً ممن وحَّد الكثير، لأن تكثير الواحد انحطاطٌ إلى المركز، وتوحيدَ الكثير استعلاءٌ إلى المحيط، بل يجب أن يكون محصولك منها شيئًا واحدًا لم تصل إليه إلا بترادف هذه الكلمات، وتصاحُب هذه الصفات.

وأما أنحاؤه فعلى قدر ما يقال: فلان عاقل، وفلانٌ أعقل من فلان، وفلانٌ في عقله لُوثة،[(٣٣)] وفلانٌ ليس بعاقل. وأصحاب العقل أنصباؤهم منه مختلفة بالقلة والكثرة، والصفاء والكدر، والإنارة والظلمة، واللطافة والكثافة، والخفة والحصافة، كما تجدهم مختلفين في الصور والألوان والخِلَق بالطول والقصر، والحسن والقبح، والاعتدال والانحراف، والرد والقبول. إلا أن هذا القبيل يُدْرَك بالحس، ويُشهد بالعيان، ويُعاين

بالحضور. وذلك القبيل محجوبٌ عن هذا كله، فلم يجز أن تكون الإحاطة بتفاوت ما غاب [عنا] في وزن [الإحاطة] [٣٤] بتفاوت ما حضر، فإنهما ما تباينا ليأتلفا بل ليختلفا، وهذا التفاوت معترَفٌ به إذا اعتُبر من خارج، وذلك أنك تجد أصحاب المال أيضًا يتباينون في مقادير ما يملكون من المال، ولا يتفقون على مقدارٍ واحدٍ منه عند جماعتهم، ولا يتفقون على نوعٍ واحدٍ أيضًا من أعيان المال، لأن هذا يملك الصامت وذاك يملك الناطق، وهذا يمارس القَزَّ وهذا يمارس الصوف، وهذا ينظر في الصَّرْف، وهذا يبيع الحيوان، وكلٌّ منهم صاحب مالٍ ومباشرٌ له. وعلى هذا المثال احتذى أهلُ العقل في مطالبهم، فصار هذا يملك بعقله غير ما يملك الآخَر، أعني أن هذا ينظر في الهندسة، وهذا في الطب، وهذا في النحو، وهذا في الفقه. والعبارة تمنع من إشباع هذا المعنى، وحصْر هذا الفن، فعلى هذا أنحاؤه وإنها لكثيرة إن لم تكن بلا نهاية.

وأما صنيعه فهو الحكم بقبول الشيء ورده، وتحسينه وتقبيحه، إذا كان المعروض عليه على جهته غيرَ مموَّه ولا مغشوش، ولا مشتَبه فيه ولا ملبوس، فإن كان مموَّهًا اختلف حكمه، لأن العقل يرى الباطلَ حقًّا في وقت، ويرى الحقَّ باطلًا في وقت، معاذ الله من هذا! ذلك للحس المنقوص، والذهن الملبوس، لأن[٣٥] العارض موَّه معروضَه على العقل، فحكم له بما يستحقه، إلا أن يكون العارض لم يشعر بذلك التمويه، ولم يفطن لذلك الغش، فحينئذٍ يهديه العقل ويرشده، ويفتح عليه، وينصح له.

وأما قوله: وهل يُعقل العقلُ؟ فإن الأولى أن يقال: العاقل يعقل بالعقل مَعْقولَه، ألا ترى أنه يقال: السراج أضاء البيت؟ ويبعد أن يقال: أضاء نفسه، لأنه مضيءٌ بنفسه، فليس به فقرٌ إلى أن يضيء نفسَه، وإنما أضاء غيرَه ...[٣٦] ولو عُقل العقلُ لعُقل بالعقل، وهذا إذا استمر كان مردودًا، ونحن إذا قلنا: عَقَل العاقلُ معقولَه، فإنما نصفه بأنه انفعل انفعال كمالٍ، والعقلُ يرى من هذا الانفعال ألا يتوخَّى أنه يعقل الإله الذي هو به ما هو، فإنه يجوز أن يضر[٣٧] به انفعالٌ لائقٌ به يكون عبارةً عن شوقه[٣٨] إليه، وكمالِه به، واقتباسِه منه. وهذا صراطٌ حديد، والواطئ عليه على خطر شديد، والوقوفُ دونه أصدع بالحجة، وأوضح للعُذْر، لأن الإنسان خَوَّارٌ بالطبع، وإن كان جسورًا بالنفس.

وأما قوله: وهل تتنفس النفس؟ فإن أُريد بذلك النفس النامية والحيوانية فهو قريب، وأما الناطقة فإن ذلك يبعد منها، [لأن ذلك التنفس استمداد شيء به يكون الشيءُ حيًّا] أو كالحي، والناطقة غنيةٌ عن ذلك.

فإن قيل: فهل تقتبس من العقل وتستمد؟ قيل: هذا لا يُسمَّى تنفُّسًا، وليس اللفظ يبعده عن الحقيقة تأويلٌ في الوضع، ولا وجْهٌ في الاعتمال،[٣٩] وإدخال العويص في المكان الذي يُحتاج فيه إلى رفع اللبس وزوال الإشكال، مداجاةً في العلم، [وخيانةً للحكمة]، وجنايةً على المستنصِح.

وأما مرتبتُه[٤٠] عند الإله، فقد وضح بأنه كالشمس تطلع فتُحْيي، وتضيء فتَنفع.

فإن قيل: فالعقل أيضًا هكذا. قيل: العقل أيضًا شمسٌ أخرى، ولكنها تطلع على النفس التي ليست حاويةً لجدارٍ وسطح، وبرٍّ وبحر، وجبلٍ وسهل، لأنه لما كان العقل أشرق من النفس – لأنه مستخلِفٌ للنفس، والنفس خليفتُه – كان إشراقُه ألطف، ومنافعه في إشراقه أشرف. وأيضًا فإن الشمس تجدها بالحس لها غروبٌ وطلوع، وتَجَلٍّ وكسوفٌ، وليس كذلك العقل، لأن إشراقه دائم، ونورَه منتشر، وطلوعَه سرمد، وكسوفه معدوم، وتجليه غير متوقِّف.[٤١]

فإن قيل: نرى العقل يعزُب عن الإنسان في وقتٍ، [ويثوب إليه في وقت]. فالجواب أن الوصف الذي كنا نَنْعَت[٤٢] به ونَصْدَع ببيانه، لم يكن لعقل زيد وعمرو وبكرٍ وخالد، لأن ذلك يُنْعَت بالطلوع والغروب، وبالحضور والغُيُوب، لأنه ها هنا مضافٌ ومنحازٌ[٤٣] أو كالمنحاز، وليس كذلك هو، فإنه هناك على بهجته التامة، وسلطانه القاهر، وملكوته الأفْيَح، وبسيطه الفائق،[٤٤] وفضائه العريض.

وأما قوله: وهل ينفعل؟ فقد مر الكلام عليه في طي ما مر، وليس للتكرار وجه ولا في التطويل عذر.

وأما قوله: فقِسط الفعل أكثر أم قسط الانفعال؟ فإن هذا يُلْحظ من وجهين، إذا لُحِظ قَبُوله من فيض الإله فقسط الانفعال أظهر، وإذا

لُحِظ فيضُه على النفس فقسط الفعل فيه أكثر، لأنه بجوده على غيره يشاركه من جاد عليه بجوده، وهذا لطيفٌ جدًّا.

وأما قوله: وما المعاد؟ فما أسهل مطالبةَ السائل بهذا الأمر الصعب الهائل الذي كلُّ أمرٍ متعلِّقٌ به، وكلُّ رجاء حائمٌ حوله، وكل طمعٍ متوجهٌ إليه، وكل شيء مقصورٌ عليه، وكل إنسانٍ به يهيم، وكلُّ مصرِّحٍ عنه يصرِّح، وكلُّ كانٍ عنه يَكْني، وكل مترنِّم به يحدو، وكل لحنٍ إليه يشير، وكل سامعٍ إليه يَطْرَب. ونرجع فنقول – على العِيِّ والبيان، وعلى الزحف والعَدَوان: إن عَوْد النفس إنما هو تَخْلِيتها للبدن إذا حان وقت التخلية، إما لأن البدن غير محتمِلٍ لمادة الحياة، وإما لأن النفس قد أزمعت أمرًا آخر، ولا يتم لها ذلك إلا بتخلية هذا، وإما لهما.

فإن قال قائل: فما نصيب الإنسان من عود النفس الذي هو تخليتها للبدن وخروجها عنه، وتركُ استعمالها له؟ فالجواب من طريق التمثيل، والرضا بالرأي الأصوب، والحكم الأجلى أن يقال: لو قيل لرجلٍ من عُرْض الناس وافرٍ أو ناقص: إنك إذا فارقت هذا العالم بقيتْ عينُك الباصرة، وأذنُك السامعة، هل ترى ذلك نعمةً عليك، وإحسانًا إليك؟ فإن عينك إذا بقيَت أبصرَتِ العالَم بعدك كما كنتَ تبصرُه وهي معك، بل تبصر أحسن من ذاك الإبصار، لأنها كانت معك تَرْمَد بسببك، وتَعْشَى من أجلك، وربما عرض لها سوءٌ بسوء تدبيرك، أو باتفاق رديء عليك؛ من عشًى أو عمًى وخَفَش وعَمَش وعَوَرٍ وآفاتٍ[٤٥] كثيرة، وهي آمنةٌ بعدك من هذه الأعراض المكروهة، والأحوال الداهية،[٤٦] فإنا نعلم حقًّا

وعيانًا أنه يقول: قد رضيتُ بل أتمنى هذا، ومَنْ لي به؟ أي إنْ أُعْطِيت هذا فمَنْ منِّي[٤٧] أسمعُ وأبصر؟ وإذا كنتُ أكره الدنيا في حياتي إذا فقدْتُهما، فكيف لا أحب الدنيا إذا وجدتُهما؟ فإن كان هذا التمثيل واقعًا، وهذا التقريب نافعًا، والحق في تضاعيفه واضحًا؛ فليكن ذلك مطَّردًا في بقاء نفس الإنسان التي بها كان إنسانًا، وبها كان يَنْعَم في هذا العالم، وبها كان يعلم ويعرف ويحكم ويصيب، ويجد لذة اللذيذ من ناحية العقل والحس، وبها كان يتمنى البقاء والدوام والخلود. وإنما استحال ذلك التمني من أجل كونه وفسادِه، اللذين لم يكن بُدٌّ من انتهائهما إلى الفناء الذي هو مفارقة النفس الجسدَ وتخليتُها للبدن. ونسبة نفس الإنسان إلى الإنسان أوكد وألصق من نسبة العين إليه، ألا ترى أنه بالنفس إنسانٌ، وبالبدن حافظٌ لشكل [الإنسان]؟ فإذا كان للإنسان في هذا التمثيل فائدةٌ متمنَّاة، وحالةٌ محبوبةٌ هنيئة، أعني في بقاء العين والأذن حتى يبصر بإحداهما هذا العالم المحشوَّ بالآفات، ويسمعَ بالأخرى ما يجري فيه من ضروب الاستحالات؛ فبالحَرِيِّ أن يكون رضاه ببقاء النفس في محل الروح والأمن، ومقامِ الكرامة والسكينة على حال الخلود والطمأنينة، إن هذا لعجيب! وأعجبُ من هذا العجيب عقلٌ لا يَعْلَق به، ورُوحٌ لا يَهَشُّ لسماعه، ونفسٌ لا تجد حلاوتَه، وصَدْرٌ لا يتصدع طربًا عليه، والتياحًا[٤٨] إليه. فإن من لم يشعر بهذه الفائدة، ولم يحمد الله على هذه النعمة؛ لعازب الرأي، ضعيف العقل، خفيف المثقال، رديء الاختيار، قليلُ الحصافة، سيئ النظر، حيوانٌ خسيس في

مَسْك إنسان رئيس. فقد بان – على مذهب التقريب – ما المعاد المشار إليه، وما الإنسان منه، وما لنفسه به.

وأما قوله: وما الفرق بين الأنفس، أي نفس زيدٍ وعمرو وبكرٍ وخالد؟ وما الفرق أيضًا بين أنفس أصناف الحيوان؟ فإنما الفرق بين هذه الأنفس بقدر قِسْط كلِّ واحدٍ منهم منها، وهذه الأقساط إذا اجتمعتْ تفاوتتْ، وإذا تفاوتتْ كانت منها نفسٌ باقيةٌ حيةٌ، ونفسٌ فانيةٌ ميتةٌ، ألا ترى الشمس كيف تطلع على هذه المواضع المختلفة بالعُلْو والسُّفْل، وبالتعريج والاستقامة، والأشكال الكثيرة، فيقول كلُّ إنسان: مَشْرِقَتي أطيب من مَشْرِقَة فلان، وما أشبه هذا الكلام. وطلوع الشمس على جميعها طلوعٌ واحد، ولكن حظوظ البقاع منها مختلفة، فليس بمُنْكَر [أن تكون] نفس زيدٍ أَنْجَى من الكَدَر، وأخلص من الآفة، وأوصل إلى السعادة، ونفس بكرٍ على خلاف ذلك. ومراتب هذه الأنفس موقوفة على الإضافات الحاصلة لها بأصحابها، والأنصباء المذخورة لها باكتسابها.

فأما أنفس أصناف الحيوان كالفرس والحمار فإنها أنفسٌ ناقصةٌ غير كاملة، وهي ضعيفة لأنها لم تجد إلا الإحساس والحركات، لم يَشِعَّ فيها نور النفس الشريفة، ولم ينبثَّ فيها شعاع العقل الكريم. فوجب من هذا الوجه أن تكون تابعةً لأبدانها، جاريةً على فسادها وبطلانها، لأن الحكمة انتهت إلى ذلك الحد في كونها حشوًا لهذا العالم وزينةً ومنافعَ ومبالغ إلى غاياتٍ وأغراض.

وأما قوله: وهل الملَك حيوان؟ فقد علمتَ أنه يقال له حي، وهذا وقفٌ على الأسماء الجارية، والعادات القائمة، وكأن الحيوان إنما شاع في غير الملَك، لما فيه من الحس والحركة والاهتداء والتصرف على ما لاق بجنسه ونوعه وشخصه. [فأما ما يعلو ويُنزَّه عن الصفات، فلم يُطْلق عليه حيوانٌ ولكن يقال:] حي، لأنه أقرب الأسماء إلى المعنى المشار إليه، وبهذا التقريب قيل أيضًا لله إنه حي. وأنت إذا حدَّدْتَ الحي أو الحياة لم تقدرْ على أن تصف الله [جل وعلا] بشيءٍ من ذلك. وفي الجملة كلُّ ما كان أدخلَ في البساطة كان أخرج من التركيب، وكلُّ ما كان أخرج من البساطة كان أدخلَ في التركيب.

فأما المركَّب الذي ليس له من البسيط إلا النصيب النَّزْر وإلا طيف الخيال، فاسمه واضح والإشارة إليه سهلة، والعيان له مدرِك، لأنه مُحاطٌ بحدوده في طوله وعرضه وعمقه.

وأما المركب البسيط الذي ليس له من التركيب إلا النصيب اليسير فاسمه غامض، والإشارة إليه عسرة، والعيان عنه مكفوف. وهذا بابٌ إذا حُفِظ فُهِم منه شيءٌ كثيرٌ مما يقع فيه الغلط من الإنسان بفكره الرديء. وينفع أيضًا نفعًا بينًا في التغالُط العارض بين المتناظِرين على جهة التنافس والتناصف.

قال أبو سليمان: من حرَس هذا الثغر أمِن من جميع الأعداء، ومن أهمله كانت جنايته على نفسه بيده أعظمَ من جناية عدوِّه الثائر من ثغره.

وأما قوله: على أي وجهٍ يقال لله حي والملَك حي والفرس حي؟ فقد دخل الجواب عنه في ضمن ما تشقَّق القول به، وتحقَّق المعنى عليه في حديث المركَّب والبسيط. ونزيدُ ها هنا حرفًا يكون رديفًا لما تقدم، فنقول: أما الإنسان فإنه يقال له: حي بسبب الحس والحركة وما يتبعهما مما هو كمال الحي، وكذلك الفرس وما أشبهه. وأما الملَك فلما كان ما يستحقه ببساطته معدومًا عندنا، لم نقدر على شيء نصفه به إلا ما نصف به أنفسنا بيننا، ولو كنا في عالَم الملَك لعلَّنا كنا ندري بأي شيء ينبغي أن يُنْعَت ويُسمَّى ويُذْكَر ويُحْكَى، فإن من كان منا في بلاد الصين فإنه يسمِّي الإنسانَ والفرس والحمار والبقر بها بتعالُمِ أهلها بينهم، وإن كان هذا مُعْوِزًا على ما ترى في الملَك، أعني تسميته الحي، ونعتَه بالحياة، فاللهُ الذي لا سبيل للعقل أن يدركه أو يحيط به أو يجده وِجْدانًا أَوْلَى وأحرَى أن يُمْسَك عنه عجزًا واسْتِخْذاءً، وتضاؤلًا واسْتِعفاءً، إلا بما وقع الإِذْن به من جهة صاحب الدين الذي هو مالك أزمَّة العقول ومرشدها إلى السعادات، وواقفُها عند الحدود، وزاجرُها عن التخطي إلى ما لا يجوز. فعلى هذا قد وضح أن الصمت في هذا المكان أَعْوَد على صاحبه من النطق، لأن الصمت عن المجهول أنفع من الجهل بالمعلوم، والتظاهرَ بالعجز في موضعه كالاستِطالة بالقدرة في موضعها، وليس للخلق من هذا الواحد الأحد إلا الإنِّية والهُويَّة، فأما كيف ولمَ وما هو فإنها طائرةٌ في الرياح كما تَسمع وتَرى.

ولما حرَّرتُ هذه الجملة وحملتُها إلى الوزير وقرأتها عليه قال لي: هذا والله جُهْد المُقِلِّ، وفي غليلي بقيةٌ من اللهب.

قلت: أيها الوزير، قال أبو سليمان: سنقول لك كلامًا لا يكون فيه كلُّ الرضا، فقل له عند ذلك: إنك سألتَ عن العالَم بأسره، فلا طاقة لأحدٍ أن يعرض عليك العالم بأسره، ولولا عجلة رسولك في المطالبة، وإدلالُه بالإلحاح، وقوله: المراد التقريب والإيجاز لا التطويل والإسهاب؛ لكان النسج على غير هذا المنوال، والعمل على غير هذا الوَشْي. قال: ومن المعالم التي ليس لها ناظر، ولا بها خابر، أن السائل يحض على التلخيص المفهوم، ولعل ذلك يزيد الشيء إغلاقًا، فإذا امتُثِل ما يرسُم قال: ما شفاني القولُ، وإن زِيد على ذلك قال: غَرِق المراد في حواشي التكثير. فليس للعالِم تخلُّصٌ من استزادة المتعلم، ولا عند المتعلم شكرٌ على مبذول جُهْد العالِم، وهذا أمرٌ قد تقدمت الاستغاثة منه على مر الدهور، والأولى فيما لا حيلة فيه الرضا بالميسور منه.

ثم قال: وإن أطال الله أيامَ هذه الدولة، وحرَس على هذه الجماعة القليلة النعمة؛ استأنفنا نظرًا أبلغ من هذا النظر، ببيانٍ أشفى من هذا البيان، وطريق أوضح من هذا الطريق، إن شاء الله.

قال الوزير: والله ما قلتُ قولي ذاك لأن هذا الكلام سهلٌ، وهذا المتناوَل قريب، وهذا المرْمى كَثَب، كلا، وإني لأظن بل أَحُقُّ أنه ليس في بضائع أصحابنا الذين حولي من يدرك هذه المعاني على هذه الصفة إذا قُرِئَتْ عليه، فكيف من[٤٩] يُفْزَعُ[٥٠] في شرحها وتهذيبها إليه؟

ثم تمطَّى وقال: وانُعاساه! واضَعْفَ مُنَّتاه! ثم فارقَتِ المجلس.

هوامش

(١) في الأصول: «أحب»، وهو تحريف.

(٢) في «أ»: «ويثبت»، وفي «ب»: ويبت، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٣) في «أ»: «الطبيعة» مكان «النفس».

(٤) في كلتا النسختين: «لأنه»، والتعليل هنا لا مقتضى له. ولعل صواب العبارة ما أثبتنا.

(٥) لم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا أشهى بمعنى شهي، أي اشتهى كما يفيده كلامه، والذي وجدناه أشهاه بمعنى أعطاه ما يشتهي، لا بمعنى اشتهى.

(٦) في الأصول: «والاستحقار»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا.

(٧) في «أ»: الإبحار والإطناب، وفي «ب» وردت هذه الكلمة مطموسة الحروف تتعذر قراءتها، والسياق يقتضي ما أثبتنا أخذًا من الرسم الوارد في النسخ.

(٨) في «أ»: «يغفل» مكان «يفعل» في كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم، وهو تصحيف.

(٩) في «ب»: «أصحاب» مكان قوله «أصناف»، وهو خطأ من الناسخ.

(١٠) في «ب»: «نثرته»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(١١) في نسخة: «والموازاة».

(١٢) في كلا الأصلين: «المتحلين»، وهو تحريف.

(١٣) في كلتا النسختين: «عدد»، وهو تحريف لا يستقيم به الكلام.

(١٤) في «ب»: «متحرك».

(١٥) في كلا الأصلين: «المخلوط» ... و«المذكور»، وفي كلتا الكلمتين تصحيف وقلب، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(١٦) الأسر: القوة. وفي «ب»: «الأس» بضم الهمزة وتشديد السين، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(١٧) في كلا الأصلين: «وفلتته»، وهو تحريف.

(١٨) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مهملة الحروف من النقط مطموس بعض حروفها، والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(١٩) في «ب»: «وفطنته».

(٢٠) في كلا الأصلين: «بالحد»، وهو تحريف. وسيأتي الكلام الآتي يقتضي ما أثبتنا. ويريد بالأحد: الله تعالى.

(٢١) في «أ»: «البنون والآباء»، وهو تحريف في كلا اللفظين.

(٢٢) في الأصول: «وهل تبقى؟» وهو تصحيف إذ قد سبق هذا السؤال.

(٢٣) في «ب»: «نجا».

(٢٤) في «أ»: «يقيني»، وفي «ب»: «يقتني»، وهو تحريف في كلتا النسختين. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٢٥) في كلتا النسختين: «ومقتضيه»، وهو تحريف لا معنى له في هذا الموضع.

(٢٦) في كلتا النسختين: «ويبطله»، وهو تحريف.

(٢٧) في الثاني: أي في العالم الثاني.

(٢٨) في كلتا النسختين: «الاشتياق» بالشين المعجمة، وهو تصحيف.

(٢٩) يريد بالشخوص هنا الارتحال، وهو في مقابلة البلوغ.

(٣٠) في كلتا النسختين: «أنه لو وقع.» والظاهر أن قوله «أنه» زيادة من الناسخ.

(٣١) في كلتا النسختين: «علمائها»، وهو تحريف. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٣٢) في كلتا النسختين: «وتؤكل»، وهو تحريف.

(٣٣) في «أ»: «لومه»، ووردت هذه الكلمة في «ب» مطموسة الحروف تتعذر قراءتها، والصواب ما أثبتنا.

(٣٤) لم ترد هذه التكملة في كلتا النسختين، والسياق يقتضيها.

(٣٥) وردت هنا كلمة: «لكن» وفي الأصول، وهي زيادة من الناسخ.

(٣٦) ورد موضع هذه النقط في كلتا النسختين: «إلى لأنه أضاءه»، ولا مقتضى لهذه العبارة هنا كما يظهر لنا.

(٣٧) في كلتا النسختين: «يضن به» بالنون مكان الراء، ولم نتبين له معنًى في هذا الموضع. ولعل الصواب ما أثبتنا أو لعله: «يضل به» باللام.

(٣٨) في كلتا النسختين: «سوقه» بالسين وهو تصحيف.

(٣٩) في «ب»: «الاحتمال».

(٤٠) مرتبته: يعني العقل.

(٤١) في كلتا النسختين: «متوقع» بالعين، وهو تحريف.

(٤٢) في «أ»: «نقنع»، وفي «ب»: «نتسع»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٤٣) في كلتا النسختين: «ومختار أو كالمختار»، وهو تحريف في كلا الموضعين.

(٤٤) في «أ»: الغائب بالغين والباء، وفي «ب»: «الفائت» بالفاء والتاء. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٤٥) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «وذنوب»، وهو تبديل من الناسخ. ولم يرد قوله «كثيرة» في «ب».

(٤٦) في كلتا النسختين: «الذاهبة»، وهو تصحيف.

(٤٧) في كلتا النسختين: «مثلي» بالثاء واللام، وهو تحريف صوابه ما أثبتناه كما يقتضيه السياق. وأسمع وأبصر: وصفان للتفضيل.

(٤٨) الالتياح: الشوق. وفي الأصول: «وارتياحًا»، وهو تحريف.

(٤٩) الظاهر أن «من» زائدة.

(٥٠) وردت هذه الكلمة في «أ» مهملة الحروف من النقط، ووردت في «ب» هكذا: «نقرع».

الليلة السادسة والثلاثون

وقال دامت أيامه: كيف تقول عند مُهَلِّ الشهر شيئًا آخر من لفظه؟ فكان من الجواب: حَكَى العالم: عند هُلول[1] الشهر ومُسْتَهَلِّه [وهِلِّه] وإهلاله واستهلاله.

قال: ورأيتُ الحاتميَّ يقول: عشر كلماتٍ جاءت وعينُها عينٌ ولامُها واوٌ، ولم أُوثِر شرحَه لها لثِقَل روحه، ومغالاته بنفسه، وكأنه لا علم إلا عنده، ولا فائدة إلا هي معه؛ فهل في حفظك هذه الكلمات؟

قلتُ: لا إله إلا الله، اليوم ذكر الأندلسي هذه الكلمات وعدَّها، وقد حفظتُها. فقال: هات يا مبارك. فكان الجواب: منها البَعْو وهو الجناية، والجَعْو وهو الطين، والدَّعْو مصدر دعا دَعْوًا، والسَّعْو: الشمع، والشَّعَوُ: هو انتفاش الشعر، والصَّعْو: الرجل الضعيف، وهو أيضًا طائرٌ أصغر من العصفور، والقَعْو: من البَكْرة، واللَّعْو: الحريص، والذئبُ في بعض اللغات، والمَعْو: [2] الجَنِيُّ من الرُّطَب، والنَّعْوُ: الشَّقُّ في مِشْفر البعير.

قال: هذا حسن، لو أتى به الحاتمي لَلَوَى شِدْقَه، وقال: تنحَّ فقد جاء الأسد، وغلَب الطوفان، وخرج الدَّجَّال، وطلعت الشمس من

المغرب. ما بال أصحابنا تعتريهم هذه الخيلاء، ويغلب عليهم النقص، ويستمكن منهم الشيطان؟!

قلتُ: قال أبو سليمان: كلُّ من غلب عليه حفظُ اللفظ وتصريفُه وأمثلتُه وأشكالُه؛ بَعُد من معاني اللفظ. والمعاني صَوْغ العقل، واللفظ صَوْغ اللسان، ومن بَعُد من المعاني قلَّ نصيبه من العقل، ومن قلَّ نصيبه من العقل كثُر نصيبه من الحُمْق، ومن كثر نصيبُه من الحمق خَفِيَ عليه قُبْح الذِّكْر.

هوامش

(١) لم نجد الهلول فيما راجعناه من كتب اللغة، ولعل صوابه: «هلال»، أو لعله من الألفاظ التي انفرد المؤلف بروايتها عن مشايخه.

(٢) في كلتا النسختين: «واللعو» باللام، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن كتب اللغة.

الليلة السابعة والثلاثون

وقال الوزير ليلةً: ما أحوجَ الجبانَ إلى أن يسمع أحاديث الشجعان! وما أشدَّ انتفاعَ الضَّيِّق النفْس باستماع أخبار الكرام! لأن الأخلاق في الخَلْق أعراض، والأعراضُ منها لازمٌ ومنها لاصق.

قال: وكان[1] عيسى بن زُرْعة سرَد على سنة سبعين – لياليَ كانت الأشغال خفيفة، والسياسة بالماضي، نوَّر الله قبرَه وضريحَه! عامة، والنظرُ بالحسنى شاملًا؛ أشياءَ في الخُلُق أتى بها على عمود ما كان في نفسي، وذلك أنه ذكَر العقل والحمق، والعلم والجهل، والحلم والسُّخْف، والقناعة والشَّرَه، والحياء والقِحَة، والرحمة والقسوة، والأمانة والخيانة، والتيقظ والغفلة، والتُّقَى والفجور، والجرأة والجبن، والتواضع والكبر، والوفاء والغدر، والنصيحة والغش، والصدق والكذب، والسخاء والبخل، والأناة والبطش، والعدل والجوْر، والنشاط والكسل، والنُّسك والفتك، والحقد والصفح. وينبغي أن تزور عيسى وتذكر له هذه الجملة، وتبعثَه على إعادة حدودها، وإشباع القول فيها، مع إيجازٍ لا يكون به مدخلٌ للخلل، ولا تقصيرٌ عن إيصال الآخِر بالأول.

فلقيتُ عيسى وعرَّفتُه الحديث، وأملى ما رسمتُه في هذا الجزء، وعرضتُه على أبي سليمان فرضِيَه بعض الرضا، ولم يسخط كلَّ السُّخْط،

وقال: تحديد الأخلاق لا يصحُّ إلا بضربٍ من التجوُّز والتسمُّح، وذلك أنها مُتلابسة تلابسًا، ومتداخلةٌ تداخلًا، والشيء لا يتميز عن غيره إلا ببَيْنونةٍ واقعةٍ تظهر للحس اللطيف، أو تتضح للعقل الشريف.

ثم قال: [ألا ترى] أن الفكر مشوبٌ بالروية، والظنَّ مخلوطٌ بالوهم، والذِّكْرَ معنيٌّ بالتخيل، والبديهة جانحةٌ إلى الحس، والاستنباط موصوفٌ بالغوص؟ وما(٢) هذا المعنى الذي ميَّز التواضع من شوْب الضَّعَة، أو خلَّص علوَّ الهمة من شَوْب الكِبْر، أو فَرَز(٣) عزة النفس من نقص العُجْب، أو أبان الحِلْم عن بعض الضعف؟! هذا بالقول ربما سَهُل وانقاد، ولكن بالعقل ربما عزَّ واعتاص، والأخلاق والخِلَق مختلطة، فمنها ما اختلاطُه قويٌّ شديد، ومنها ما اختلاطُه ضعيفٌ سهلٌ، ومنها ما [اختلاطُه] نَصَفٌ بين اللين والشدة، وهذه ينفع العلاجُ في بعضها، ويَنْبو العلاج عن بعضها، والحزمُ يقضي بألا يُتهاون بما يقبل العلاج لأجل ما لا يقبَل العلاج.

قال: وهذا أيضًا يختلف بحسَب المِزاج والمِزاج، والإنسانِ والإنسان، ألا ترى أنك لو رُمْت تحويل البخيل من العرب إلى الجود كان أسهلَ عليك من تحويل البخيل من الرُّوم إلى الجود، والطمع في جبان الترك أن يتحوَّل شجاعًا أقوى من الطمع في جبان الكُرْد أن يصير بطلًا.

قال: ومع هذا فوصفُ الأخلاق بالحدود – وإن كان على ما قدَّمْناه – نافعٌ جدًّا، وإضمارُها في النفْس مثمرٌ أبدًا، فهذا هذا.

وأما ما قال أبو علي فإنه هذا:

قيل: ما الحلم؟ قال: ضبط الفكر بكفِّ الغضب.

وقال شيخنا أبو سعيد السيرافي: اعتباره من ناحية الاسم تعطيلٌ لطبعه،(٤) وذلك أن الحِلم شريك التحلُّم، «فكان الحليم [الذي] يُعَدُّ فيمن يحلُم»(٥) في عُرْض الحليم الذي لا يُعاجُ عليه ولا يُكْترث له. قال: والتحلم نافعٌ أيضًا، وهو أحمدُ من التحالُم، لأن الثاني أقرب إلى التأني، كما أن الأول أقربُ إلى الحقيقة.

وقيل لعيسى: ما العدل؟ فقال: القِسْط القائم على التساوي.

وحكى جالينوس قال: إن الناس لشدة حبهم لأنفسهم يظنون أن لهم ما يُحِبون، فمن أجل ذلك وقعوا في العُجب. فينبغي أن تكون مَحبتُك لنفسك حقيقية، ويتم ذلك لك إذا أنت صيَّرت نفسَك على الحال التي يَرَى من يرى أنك عليها.

[وقال: المُعْجَب] يحب نفسه أكثر مما يَحقُّ لها، وما أحسنَ بالإنسان أن يحب نفسه! ولكن بالعدل، فإن أراد أن يحبها جدًّا فيجب أن يجعلها من أهل المحبة، ثم يحبها من بعد.

قيل: فما الحسد؟ قال: شدة الأسى على شيء يكون لغيره.

قيل: فما الكآبة؟ قال: إفراط الحُزْن.

قال أبو سليمان: الحزن والغم والهم والأسى والجَزَع والخَوَر من شجرة واحدة، ومن تَعَاطَى وصفَ أغصان شجرة طال عليه ولم يَحْظَ بطائل، ويكفي أن نعرف شجرة التفاح من شجرة المُشْمُش، وشجرة الكُمَّثْرى من شجرة السَّفَرْجل، فإن عواقب المعارف نكرات، كما أن فواتح المعارف جهالات.

قيل: فما الشجاعة؟ قال: الإقدام في موضع الفرصة من جميع الأمور.

قال أبو سليمان: الشجاعة إذا كانت نُطْقية[٦] كانت فرصتُها تعاطِيَ الحكمة، والدُّءُوبَ في بلوغ الغاية، وبذلَ القوة في نيل البِغْية. وإذا كانت غَضَبيةً كانت فرصتُها شفاء الغيظ إما من مستحِق، وإما من غير مستحِق. وإذا كانت شَهَويةً كانت فرصتها التحليَ بالعفة التامة، أعني في الخَلْوة والحَفْل.

قال لنا أبو الحسن عليُّ بن عيسى الرُّمَّاني الشيخُ الصالح: العِفَّة واسطة بين المقارفة والعصمة، والعصمة واسطةٌ بين البشرية والمَلَكية.

وحكى عيسى بن زُرْعة في هذا الموضع – عند تدافع الحديث – أن مُورِيس قال: إني لأعجب من ناسٍ يقولون: كان ينبغي أن يكون الناس على رأي واحد، ومنهاج واحد! وهذا ما لا يستقيم ولا يقع به نظام.

قال: وهَبْ أن يكون الناس وكلُّ واحدٍ منهم مَلِكًا يأمر وينهى، ويُسْتمَع له ويُطَاع؛ فمن كان المأمورَ المؤتمر، والمَنْهيَّ المنتهِي؟ والعاقلُ الحصيفُ يعلم أنه لا بدَّ من التفاوت الذي به يكون التصالح، كالعالِم والمتعلم، والآمر والمأمور، والصانعِ والمصنوع له.

ثم قال عيسى: من توابع الأخلاق المذمومة الغضب والكذب والجهل والجوْر والدناءة.

قال أبو سليمان: أما الغضب فلا يكون مذمومًا إلا إذا أُعْمل في غير أوانه، وعلى غير ما يأذن الناموس الحقُّ به. وأما الكذب ففيه أيضًا مصالح، كما أن الصدق ربما أفضى إلى كثير من المفاسد – وإن كان الصدق قد فاز بالوصف الأحسن، والكذب قد وُصِف بالنعت الأقبح – فكم كذبٍ نجَّى من شر! وكم صدقٍ أوْقعَ في هُوَّة! وبقي الآن أن نعرف الصدق مع أوانه ومكانه، فيُؤْتَى به أو يُنْهَى عنه، وكذلك الكذب على حَذْوه ومثاله.

قال: وأما الجهل والجَوْر والدناءة فإنها أثافِيُّ الرذائل، فينبغي أن يُنْتَفَى منها جملةً وتفصيلًا، ولا يسلك أحدٌ إلى شيء منها [سبيلًا] فإنها أَعْدَام – هكذا قال – والعَدَم كريهٌ ومهروبٌ منه، والوجود على أنقص النعوت أتمُّ وأشرف من العدم على أَزْيد الصفات، وإن كان لا زيادة في العدم إلا من طريق الوهم العارض ما يصحُّ وما لا يصح.

قيل: فما العُجْب؟ قال: وزن النفس بأكثر من مثقالها.

وقال أيضًا: العُجب هو النظر في النفس بعين ترى القبيح جميلًا.

ويقال: المُعْجَب يدَّعي أن ما ينبغي أن يُعْجب منه قد حصل له من غير أن يكون كذلك، فأما إذا كان ذلك حاصلًا فالعُجْب ليس بعُجْبٍ إلا من طريق الاسم، وإلا فهو في الحقيقة إحساسٌ بالفضل المعشوق، وشعورٌ بالكمال المَوْمُوق، واستدعاءٌ للزيادة مما صار به هكذا، واستعدادٌ لقبول الفيض من معدِنه بالاختيار الثاني والاعتياد الأول.

قيل: فما الوفاء؟ قال: قضاء حقٍّ واجب، وإيجابُ حقٍّ غير واجب، مع رِقَّةٍ أُنْسِية، وحفيظةٍ مَرْعية.

قيل: فما الرغبة؟ قال: حركةٌ تكون من شهوةٍ يُرْجَى بها منفعة.

قال أبو سليمان: الرغبة إذا كانت نطقية كانت مَبْعَثةً على التحلِّي بالفضائل، وإذا كانت سَبُعيةً أو بَهيمِيةً كانت مُلْهِجةً بمواقعة أضدادها[٧] من الرذائل.

وقيل: ما المهنة؟ فقال: حركةٌ يَتَعاطاها الإنسان بلا حَفْزٍ ولا استكراه. قال علي بن عيسى: المهنة صناعة، ولكنها [إلى الذل أقرب، وفي الضَّعَة أدخل. والصناعة مهنة، ولكنها] ترتفع عن توابع المهنة، وفي الصناعات ما يتصل به الذل أيضًا، ولكنْ ذلٌّ ليس من جهة حقيقة الصناعة، ولكن من جهة العرْض الذي بين الصناعة والصناعة، والمرتبة والمرتبة.

قيل: فما العادة؟ قال: حالٌ يأخذ بها المرء نفسَه من غير أن تكون مسنونةً يجري عليها مَجرَى ما هو مألوفٌ طبيعي.

قال أبو سليمان: كأن هذا الاسم ليس يخلُص إلا لمن أتى شيئًا مرارًا، فأما في أول ذلك فليس له هذا النعت، وإنما يصير مألوفًا بالتكرار، ولهذا ما صِيغت الكلمة من عاد يعود واعتاد يعتاد.

وأما قوله: طبيعي. فعلى وجه التشبيه، لأن الطبيعي أشد رسوخًا وأثبت عِرْقًا، وأبعدُ من الانتقاض. فأما العادةُ فكلُّ ذلك جائزٌ عليها، وغيرُ مأمون من الوقوعِ فيه.

قيل: كم الحركات؟ قال: ستة أصناف؛ أولها حركة الانتقال، وهي ضربان: إما حركة الجسم بكلِّه من مكان إلى مكان، وإما حركتُه بأجزائه كالفَلَك والرَّحَى. والثاني حركة الكون، والثالث حركة الفساد، والرابع حركة الرُّبُوِّ،[٨] والخامس حركة النقْض والبِلَى، والسادس حركة الاستحالة، وهي ضربان: أمَّا في الجسم فمِثل اللون، وأما في النفس فمثل الغضب والرضا والعلم [والجهل].[٩]

والنُّقْلة مكانية، والكون والفساد جوهريَّان، والاستحالة هيئية، والنمو والاضمحلال[١٠] مكانيان.

قال الكندي: وها هنا حركةٌ أخرى، وهي حركة الإبداع، إلا أن بينها وبين حركة الكون فرقًا، لأن هذه لا من موضوع، وحركة الكون من فساد

جوهرٍ قبْله بحدوثه، ولذلك قيل: إن الكون خروجٌ من حالٍ خسيسةٍ إلى حال نفيسة.

قال أبو سليمان: حركة الإبداع عبارةٌ بسيطة لا يجب أن يُفهَم(١١) منها معنًى مركَّب. قال: وإنما قلت [هذا] لأن اللفظ نظير اللفظ في أغلب الأمر وليس المعنى نظير المعنى في أغلب الأمر، واللفظ كلُّه من وادٍ واحد في التركُّب بلغة كل أمة، والمعاني تختلف في البساطة على قدر العقل(١٢) والعقل، والعاقل والعاقل. وإنما حركة الإبداع مشارٌ بها إلى مقوِّم الأشياء بلا كُلْفة فاعل، ولا مُعاناة صانع، وإنها بَدَتْ بالمُبْدِع من المُبْدع للمبدع لا على أن الباء أَلْصَقت به شيئًا، ولا على أن [مِن] فصلت منه شيئًا، ولا على أن اللام أضافت إليه شيئًا. فإن هذه العلامات والأمارات كلَّها موجودةٌ في الأشياء التي تعلَّقت بالإبداع، فلم يَجُزْ أن يُنْعتَ بها المبدع، ولو جاز هذا لكان داخلًا فيها وموجودًا بها، وهذا بعيدٌ جدًّا. فلما جلَّ عن هذه الصفات بالتحقيق في الاختيار وُصِف بها بالاستعارة على الاضطرار، لأنه لا بدَّ لنا من أن نذكره ونصفه وندعوَه ونعبدَه ونقصده ونرجوَه ونخافَه ونعرفَه وننحُوَه ونطلبَ ما عنده ونواجهَه ونكافِحَه. (١٣) وهذه نعمةٌ منه علينا، ولُطْفٌ منه بنا، وحكمةٌ بينه وبيننا، وإلا كانت العصمة تَنْبَتِر، والطمعُ ينقطع، والأمل يضعُف، والرجاء يخيب، والأركان تتخلخل، والذرائع ترتفع، والوسائل تمتنع، والقواعدُ تسيح، والرغباتُ تسقط، والجودُ والكرم والحكمة والقدرة والجبروت والملكوتُ تأبى ذلك. فصارت هذه الأسماءُ والصفاتُ سلالم لنا إليه، لا

حقائقَ يجوز أن يُظَنَّ به شيءٌ منها، على سبيل[14] السياج الممدود، والمنهاج المحدود.

سُقْتُ كلامَ عيسى في تصنيف الحركات من أجل هذه الفقرة التي كانت محفوظةً في حركة الإبداع، فإني قد وجدت للقوم في هذا الباب حيرةً عارضة أو راكدةً، لا يستطيعون التَّفَصِّي عنها، ولا يقدرون على البراءة منها، للضلال الذي قد لزمهم، والأصنام التي قد تربعت في نفوسهم، والأمثلةِ التي قد خالَطت عقولَهم، والأَفْياء التي استصحبوها من إحساسهم. والقائل هذا ينبغي أن يتحرَّى ويتلبث حتى يَعْرَى من هذه الأشياء ويتريَّث، فحينئذٍ أضمن له أن يصح توحيده، ويتمَّ تجريده، وإلى التوحيد تنتهي الفلسفة بأجزائها الكثيرة، وأبوابها المختلفة، وطرُقها المتشعبة.

وأنا أعوذ بالله من صناعةٍ لا تحقِّق التوحيد، ولا تدل على الواحد، ولا تدعو إلى عبادته، والاعتراف بوحدانيته، والقيامِ بحقوقه، والمصير إلى كنَفه، والصبر على قضائه، والتسليم لأمره! ووجدتُ أرباب هذه الصناعات، أعني الهندسة والطب والحساب والموسيقى والمنطق والتنجيم، مُعْرِضين عن تجشُّم هذه الغايات، بل وجدتهم تاركين الإلمامَ بهذه الحانات. وهذه آفةٌ نسأل الله السلامة منها، والعافية من عواقبها! والسلام.

قيل: ما التمام؟ قال: بلوغ الشيء الحدَّ الذي ما فوقه[١٥] إفراط، وما دونه تقصير.

قال أبو سليمان: التمام أَلْيَق بالمحسوسات، والكمال أليق بالأشياء المعقولة.

قال: وليست هذه الفُتْيَا مني جازمة، ولا عن العرب العاربة مرويَّة. ولكن إذا لَحَظنا المعانيَ مختلفة، طلبنا لها أسماءً مختلفة، ليكون ذلك معونةً لنا في تحديد الأشياء أو في وصف الأشياء من[١٦] طريق الإقناع الكافِّ[١٧] للجدل والتهمة، أو من طريق البرهان القاطع بالحجة، الرافع للشبهة، أو من طريق التقليد الجاري على السَّنَن والعادة.

قال: ولهذا [إذا] قيل: ما أتمَّ قامتَه! كان أحسن، وإذا قيل: ما أكمل نفسَه! كان أجمل.

قيل له: هل يتساوى الكون والفساد فيبقى الشيء على ما هو به؟ فقال: أما على الحقيقة فلا، ولكن[١٨] على السعة، لأن الكون متصل بالفساد، إلا أنهما يخفيان في مبادئهما حتى إذا امتد الآنان[١٩] فصارَ آنًا واحدًا فحينئذٍ بان الكون من الفساد، وبان الفسادُ من الكون، وهذا بالاعتبار الحسي، فأما العقل فيرتفع عن هذا، لأنه يعلم حقيقة الشيء على ما هو عليه، ولا يقبل من الحس حُكمًا، ولا يَحتكم إليه أبدًا.

وإنما الحسُّ عاملٌ من عمال العقل، والعامل يجور مرةً ويعدل مرة، فأما الذي هذا هو عامله فهو الذي يتعقبه، فإن وجده جائرًا أبطل قضاءه، وإن وجده عادلًا أمضى حكمَه، ومتى استُشير الحسُّ في قضايا العقل فقد وُضع الشيء في غير موضعه، ومتى استُشير العقلُ في أحكام الحس فقد وُضع الشيء في موضعه.

قيل: فما الصورة؟ قال: التي بها[٢٠] يخرج الجوهر إلى الظهور عند اعتقاب الصور إياه.

قال أبو سليمان: هذه الفتيا جزافية، الصور أصناف: إلهيةٌ وعقلية وفلكيةٌ وطبيعيةٌ وأسطقسية وصناعية، ونفسيةٌ ولفظية وبسيطةٌ ومركبةٌ وممزوجةٌ وصافيةٌ، ويقظيةٌ ونوميةٌ وغائبيةٌ وشاهدية.

ثم اندفع فقال: أما الصورة الإلهية – وهي أعلاها في الرتبة والحقيقة. وهي أبعد منا في التحصيل إلا بمعونة الله تعالى – فلا طريق إلى وصفها وتحديدها إلا على التقريب، وذلك أن البساطة تغلب عليها، إلا أنها مع ذلك ترسم بأن يقال: هي التي تجلت بالوحدة وثبتت بالدوام ودامت بالوجود.

وأما الصورة العقلية فهي شقيقة تلك إلا أنها دونها لا[٢١] بالانحطاط الحسي ولكن بالمرتبة اللفظية، وليس بين الصورتين فصلٌ إلا من ناحية النعت، وإلا فالوحدة شائعةٌ وغالبةٌ وشاملة، لكن الصورة الإلهية تلحظ لحظًا، ولا يلفظ بوصفها لفظًا لمشاكتها الصورة النفسية، فإذا كان

كذلك أمكن أن ترسم فيقال: هي التي تهدي إلى العاقل ثلجًا في الحكم، وثقةً بالقضاء وطمأنينة للعاقبة وجزمًا بالأمر، ودحوضًا للباطل وبهجةً للحق ونورًا للصدق.

والفرق بين الصورة الإلهية والصورة العقلية أن الصورة الإلهية ترد عليك وتأخذ منك، والصورة العقلية تصل إليك فتعطيك، فالأولى بقهرٍ وقدرة والثانية برفقٍ ولطافة، وتلك تحجبك عن لم وكيف وهذه تفتح عليك لم وكيف، وتلك لا تنحي ولا تطلب وهذه يسعى إليها، ويسأل عنها وتوجد، وأنوار الصورة الإلهية بروقٌ تمر وأنوار الصورة العقلية شموسٌ تستنير، وتلك إذا حصلت لك بالخصوصية لا نصيب لأحدٍ منها، وهذه إذا حصلت لك فأنت وغيرك شرعٌ فيها، وتلك للصون والحفظ وهذه للبذل والإفاضة.

وأما الصورة الفلكية فداخلةٌ تحت الرسم بالعرض، وللوهم فيها أثرٌ كثير، ولأنها مأخوذةٌ من الجسم الأعظم صارت مشاكهتها مقسومةً بين البسيط الذي لا تركيب فيه البتة، وبين المركب الذي لا يخلو من التركيب البتة، ولهذا صار تأثير الفلك في المتحركات عنه أشدَّ من تأثر الفلَك عن المحرِّك له، وكأنه أول [محرِّكٍ] متحرِّك، وليس هكذا(٢٢) ما علا عنه.

والفلَك بما هو جسمٌ منقوص الصورة وبما هو دائم الحركة، شريفُ الجوهر.

وأما الصورة الطبيعية فتعلُّقها بالمادة القابلة لآثارها بحسب استعدادها لها، فلذلك ما هي مُزَحْزحة عن الدرجة العليا، وعِشْقُها للقابل منها أشدُّ من عشقها للمُفِيض عليها، ولهذا أيضًا كانت منافعها ممزوجة، ومضارُّها بحتة،(٢٣) وهي تجمع بين الحكمة والبلَه، وبين الجيد والرديء، ولو سألتها لِمَ أنتِ ضارةٌ نافعة؟ لقالت: بعُدْتُ، فلما بعُدْتُ صوَّبْتُ وصعَّدْتُ.

وسمعتُ أبا النفيس يقول في وصف الطبيعة كلامًا له رونقٌ في النفس،(٢٤) وأنا أصل هذه الجملة به.

قال: أيتها الطبيعة، ما الذي أقول لك؟ وبأي شيء أؤاخذك؟ وكيف أوجِّه العتْب عليك؟! فإنك قد جمعتِ أمورًا منكرة، وأحوالًا عسرة، لا يفي نظامُك فيها بانتثارك عليها، ولك بوادر ضارة، وغوائل خفيةٌ تبدو منك، وتغور فيك، وترجع إليك، حتى إذا قلنا في بعضها: إنك حكيمة، قلنا في بعضها: إنك سفيهة. فالبَلَه منك مخلوطٌ باليقظة، والاستقامة فيك عائدةٌ بالاعوجاج، وفيك فظائع ونزائع، وقوارع وبدائع، لأن حركاتك تستنُّ مرةً استنانًا تُعشقين عليه، وتُحَبِّين من أجله، وتزيغ أخرى زيغًا تُمْقتين عليه، وتُبْغَضين بسببه، وربما كانت حركتك نقصًا للبناء المحكم والصورة الرائعة والنظام البهي، وربما كانت بناءً للمنتقِض، وتجديدًا للبالي، وإصلاحًا للفاسد، حتى كأنك عابثةٌ بلا قصد، عائثةٌ على عمد. وعلى جميع صفاتك من الواصفين لك لم يَعلم(٢٥) مَن ظن، ولا رأى من تخيَّل، ولا بعُد لفظٌ من تأويل، ولا حال معنًى عن توهم، ولا أسفر حق

عن باطل، ولا تميز بيانٌ عن تمويه، ولا وضَح نصحٌ من غش، ولا سلم ظاهرٌ من تناقض، ولا خلت دعوى من معارض؛ فلهذا وأشباهه واجهتُك بخطابي، وعرضتُ عليك ما في نفسي. فبالذي أنت به قائمة، وبالذي أنت به موجودة، وبالذي أنت له منقلبة، وإليه منساقة؛ إلا خبَّرتني عنك، وشَفَيْت غليلي منك، ونعتِّ لي غيب شأنك، وجعلتِ الخبر عنك كعيانك. وإنما ضرعتُ إليك هذا الضَّرَع، وعرضتُ عليك هذا الوجع، لأنك جارتي وصاحبتي، وليس بيني وبين حجاب إلا ما هو عدوٌّ منك أو مني، أعني بما هو منك لطف سحرك، وخفاء سرك، وأعني بما هو مني ما أعجز عن استبانته واستيضاحه إلا بقوة الإله الذي هو سببٌ لحركتك في أفانين تصرفك، وأعاجيب عدلك وتحيفك.

وكان إذا بلغ هذا الحدَّ وما شاكَلَه أخذ في كلامٍ كالجواب على طريق التأنيس والتسلية والاستراحة، وهذا بالواجب، لأن الإنسان بسبب أغراضه المجهولة، وعوارضه الفاجئة الباغتة من الغيب والشهادة يفتقر افتقارًا شديدًا إلى هذه النعوت التي تقدم ذكرها، وهذا كالداء والدواء! وليس لأحد أن يتهكَّم فيقول: هلَّا ارتفع الداء أصلًا فيُستغنَى عن الدواء جملة! وهلَّا وقع الدواء أبدًا على الداء ونفاه وصرفه! فإن هذا كلامٌ مدخول من عقل كليل، ولعمري إن من جهِل القسمة الإلهية في الأزل[٢٦] بحسب شهادة العقل لعب به الوسواس في هذه المواضع، وظن أن الأمر لو كان بخلاف ما هو عليه كان أولى وأتم وأوثق وأحكم. يا ويحه! من أين يوجب هذا الحكم؟ وبأي شيء يثبت هذا القضاء؟ وكيف يثق بهذا الوهم؟

وكان يقول أيضًا: إن الطبيعة تقول: أنا قوةٌ من قوَى البارئ، موكَّلةٌ بهذه الأجسام المسخرة حتى أتصرف فيها بغاية ما عندي من النقش والتصوير والإصلاح والإفساد اللذين لولاهما لم يكن لي أثرٌ في شيء، ولا لشيء أثرٌ مني، وكان وجودي وعدمي سواءً، وحضوري وغيابي واحدًا، ولو بطلتُ بطل ببطلاني ما أنا به. وهذا زائفٌ من القول، وخطلٌ من الرأي، وتحكمٌ من الظان. ولو احتُمل إيراد كلِّ ما كان يتنفس به هذا الشيخ في حال نشاطه وانقباضه، لكان ذلك مَرَادًا فسيحًا، ومَشْرعًا واسعًا، ولكن ذلك متعذِّرٌ لعجزي عن الوفاء به، ولأن هذه الرسالة تتقلص عنه، وإنما أجول في هذه الأكناف لكَلَفي بالحكمة كيف دارت العبارة بها، وأمكنت الإشارة إليها، لا على التقصي لها وبلوغ الغاية منها، ومن يقدر على ذلك؟ ومن يحدِّث نفسه بذلك؟ العالم أبعد غورًا وأعلى قُلَّةً وأثقل وزنًا وأحدُّ غرْبًا وألطف أعراضًا وأكثف أجْرامًا وأعجب تركيبًا وأغرب بساطةً من أن يأتي عليه إنسانٌ واحد، وكل من[٢٧] كان في مَسْكه، وإن بلغ الغاية في دقة الذهن، وحُسن البيان، وبلاغة اللفظ، واستنباط الغامض في حاضره[٢٨] وغائبه؛ هذا ما لا يتوهمه العقل.[٢٩]

وأنا أعوذ بالله من هذه الدعوى، وأسأله أن يلهمني الشكر على ما فتح وشرح، وهدى إليه ومنح، وأطلع عليه وندَح،[٣٠] فإن الشكر قرعٌ لباب المزيد، والمزيد باعثٌ على الشكر الجديد، والشكر – وإن خلَص بالعرفان، وجرى بضروب البيان على اللسان – فإنه يقصُر عن تواتر النعمة بعد النعمة، وتظاهر الفائدة بعد الفائدة.

وأما الصورة الأُسْطُقُسِّيَّة فهي لائحةٌ لكل ذي حسٍّ[٣١] بالتناظم الموجود فيها، والتباين الآخذ بنصيبه منها، ولها انقسامٌ إلى آحادها، أعني أن صورة الماء مبايِنةٌ لصورة الهواء، وكذلك صورة الأرض مخالِفةٌ لصورة النار، فتحديدها بما يقررها مع غوصها في كل أسطُقسٍّ شديد، واللفظ لا يصفو، والمراد لا ينماز.

وأما الصورة الصناعية فهي أبين من ذلك، لأنها مع غوصها في مادتها بارزةٌ للبصر والسمع ولجميع الإحساس، كصورة السرير والكرسيِّ والباب والخاتَم وما أشبه ذلك.

وأما الصورة النفسية فهي راجعةٌ إلى العلم والمعرفة وتوابعهما فيما يحققهما أو يخدمهما[٣٢] وهي شقيقةٌ للصورة العقلية بالحق.

وأما الصورة البسيطة فلاختلاف مراتب البسيط ما يعزُّ رسمها إلا بالإيماء إليها، فإن لحق هذا الإيماء سامعُه فذاك، وإلا فلا طمع في عبارةٍ شافيةٍ عنها.

وأما الصورة المركبة فهي باديةٌ للحس بآثار الطبيعة في مادتها، وباديةٌ أيضًا للنفس بآثار العقل في سَيْحه عليها، وكما أن بين البسيط والبسيط فرقًا يكاد البسيط يكون به مركَّبًا، كذلك بين المركَّب والمركب فرقٌ يكاد المركب يكون به بسيطًا، وهذه جملةٌ تفسيرها مُعْوِز.

وأما الصورة الممزوجة فهي أخت الصورة المركبة، وكذلك الصورة الصافية أخت الصورة البسيطة، وليس هذا تمايزًا في اللفظ واللفظ، إذ كانتا متصاحبتين(٣٣) ولم تكونا متعاندتَين.

وأما الصورة اليقظيَّة فهي مجموعةٌ من الإحساس، لجريانها(٣٤) على وجدان المشاعر كلها، وما لها وبها.

وأما الصورة النومية فهي أيضًا متميزةٌ عن أختها، أعني اليقظية، لأنها إغضاء عينٍ وفتح عينٍ، أعني أن النائم قد حيل بينه وبين مثالات الإحساس وعوارض الكون والفساد، وفُتح عليه بابٌ إلى وجدان شيء آخر يجري كظل الشخص من الشخص، فإن كان ذلك من وادي الطبيعة أومأ إلى آثار الأخلاط، وإن كان من وادي النفس أومأ إلى نصب التماثيل، وإن كان من وادي العقل صرَّح بحقائق الغيب في عالم الشهادة إما بالتقريب وإما بالتهذيب، أعني إما بوقوعه عَقِيب ذلك وإما بعد مهلة.

وأما الصورة الغائبية والشاهدية فقد اتصل الكلام في شرحها بما تقدم من حديث الصورة اليقظية والنومية، والعبارة عن الشاهد مقصورةٌ على وجدان المشاعر، والعبارة عن الغائب مقصورةٌ على ما تغلَّق(٣٥) على المشاعر، وفي الغائب شاهدٌ هو الملحوظ(٣٦) من الغائب، وفي الشاهد غائبٌ هو المبحوث عنه في الشاهد، فالشاهد غائبٌ بوجه والغائب شاهدٌ بوجه، حتى إذا استَجمعا لك كنتَ بهما في شعارهما. والإلهيون من الفلاسفة هم الذين جمعوا بين هذين النَّعْتَيْن، وعلوْا هاتين الذروتين

فتوحدوا عند ذلك بخصائصهم وانسلخوا عن نقائصهم، فلو قلت: ما هؤلاء[٣٧] بشرٌ، كنتَ صادقًا.

ولقد أحسن الذي قال في وصف العِصابة حيث وصف فقال:

فينا وفيك طبيعةٌ أرضيةٌ	تهوِي بنا أبدًا لشر[٣٨] قرار
لكنها مقسورةٌ مأسورةٌ	مغلوبة السلطان في الأحرارِ
فجسومهمْ من أجلها تهوِي بهم	ونفوسهمْ تسمو سُمُوَّ النارِ
لولا منازعة الجسوم نفوسَهمْ	نفذتْ بسَوْرتها من الأقطار
عرفوا لرُوح الله فيه فضل ما	قد آثَروا من صالح الآثار
فتنزَّهوا وتكرموا وتعظموا	عن لؤم طبعِ الطين والأحجار
نزعوا إلى البحر الذي منه أتتْ	أرواحهمْ وسمَوْا عن الأغوارِ

وهذا وصفٌ بليغٌ بالإضافة إلى القوم. [٣٩]

فأما ما وراء هذا فهناك خبر ثقةٍ[٤٠] بما قرَّر، وقال: وأما الصورة اللفظية فهي مسموعةٌ بالآلة التي هي الأذن، فإن كانت عجماء فلها حكم، وإن كانت ناطقةً فلها حكم، وعلى الحالين فهي بين مراتب ثلاث: إما أن يكون المراد بها تحسين الإفهام، وإما أن يكون المراد بها تحقيق الإفهام، وعلى الجميع فهي موقوفةٌ على خاصِّ ما لَها في بروزها من نفس القائل، ووصولها إلى نفس السامع. ولهذه الصورة بعد هذا كله مرتبةٌ أخرى إذا مازجها اللحن والإيقاع بصناعة الموسيقار، فإنها حينئذٍ

تُعطِي أمورًا ظريفة، أعني أنها تلذُّ الإحساس، وتُلْهب الأنفاس، وتستدعي الكاس والطاس، وتروِّح الطبع، وتنعم البال، وتُذَكِّر بالعالَم(٤١) المَشُوق إليه، المتلهَّف عليه.

هذا منتهى كلامه على ما علقه الحفظ، ولقِنه الذهن، ولو كان مأخوذًا عنه بالإملاء لكان أقوم وأحكم، ولكن السرد باللسان لا يأتي على جميع الإمكان في كل مكان، فهذا هذا.

قال الوزير: هذا بابٌ في غاية الإيفاء والاستيفاء، ومن يتحكَّك بالاعتراض عليه فقد صغَى،(٤٢) وأبدى صفحتَه بالبُهْت، ودلَّ من عقله على الدَّخَل،(٤٣) ومن أخلاقه على الخَلَل.(٤٤) لقد وهب الله لهذا الرجل مقامًا عاليًا، ولا عجب فإنه مُعَوَّض بهذا عما فاته.

وقال: أنشِدني في الخمر شيئًا غريبًا. فأنشدته:

ومُـــــورَّدِ الوَجَنـــــات يخْـــــطِرُ حـــين يخطِـــر فـــي مُـــوَرَّدْ
يســـقيك مـــن جَفْـــن اللُّجـــين إذا ســـــقاك دمـــــوع عســـــجدْ
حتـــــى تظـــــنَّ الشـــــمس تنْـــــزلُ أو تظـــــن الأرضَ تصـــــعدْ
فـــــإذا ســـــقاك بعينـــــه وبفِيــــه ثــــم ســــقاك باليــــدْ
حيَّـــــاك باليـــــاقوت تحْـــــت الـدُّرِّ مـن فـوق(٤٥) الزَّبَرْجـدْ

قال: أحسنتَ والله، هات زيادةً. فقلت:

كذا البكرُ تنْزو حين يفتضُّها البعلُ حماليقهـا بـيضٌ وأحـداقها نُجْـلُ

شـذورٌ[٤٧] ودُرٌّ لـيس بينهمـا فصـلُ توهمـتُ شـيئًا لـيس يدركـه العقـلُ

درجْتُ إليها مثلَ ما يدرُجُ الطفلُ

وأنشدتُ لآخر:

وكـم عائـبٍ للخمـر لـو أنَّ أُمَّـه تبـول مُـدامًا لـم يَـزَل يَسْـتَبيلُها

ولآخر:

خليليَّ لُوماني[٤٨] على الخمر أو دعا فلن تجدا عندي على اللوم مطمعا

وشـبًّا[٤٩] سـنا نـارٍ لعـلَّ نـديمنا بنجـرانَ أن يَلقـى سـناها فيتْبَعـا

فمـا راعنـا إذ أُوقِـدتْ فـوق ربـوةٍ مـن الأرض إلا راكبـان قـد أَوْضَـعا

فهشَّـا إلينـا ثـم قـالا ألا انعِمـا مسـاءً فقلنـا دام ذاك لنـا معـا

وأنشدتُ لآخر:

سـقَوْني وقـالوا لا تُغـنِّ ولـو سـقَوْا جبالَ شَـمامٍ[٥٠] مـا سـقَوْني لغنَّـتِ

وأنشدت أيضًا:

الكـأسُ لا تـدري ولا الخمـرُ مـن أي شـيء عُجِّـلَ السُّـكْرُ

أَسْـكَرَني مِـن قَبْـل شُـرْبي لهـا مَـن دأبُـه الإعـراضُ والهَجْـرُ

قلـتُ لـه والخمـرُ فـي كأسِـه[٥١] كأنهـا فـي كفِّـه بـدرُ

أنـتَ لَعمـري الخمـرُ يـا سـيدي لـيس الـذي سـقَّيْتَني الخمـرُ

آخر:

تركـتُ النبيـذ لأهـل النبيـذ فخـارَ لـيَ الله فـي تَرْكِـه

وقـد كنـتُ قِـدْمًا بـه مُعْجَبًـا أروح وأغـدو إلـى سَـفْكِهِ(٥٢)

فقال: قد جرى هذا أيضًا على التمام. اختم مجلسنا بدعاء الصوفية.

فقلتُ: سمعتُ ابن سمعون يدعو في الجامع في آخر مجلسه ويقول: اللهم اجعل قولنا موصولًا بالعمل، وعملَنا محقِّقًا للأمل، ولا تضايقنا فيما نتحوَّل به، ونتقلَّبُ لك فيه، وكنِّفْ علينا بسِترك، وسوِّغْنا بِرَّك، وأَلْهِمْنا شكرك، وخفِّف على أفواهنا ذكرك، واخصُصْنا بعد ذلك بما هو أليق بذلك! اللهم اسمع واستجب وقرِّبْ. وانصرفتُ.

هوامش

(١) في «أ»: «ولو كان»، وقوله «لو» زيادة من الناسخ.

(٢) في كلتا النسختين: «ومن هذا»، وهو تحريف.

(٣) في كلتا النسختين: «أو قرن»، وهو تحريف.

(٤) في الأصل: «لطيفة»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٥) وردت هذه العبارة في كلتا النسختين مضطربة اللفظ لا يُفهم المراد منها، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا. كما ورد في «ب»: «هو» قبل كلمة «الذي».

(٦) نطقية: أي فكر.

(٧) أضدادها: أي أضداد الفضائل.

(٨) في كلتا النسختين: «الدنو»، وهو تصحيف. والربو: الزيادة. وقد أثبتنا هذه الكلمة أخذًا مما يأتي بعد في توضيح هذه الحركات من قوله: «ولنمو»، وإنما أثبتنا هنا الربو بالراء والباء لقربه من حروف الأصل.

(٩) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد في كلتا النسختين، والسياق يقتضي إثباتها إذ لا تتحقق الاستحالة إلا بين الشيء وما يخالفه.

(١٠) يشير بالاضمحلال هنا إلى ما سبق من حركة النقض والبلى، وهي الخامسة.

(١١) في «ب»: «يظهر» مكان «يفهم».

(١٢) في «ب»: على قدر اللفظ. وفيه تبديل من الناسخ.

(١٣) المكافحة: المواجهة والملاقاة.

(١٤) في كلتا النسختين: «لا على سبيل ... إلخ.» وقوله «لا» زيادة من الناسخ كما يلوح لنا.

(١٥) ما فوقه: أي الذي فوقه. وكذلك أيضًا «وما دونه.»

(١٦) ورد في كلتا النسختين: «إلا من طريق»، وقوله «إلا» زيادة من الناسخ كما يلوح لنا.

(١٧) في كلتا النسختين: «الكافي»، والياء زيادة من الناسخ.

(١٨) في «ب»: «أما» مكان «ولكن»، وهو خطأ من الناسخ لا يستقيم به الكلام، إذ لا جواب لأمَّا بعد ذلك.

(١٩) في «ب»: الأبان ... أبًا واحدًا. وفي «أ»: الإناءان ... «إناء واحدًا»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٢٠) في «ب»: «لها»، وهو تحريف.

(٢١) في كلتا النسختين: «دونها بالانحطاط» بسقوط «لا» النافية، والسياق يقتضي إثباتها.

(٢٢) كذا في «ب». والذي في «أ»: «وليس هذا فاعلًا عنه»، ولا يخفى ما في هذه العبارة من التحريف.

(٢٣) في كلتا النسختين: «نجية»، وهو تصحيف، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٢٤) في «ب»: «في السمع».

(٢٥) عبارة «أ»: «لم نر أعلم من ظن»، وهو تحريف.

(٢٦) في «أ»: «الأول»، وفي «ب»: «الأولى»، وهو تحريف.

(٢٧) في «ب»: «ما» مكان «من»، وفي «أ»: «مسألة» مكان «مسكه»، وهو تحريف في كلا اللفظين. والمسك: الجلد. ويريد به هنا الشكل، أي كل من أشبهه وشاكله، أو يريد به من كان محبوسًا في جسمه مقيدًا بمادته.

(٢٨) في كلتا النسختين: «في آخره» مكان قوله: «في حاضره»، وهو تحريف. وفي «أ»: و«غايته» مكان «وغائبه» الوارد في «ب»، وهو ما اخترناه ليتقابل الوصفان.

(٢٩) في كلتا النسختين: «إلا عقل»، وفي قوله: «إلَّا» تحريف ظاهر.

(٣٠) ندح الشيء: وسَّعه. وفي كلتا النسختين: «وقدح» بالقاف، وهو تحريف.

(٣١) في كلتا النسختين: «حسن»، وهو تحريف.

(٣٢) في «أ»: «لوعد منهما»، وهو تحريف.

(٣٣) في كلتا النسختين: «إذا كانا متصاحبين ... إلخ.» وهو تحريف.

(٣٤) في كلتا النسختين: «وجريانها» بالواو، وهو تحريف.

(٣٥) في «ب» الموجودة فيها هذه العبارة وحدها دون «أ»: «تعلق من»، وهو تحريف.

(٣٦) في «ب» الموجودة فيها هذه العبارة وحدها دون «أ»: «المخلوط»، وهو تحريف.

(٣٧) في «أ» التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون «ب»: «هؤلاء ما ببشر»، وفيها تقديم وتأخير وقعا من الناسخ كما لا يخفى.

(٣٨) في «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها دون «ب»: «لنشر»، وهو تحريف.

(٣٩) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام دون «ب»: «القول» مكان «القوم»، وهو تحريف فيما يظهر لنا.

(٤٠) في «أ» التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون «ب»: «حرسه» مكان قوله: «خبر ثقة»، وهو تحريف لا يُفهم له معنًى.

(٤١) لعله يريد بالعالم: عالم الروح.

(٤٢) صغى: مال.

(٤٣) في «أ» التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون «ب»: «الرجل»، وهو تصحيف، والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٤٤) في «أ» التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون «ب»: «الحال»، وهو تصحيف، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٤٥) في «أ» التي ورد فيها وحدها دون «ب» هذا الشعر ما نصه:

حياك باليـاقوت فـو ... ق الـدرِّ مـن تحـت الزبرجـد

وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا، إذ الخمر المشبهة بالياقوت إنما تكون تحت الحبب المشبه بالدر، وكلاهما فوق الكأس المشبهة بالزبرجد.

(٤٦) يريد بالعذراء: البكر من الخمر. ويريد بالفحل: الماء الذي تُمزج به.

(٤٧) في «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: «أناسًا شدود»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٤٨) في «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: «أوماني»، وهو تحريف.

(٤٩) في «أ»: «وسنا» بالسين والنون، وهو تصحيف.

(٥٠) شمام: جبل لباهلة له رأسان يُسميان ابني شمام، ويُضرب بهما المثل في الاجتماع وعدم الفرقة.

(٥١) عبارة «أ» التي ورد فيها هذا الشعر وحدها:

... ... فـي كفـه ... كأنهـا فـي كأسـه ... ...

وهو خطأ من الناسخ، وسياق المعنى يقتضي ما أثبتنا، إذ المعروف تشبيه الكأس بالبدر لا تشبيه الخمر به.

(٥٢) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الشعر: «بتكه» بالباء والتاء، مكان قوله «سفكه»، ولم نجد له معنى يناسب السياق. ولعل الصواب ما أثبتنا، إذ المعروف تشبيه الخمر بالدم المسفوك، وقد جاء هذا كثيرًا في الشعر.

الليلة الثامنة والثلاثون

وجرَى ليلةً بحضرة الوزير – أعلى الله كلمتَه، وأدام غِبْطته، ووالَى نِعْمتَه! أحقُّ من دُعِي له، وأشرف من بُوهِي به، وأكملُ من شوهد في عصره – حديثُ ابن يوسف وما هو عليه من غَثَاثته ورَثَاثته وعِيَارَته[1] وخساسته.

فقلت له: عندي حديثٌ ولا شك أن الوزير مطَّلعٌ عليه عارفٌ به. قال: ما ذاك؟ قلت: حدثني أبو علي الحسن بن علي القاضي التَّنُوخِيُّ قال: كنت في الصحبة إلى هَمَذان سنة تسعٍ وستين، وكنا جماعةً وفينا ابن حرنبار[2] أبو محمد، وكان في جنبه ابن يوسف، فاتفق أن عضد الدولة – برَّد الله مضجعه – قال لابن شاهَوَيْه: سِرْ إلى ابن حرنبار[2] وقل له: ينبغي أن تسير إلى البصرة وإنا نجعل لك فيها معونة، فقد طال مُقامك عندنا، وتوَالَى تبرُّمُنا بك وتبرُّمُك بنا، وليس لك بحضرتنا ما تُحِبه وتقترحه، والسلامة لك في بعدك عنا قبل أن يُفضي ذلك إلى تغيُّرنا. وكلامًا في هذا النوع.

قال: ونفَذَ أبو بكر ومعه آخَر من المجلس يشهد التبليغ والأداء،[3] ويسمع الجواب والابتداء على رسمٍ كان معهودًا في مثل هذا الباب – فلقِي ابن حرنبار[2] وشافهه بالرسالة على التمام. فقال أبو محمد لما سمع: الأمر للملِك، ولا خلاف عليه. ولَعمري إن الناس

بجُدُودهم ينالون حظوظَهم، وبحظوظهم يستديمون جدودَهم. ولو وُفِّقتُ ما كان عجيبًا، فقد نال من هو أنقص مني، وبلغ المنى من أنا أشرف[٤] منه، ولكن المقادير غالبة، وليس للإنسان عنها مُرْتَحل. وقد قيل: من سَاور الدهرَ غُلب. ولكن أيها الشيخ لي حاجة: أحب أن تبلغ الملك كلمةً عني. قال: هاتها. قال: تقول له: أنا صائرٌ إلى ما رسمتَ، وممتثِلٌ ما أمرت، بعد أن تقضي لي وطَرًا في نفسي قد تَقطَّع عليه نَفَسي، وذاك أن تتقدَّم فيُقام عبدُ العزيز بن يوسف بين اثنين فيصْفعانه مائتين، ويقولان له: إذا لم تبذل جاهك لمتلهِّف، ولا عندك فرجٌ لمكروب، ولا بِرٌّ لضعيف، ولا عطاءٌ لسائل، ولا جائزةٌ لشاعر، ولا مرعًى لمنتجِع، ولا مأوًى لضيف؛ فلِمَ تُخاطَب بسيدنا، وتُقبَّل لك اليد، ويُقام لك إذا طلعتَ؟

قال ابن شاهويه: فَقَبْلَ أنْ لقيتُ الملِك أَفْصح[٥] له الذي كان معي مُشْرِفًا عليَّ. فلما دخلت الدار عُرِّف، فقال: عليَّ به. فحضرتُه وابن يوسف قاعدٌ بين يديه على رسمه. فقال لي: هات الجواب عما نفذْتَ فيه. فقلتُ: الجوابُ عندك. فقال: ما أعجب هذا! أنت حُمِّلتَ الرسالة وأطالب غيرَك بالجواب؟! قال: فتلوَّيتُ حياءً من ابن يوسف. فقال: هات يا هذا الحديثَ بفصِّه، فوالله لا أقنع إلا به، ما هذا التواني والتكاسل؟! فكرهتُ اللَّجاج، فسردتُه على وجهه، ولم أغادر منه حرفًا، وابن يوسف يتقدَّد في إهابه،[٦] ويتغير[٧] وجهُه عند كل لفظةٍ تمر به. فأقبل عليه الملك وقال: كيف ترى يا أبا القاسم الكيِّسَ؟ فقال: يا

مولانا، إنما أنا أقضي الحاجة بك، فإذا لم تقضها كيف أكون؟ فإن الحوائج كلها إليك.

قال: صدقتَ، أنا لا أقضي حاجةً لك، لأنك لا تقصد بها وجه الله، ولا تبغي بها مكرمة، ولا تحفظ بها مروءة، وإنما ترتشي عليها وتصانع بها، وتجعلني بابًا من أبواب تجارتك وأرباحك. ولو كنتُ أعلم أنك تقْضي حاجةً لله أو لمكرمةٍ أو لرحمة ورِقَّةٍ، لكان ذلك سهلًا عليَّ وخفيفًا عندي، لكنك معروف المذهب في الطمع والحيلة، وجرِّ النار إلى قُرْصِك، وشَرَهك في جميع أحوالك. وليس الذنب لك، ولكن لمن رآك إنسانًا وأنت كلبٌ.

وصدق – صدَّق الله قولَه – فإنه كان أخسَّ خَلق الله، وأنتن الناس، وأقذر الناس، لا منظر ولا مخبر.

وكانت أمه مغنيةً من أهل البيضاء، وأبوه من أسقاط الناس، ونشأ مع أشكاله، وكان في مكتب[٨] الرَّبَضِيِّ على أحوالٍ فاحشة، ووَرَّق زمانًا، ثم إن الزمان نوَّه به، ونبَّه عليه، ومثلُ هذا يكون والأيام ظهورٌ وبطون، وكما يسقط الفاضل إذا عانده الجَدُّ، كذلك يرتفع الساقط إذا ساعده الجَدُّ، فهذا هذا.

فقال: ما كان هذا الحديث عندي، وإنه لمن الغريب.

ثم قال: كيف خبرك في الفتنة التي عرضت وانتشرت، وتفاقمت وتعاظمت؟ فكان من الجواب: خبر من شَهِد أولَها، وغرِق في وسطها، ونجا في آخرها.

قال: حدِّثني فإن في روايته وسماعه تبصرةً وتعجبًا، وزيادةً في التجربة.

وقد قيل: تجارب المتقدمين مرايا(٩) المتأخرين، كما يُبْصَر فيها ما كان يُتبصَّر بها فيما سيكون، والشاعر قد قال:

والدهرُ آخرُه شِبْهٌ بأولِهِ ناسٌ كناسٍ وأيامٌ كأيامِ

وليس من حادثةٍ ماضيةٍ إلا وهي تعرفك الخطأ والصواب منها، لتكون على أُهْبةٍ في أخذك وتركك، وإقدامك ونُكُولك، وقبضك وبسطك، وهذا وإن كان لا يقي كلَّ الوقاية فإنه لا يُلقِي في التهلكة كلَّ الإلقاء.

كان أول هذه الحادثة الفظيعة البشعة التي حيَّرت العقول وولَّهت الألباب، وسافر عنها التوفيق، واستولى عليها الخِذْلان، وعُدِمت فيه البصائر؛ شيءٌ كلا شيء، وإذا أراد الله [تعالى ذكره] أن يعظِّم صغيرًا فعل وإذا شاء أن يصغر عظيمًا قدر، له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا صارف لقدره. وقدرة الإنسان محدودة، واستطاعته متناهية، واختياره قصير، وطاقته معروفة. وكلُّ ما جاوز هذا الحد

وهذا[١٠] التناهي فهو الذي يجري على الإنسان شاء أو أبى، كره أو رضي، وها هنا يُفزع إلى الله من نازل المكروه وحادث المحذور.

وذاك أن الروم تهايجت على المسلمين، فسارت إلى نصيبين بجمعٍ عظيم زائدٍ على ما عهد على مر السنين، وكان هذا في آخر سنة اثنتين وستين، فخاف[١١] الناس بالموصل وما حولها، وأخذوا في الانحدار على رعبٍ قُذف في قلوبهم، ليكون سببًا لما صار إليه [الأمر]، وماج الناس بمدينة السلام واضطربوا، وتقسَّم هذا الموج والاضطراب بين الخاصة والعامة، وصارت العامة طائفتين: طائفة ترق للدين ولما دهم المسلمين، وتستعظم ذلك فرَقًا مما يُنتهى إليه، بعد ما يؤتى عليه، وطائفةً وجدت فرصتها في العيث والفساد، والنهب والغارة بوساطة التعصب للمذهب.

وافترقت الخاصة أيضًا فرقتين: فرقةً أحبت أن تكون للناس حميةٌ[١٢] للإسلام ونهوضٌ إلى الغزو، وانبعاثٌ في نصرة المسلمين؛ إذ قد أضرب السلطان عن هذا الحديث، لانهماكه في القصف والعزف وإعراضه عن المصالح الدينية والخيرات السياسية. وطائفةً اختارت السكون والإقبال على ما هو أحسم لمادة الوثوب والهيج، وأقطع لشغب الشاغب وأقمع لخلاف المتهم، فإن الاختلاف إذا عرض خفي موضع الاتفاق والتبس الأمر على الصغار والكبار. وبمثل هذا فُتحت البلاد، ومُلكت الحصون، وأزيلت النِّعم، وأُريقت الدماء، وهُتكت المحارم، وأُبيدت الأمم. ونعوذ بالله من غضب الله، ومما قرب من [سُخط] الله! وإذا أراد الله أمرًا كثَّر بواعثه وفرَّق نوابثه. [١٣]

ولما اشتعلت النائرة، واشتغلت الثائرة صاح الناس: النفير النفير، واإسلاماه! وامحمداه! واصوماه! واصلاتاه! واحجاه! واغزواه! واأسراه في أيدي الروم والطغاة! وكان عز الدولة قد خرج في ذلك الأوان إلى الكوفة للصيد، ولأغراضٍ غير ذلك، فاجتمع الناس عند الشيوخ والأماثل والوجوه والأشراف والعلماء، وكانت النية[١٤] بعدُ حسنة، وللناس في ظل السلطان مبيتٌ ومقيل، يستعذبون ورده ويستسهلون صدره، وعجُّوا وضجوا وقالوا: الله الله! انظروا في أمر الضعفاء وأحوال الفقراء، واغضبوا لله ولدينه، فإن هذا الأمر إذا تفاقم تعدى ضعفاءنا إلى أقويائنا، وبطل رأي كبرائنا في تدبير صغرائنا، والتدارك واجب وهو الإسلام إن لم نذب عنه غلب الكفرُ، وهو الأمن والسكون إن لم يُحفظا فهو الخوف والبلاء وذهاب الحرث والنسل، وفضيحة الولد والأهل. فسكَّن المشايخ منهم وطيبوا أنفسهم، وقوَّوا مُنَّتهم ووعدوهم أن يرتئوا[١٥] فيه متفقين، ويجتمعوا عليه مجتهدين، ويستخيروا الله ضارعين. وانصرف الناس عنهم واجتمع القوم: أبو تمام الزينبي ومحمد بن صالح بن شيبان وابن معروف القاضي وابن غسان القاضي وابن مكرَّم – وكان من كبار الشهود في سوق[١٦] يحيى – وابن أيوب القطان العدل وأبو بكر الرازي الفقيه وعلي بن عيسى والعوامي صاحب الزبيري[١٧] وابن رباطٍ شيخ الكرخ ونائب الشيعة[١٨] ولسان الجماعة وابن آدم التاجر[١٩] والسالوسي أبو محمد، وغيرهم ممن يطول ذكرهم، وتشاوروا وتفاوضوا وقلبوا الأمر وشعبوا القول، وصوبوا وصعدوا، وقربوا وبعدوا،[٢٠] والتأم لهم من ذلك أن تخرج طائفةٌ وراء الأمير بختيار إلى الكوفة وتلقاه وتعرِّفه[٢١] ما قد شمل

مدينة السلام من الاهتمام، وأن الخوف قد غلبهم وأن الذعر قد ملكهم، وأنهم يقولون: لو كان لنا خليفةٌ أو أميرٌ أو ناظرٌ سائسٌ؛ لم يُفضِ الأمر إلى هذه الشناعة، وأن أمير المؤمنين المطيع لله إنما ولاه ما وراء بابه ليتيقظ في ليله، متفكرًا في مصالح الرعايا، وينفذ في نهاره آمرًا وناهيًا ما يعود بمراشد الدين، ومنافع الدانين والقاصين[٢٢] وإلا فلا طاعة. وكلامًا على هذا الطابع وفي هذا النسج، فاتفق جماعة على صريمة الرأي في الحركة إلى الكوفة، منهم أبو كعب الأنصاري وأبو الحسن مِدْرَهُ القوم، وعلي بن عيسى والعوامي وابن حسان القاضي صاحب الوقوف، وأبو أحمد الجرجاني القاضي البليغ وابن سيَّارٍ القاضي أبو بكر وأبو بكر الرازي. وأما جُعَل فإنه ذكر ما به من وجع النقرس واستعفى.

وأما أبو سعيد السيرافي فإنه ذكر ضعفًا وسِنًّا، وقال: أنا[٢٣] أعينُ في هذه النائبة بإقامة رجلٍ جلدٍ مُزاح العلة بالفرس والسلاح. وقعد الجم الغفير وسارت الجماعة إلى الكوفة، ولحقت عز الدولة في التصيد وانتظرته، فلما عاد قامت في وجهه واستأذنتْ في الوصول إليه على خلوةٍ وسكون بال وقلة شغل، فلم يلتفت إليهم، ولا عاج عليهم – وكان وافر الحظ من سوء الأدب، قليل التحاشي من أهل الفضل والحكمة – ثم قيل له: إن القوم وردوا في مهمٍّ لا يجوز التغافل عنه، والإمساك دونه. فأذن[٢٤] لهم بين المغرب والعتَمة، فجلسوا بحضرته كما اتفق من غير ترتيب، فقال: تكلموا.

فقال أبو الوفاء المهندس لأبي بكر الرازي: تكلم أيها الشيخ، فإنك رضا الجماعة ومَقنع العصابة.

فقال أبو بكر: الحمد لله الذي لا موهبة إلا منه ولا بلوى إلا بقضائه ولا مفزع إلا إليه، ولا يسر إلا فيما يسره ولا مصلحة إلا فيما قدره، له الحكم وإليه المصير، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله المبعوث إلى الوارث والموروث. أما بعد، فإن الله [تعالى] قد حض على الجهاد وأمر بإعزاز الدين والذَّب عن الحريم والإسلام والمسلمين في الدهر الصالح والزمان المطمئن، فكيف إذا اضطرب الحبل وانتكثت مريرته وأُبرز مصونه، وعُرِّي حريمه بالاستباحة ونِيل جانبه بالضيم، وضُعضع مناره بالرغم وقُصد ركنه بالهدم، وأنت أيها(٢٥) المولى من وراء سدة أمير المؤمنين المطيع لله، والحامل لأعباء مهماته والناهض بأثقال نوائبه وأحداثه، والمَفْزع إليك والمعوَّل عليك، فإن كان منك جدٌّ وتشميرٌ فما أقرب الفرج مما قد أظل وأزعج! وإن كان منك توانٍ وتقصيرٌ فما أصعبه من خطب! وما أبعده من شعب! وقد جئناك نحقق عندك ما بلغك من توسط هذه الطاغية أطراف الموصل وما والاها، وأن الناس قد جلوا عن أوطانهم، وفُتنوا في أديانهم(٢٦) وضعفوا عن حقيقة إيمانهم، للرعب الذي أذهلهم والخوف الذي وهَلَهم، وإنما هم بين أطفالٍ صغار ونساء ضعاف، وشيوخٍ قد أخذ الزمان منهم فهم أرضٌ لكل واطئ ونهبٌ لكل يد، وشباب لا يقفون لعدوهم لقلة سلاحهم وسوء تأتِّيهم(٢٧) في القِراع والدفاع، ونحن نسألك أن تتوخى في أمة محمدٍ ﷺ ما يزلفك عنده، ويكون لك في ذلك ذخرٌ من شفاعته. وبختيار مطرق.

ثم اندفع علي بن عيسى فقال: أيها الأمير، إن الصغير يتدارك قبل أن يكبر، فكيف يجوز ألا يستقبل بالجد والاجتهاد وهو قد عسا وكبر؟ والله إنْ[٢٨] بنا إلا أن يظن أهل الجبل وأذربيجان وخراسان أنه ليس لنا ذابٌّ عن حريمنا، ولا ناصرٌ لديننا، ولا حافظٌ لبيضتنا، ولا مفرجٌ لكربتنا، ولا من يهمه شيءٌ من أمورنا، فالله الله! لا تجرنَّ علينا شماتتهم بنا وخذ بأيدينا بقوتك، وحسن نيتك وحميد طويتك، وعزك وسلطانك وأوليائك وأعوانك، واكتب قبل هذا إلى عدة الدولة بما يبعثه على حفظ أطرافه وحراسة أكنافه، مع استطلاع الرأي من جهتك ومطالعة أمير المؤمنين برأيك ومشورتك.

ثم رفع الأنصاري رأسه وقال: ليس في تكرير الكلام – أطال الله بقاء الأمير – فائدةٌ كبيرة، ولئن كان الإيجاز في هذا الباب لا يكفي، فالإطناب فيه أيضًا لا يغني، والله لو نهضت بنا ونحن أحراضٌ٢٩ كما ترى لا نقلب مخصرة[٣٠] بكف، ولا نرمي دحروجةً[٣١] بيد، ولا نعرف سلاحًا إلا بالاسم؛ لنهضنا وسرنا تحت رايتك وتصرفنا بين أمرك ونهيك، وفديناك بأرواحنا ضنًّا بك، وبعثنا على مثل ذلك أحداثنا وأولادنا الذين ربيناهم بنعمتك، وخرجناهم في أيامك وادخرناهم للنوازل إذا قامت والحوادث إذا ترامت، فإن كان في المال قلةٌ فخذ من موسرنا وممن له فضل في حاله، فإنه يفرج عنه طاعةً لك، وطمعًا فيما عند الله من الثواب.

وقال العوامي: [٣٢] والله ما سُميت للدولة عزًّا إلا لأن الله تعالى قد ذخرك للمسلمين كنزًا، وجعل لهم على يديك وبتدبيرك راحةً وفوزًا، ولم

يعرضك لهذه الفادحة إلا ليخصك بانفراجها [على يدك] ويبقي لك بها ذكرًا يطبِّق الأرض ويبلغ أمراء خراسان ومصر والحجاز واليمن فيصيبهم الحسد على ما هيأ(٣٣) الله لك منها.

ونظر بختيار إلى ابن حسان القاضي – وكان منبسطًا معه لقديم خدمته –فقال: أيها القاضي، أنت لا تقول شيئًا؟ قال: أيها الأمير، وما القول وعندك هؤلاء العلماء والمصاقع الألباء؟ وإن سراجي لا يزدهر في شمسهم، وإن سحابتي لا تبل على بلالهم،(٣٤) وقد قالوا فأنعموا(٣٥) وجَرَوا(٣٦) فأمعنوا، وليس قدامهم إمام ولا وراءهم إمام، لكني أقول: ما جشمنا إليك هذه الكُلَف إلا لتنظر على ضعف أركاننا وعلو أسناننا(٣٧) وقلة أعواننا؛(٣٨) لأنا(٣٩) رأيناك أهلًا للنظر في أمرنا والاهتمام بحالنا وبما يعود نفعه على صغيرنا وكبيرنا.

فقال عز الدولة: ما زُوِيَ عني ما طرق هذه البلاد، ولقد أشرفت عليه وفكرت فيه، وما أحببت تجشم هذه الطائفة على هذا الوجه. وما أعجبني هذا التقريع من الصغير والكبير، وما كان يجوز لي أن أنعس على هذه الكارثة وأنعم بالعيش معها، ولعمري إن الغفلة [علينا] أغلب والسهو فينا أعمل، ولكن فيما ركبتموه(٤٠) مني تهجينٌ شديد وتوبيخٌ فاحشٌ، وإن هذا المجلس لمما يُتَهادى حديثه بالزائد والناقص والحسن والقبيح، وإنكم لتظنون أنكم مظلومون بسلطاني عليكم وولايتي لأموركم، كلا، ولكن كما تكونون يولَّى عليكم، هكذا قول صاحب الشريعة فينا وفيكم، والله لو لم تكونوا أشباهي لما وَلِيتكم، ولولا(٤١) أني كواحدٍ

منكم لما جُعلت قيمًا عليكم، ولو خلا كل واحد منا بعيب نفسه لعلم أنه لا يسعه وعظ غيره وتهجين سلطانه، أيظن هذا الشيخ أبو بكر الرازي أنني غير عالمٍ بنفاقه، ولا عارفٍ بما يشتمل عليه من خيره وشره؟ يلقاني بوجهٍ صلب، ولسانٍ هدار يرى من نفسه أنه الحسن البصري يعظ الحجاج بن يوسف، أو واصل بن عطاء يأمر بالمعروف، أو ابن السماك يرهب الفجار، هذا قبيح، ولو سكت عن هذا لكان عيًّا وعجزًا، جزى الله أبا عبد الله شيخنا خيرًا حين جلس، وكذلك أحسن الله عنا مكافأة أبي سعيدٍ السيرافي، فإنه لو علم أن في مساعدتكم رشدًا لما توقف! وأما أنت يا أبا الحسن – يريد علي بن عيسى – فوحق أبي إني لأحب لقاءك وأوثر قربك، ولولا ما يبلغني من ملازمتك لمجلسك وتدريسك لمختلفتك،(٤٢) وإكبابك على كتابك في القرآن؛ لغلبتك على زمانك ولاستكثرت مما قل حظي منه في هذه الحال التي أنا مدفوعٌ إليها، فإنها وازعةٌ على هوى النفس وطاعة الشيطان، ومنازعة الأكفاء وجمع المال، وأخذه من حيث يجب أو لا يجب، وتفرقته فيمن يستحق ومن لا يستحق، وإلى الله أفزع في قليل أمري وكثيره. إذا شئتم.

قال لي أبو الوفاء – وهو الذي شرح لي المجلس من أوله إلى آخره: لقد شاهدت من عز الدولة في ذلك المجلس المنصور(٣٤) في جده وشهامته وثبات قلبه وقوة لسانه مع بَحَحٍ لذيذٍ ولثغةٍ حلوة.

قال: ولقد قلت له بعد ذلك: أيها الأمير، ما ظننت أنك إذا خلعت رداءك ونزعت حذاءك تقول ذلك المقال، وتجول ذلك المجال وتنال

ذلك المنال، لقد انصرف ذلك الرهط على هيبةٍ لك شديدة وتعظيمٍ بالغ، ولقد تداولوا لفظك وتتبعوا معانيك وتشاحوا[٤٤] على نظمك، وقالوا: ما ينبغي لأحدٍ أن يسيء ظنه بأحدٍ إلا بعد الخبرة والعيان وإلا بعد الشهادة والبيان، أهذا يقال له متخلف أو ناقص؟ لله دره من شخص! ولله أبوه من فتى مدره!

ولما بلغ هذا المجلس الذين قعدوا عن المسير إليه – أعني عز الدولة – حمدوا الله تعالى، وعلموا أن الخيرة كانت قرينة اختيارهم.

قال الوزير: قرأت ما دوَّنه الصابي أبو إسحاق في «التاجي» فما وجدت هذا الحديث فيه. قلتُ: لعله لم يقع إليه أو لعله لم ير التطويل به، أو لعله لم يستخف ذكر عز الدولة على هذا الوجه. قال: هذا ممكن، فهل سمعت في أيام الفتنة بغريبة؟

قلت: كلُّ ما كنا فيه [كان] غريبًا بديعًا عجيبًا شنيعًا، حصل لنا من العَيَّارين قُوَّاد،٤٥ وأشهرهم[٤٦] ابن كَبْرويه وأبو الدود،[٤٧] وأبو الذباب وأَسْود الزُّبْد وأبو الأَرَضة[٤٨] وأبو النوابح، وشُنَّت الغارة واتصل النهب وتوالَى الحريق حتى لم يصل إلينا الماء من دجلة، أعني الكرخ.

فمن غريب ما جرى أن أسود الزبد كان عبدًا يأوي إلى قنطرة[٤٩] الزبد ويلتقط النوى ويستطعم من حضر ذلك المكان بلهوٍ ولعب، وهو عريان لا يتوارى إلا بخرقة ولا يُؤبَه له ولا يُبالَى به، ومضى على هذا دهر، فلما حلَّت النفرة[٥٠] أعني لما وقعت الفتنة وفشا الهرْج والمرْج، ورأى

هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ السيف وأعمله، طلب سيفًا وشحذه ونهب وأغار وسلب، وظهر منه شيطانٌ في مَسْك إنسان وصبُح وجهه وعذُب لفظه، وحسُن جسمه وعُشق وعَشق، والأيام تأتي بالغرائب والعجائب، وكان الحسن البصري يقول في مواعظه: المعتَبَر كثير والمعتبِر قليل. فلما دُعي قائدًا وأطاعه رجالٌ وأعطاهم وفرَّق٥١ فيهم وطلب الرئاسة عليهم صار جانبه لا يُرام وحماه لا يُضام.

فمما ظهر من حُسن[٥٢] خُلقه – مع شرِّه[٥٣] ولعنته، وسفكه للدم وهتكه للحرمة وركوبه للفاحشة، وتمرده على ربه القادر ومالكه القاهر؛ أنه اشترى جاريةً كانت في النخَّاسين عند الموصلي بألف دينار، وكانت حسناء جميلة، فلما حصلت عنده حاول منها حاجته فامتنعت عليه، فقال لها: ما تكرهين مني؟ قالت: أكرهك كما أنت. فقال لها: فما تحبين؟ قالت: أن تبيعني. قال لها: أو خيرٌ من ذلك أعتقك وأهب لك ألف دينار؟ قالت: نعم. فأعتقها وأعطاها ألف دينار بحضرة القاضي ابن الدقاق عند مسجد ابن رَغْبان،[٥٤] فعجب الناس من نفسه وهمته وسماحته، ومن صبره على كلامها، وترك مكافأتها على كراهتها، فلو قتلها ما كان أتى ما ليس من فعله في مثلها.

قال الوزير: هذا والله طريف، فما كان آخر أمره؟ قلت: صار في جانب أبي أحمد الموسويِّ وحماه، ثم سيَّره إلى الشأم فهلك بها.

قال: وكيف سلمتَ في هذه الحالات؟ قلتُ: ومتى سلمتُ؟ جاءت النهَّابة إلى بين السورين[٥٥] وشنوا الغارة واكتسحوا ما وجدوا في منزلي من ذهب وثيابٍ وأثاث، وما كنت ذخرتُه من تراث العمر، وجردوا السكاكين على الجارية في الدار يطالبونها بالمال، فانشقت مرارتها ودُفِنت في يومها، [وأمسيتُ] وما أملك مع الشيطان فَجْرَة[٥٦] ولا مع الغراب نَقْرة.

أيها الشيخ – وفَّقك الله في جميع أحوالك، وكان لك في كل مقالك وفعالك – إنما نثرتُ بالقلم ما لاق به. فأما الحديث الذي كان يجري بيني وبين الوزير فكان على قدر الحال والوقت [والواجب]، والاتساعُ يتبع القلم ما لا يتبع اللسان، والرَّوِيَّة[٥٧] تتبع الخطَّ ما لا تتبع العبارة. ولما كان قصدي فيما أعرضه عليك وألقيه إليك أن يبقى الحديث بعدي وبعدك، لم أجد بدًّا من تنميقٍ يزدان به الحديث وإصلاحٍ يحسن معه المغزى، وتكلُّفٍ يبلغ بالمراد الغاية، فليقم العذر عندك على هذا الوصف حتى يزول العَتْب، ويُستحقَّ الحمد والشكر.

هوامش

(١) في «أ» التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون «ب»: «وعبارته» بالباء الموحدة، وهو تصحيف.

(٢) كذا ورد هذا الاسم في الأصول، ولم نقف على تصحيحه. ولعل الصواب فيه: ابن حذقيار، فإن هذا من أسمائهم.

(٣) في «أ» التي ورد فيها هذا الكلام وحدها: «والآراء»، وهو تحريف.

(٤) في كلتا النسختين: «أشف»، وهو تحريف.

(٥) في كلا الأصلين: «ما أفصح»، و«ما» زيادة من الناسخ.

(٦) في «ب»: «في ثيابه»، وهو تحريف.

(٧) في «أ»: «يتميز».

(٨) في «ب»: مكبت، وهو تحريف. وفي «أ»: «الرمضي» بالميم، وهو تحريف أيضًا.

(٩) في «أ»: «مرأى»، وفي «ب»: «مرامي»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(١٠) في «ب»: «وهو»، وهو تحريف.

(١١) في «أ»: «فحلق»، وهو تحريف.

(١٢) في «ب»: «حيا»، وهو تحريف.

(١٣) في كلتا النسختين: «نوائبه»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق. ونوابث الأمر: مثيرات دفينة ومظهرات خفية.

(١٤) في «أ»: «الثقة»، وفي «ب»: «البقية». وفي «أ»: «تعد» مكان قوله «بعد»، وهو تحريف.

(١٥) في كلتا النسختين: «يرثوا» بالثاء وسقوط الهمز، وهو تحريف.

(١٦) سوق يحيى كانت في الجانب الشرقي من بغداد، كانت بين الرصافة ودار المملكة. وهي منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكي، وهي محلة ابن حجاج الشاعر المعروف.

(١٧) في «ب»: «الزهري» مكان «الزبيري».

(١٨) في «أ»: «وناب السبعة»، وفي «ب»: «باب الشيعة»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(١٩) في «ب»: «الشاعر».

(٢٠) في «أ»: «وقعدوا»، وهو تحريف.

(٢١) في «ب»: «وتعلمه»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٢٢) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «الواردين والقاصدين». وما أثبتناه أولى بالسياق.

(٢٣) في «أ»: «لنا»، وهو تحريف.

(٢٤) في «ب»: «فأمر».

(٢٥) كذا في «ب». وعبارة «أ»: «وأنت أمير الأمير المولى ما وراء سيده»، ولا يخفى ما فيها من اضطراب.

(٢٦) في «أ»: «ديارهم»، وهو تحريف.

(٢٧) كذا في «ب». والذي في «أ»: بأسهم، وهو تحريف إذ إن سوء البأس في هذا الموضع مما يُحمد لا مما يُعاب.

(٢٨) «إن» في هذا الموضع نافية بمعنى «ما».

(٢٩) في «ب»: «أحراص» بالصاد، وهو تصحيف. والأحراض: جمع حرض بالتحريك، وهو الكالُّ المعيي والمشرف على الهلاك.

(٣٠) في «أ»: «محصرة» بالحاء المهملة. وفي «ب»: «محضرة» بالحاء المهملة والضاد المعجمة، وهو تصحيف في كلتا النسختين. والمخصرة: ما يُتوكأ عليه من عصا ونحوها.

(٣١) في كلتا النسختين: «بحبوحة»، وهو تحريف، إذ لم نجد له معنى يناسب السياق، ولعل صوابه ما أثبتنا. والدحروجة: ما يدحرجه الجعل من البندق. أو لعله «حدجة» بالتحريك، يقال: تراموا بالحدج، وهو الحنظل الصغير.

(٣٢) في كلتا النسختين: «العراقي»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذًا مما سبق.

(٣٣) في «ب»: «وهب» مكان قوله «هيأ»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٣٤) البلال بكسر الباء وضمها: الماء.

(٣٥) أنعموا: جوِّدوا.

(٣٦) في «أ»: «وحرروا»، وهو تحريف.

(٣٧) في كلتا النسختين: «شأننا»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا. كما أن في «أ» وحدها: «وغلو» بالغين المعجمة مكان المهملة، وهو تصحيف أيضًا.

(٣٨) في «أ»: «إخواننا»، وهو تحريف.

(٣٩) في كلتا النسختين: «لكنا»، وهو تحريف، فإن الاستدراك هنا غير مفهوم.

(٤٠) في «أ»: «رأيتموه من»، وهو تحريف.

(٤١) في «أ»: «ولو أني»، ولا يستقيم به المعنى.

(٤٢) المختلفة: الذين يتعلمون منه.

(٤٣) يريد بالمنصور أبا جعفر الخليفة العباسي المعروف.

(٤٤) تشاحُّوا على نظمك: أي إن كلًّا منهما ضمن بما يحفظه منه على صاحبه. وفي «ب»: «وتسايحوا»، وهو تحريف.

(٤٥) في «أ»: «قول»، وهو تحريف.

(٤٦) في «ب»: «وأسماؤهم».

(٤٧) في كلتا النسختين: «وابن الرود» بالراء، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، إذ هو المناسب لأسماء هؤلاء الذين ذكرهم.

(٤٨) كذا في «أ»، والذي في «ب»: «أبو الأرمي».

(٤٩) في كلتا النسختين: «الريد»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن كتاب بغداد للأستاذ لوسترانج Le Strange ، ولعلهم كانوا يبيعون الزبد عند هذه القنطرة فأُضيفت إليه، وهي قنطرة البطريق أيضًا. وفي ياقوت: قنطرة رحى البطريق، وهي على نهر الصراة.

(٥٠) في «أ»: «حلف الخنصرة»، وفي «ب»: «حلب البقرة»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٥١) فرق فيهم: أي فرق الأعطية فيهم.

(٥٢) في «أ»: «من خفي»، وهو تحريف.

(٥٣) في «أ»: «شرهه»، والهاء الأولى زيادة من الناسخ.

(٥٤) مسجد ابن رغبان في غربي بغداد. والذي في «أ»: ابن رعبان بالعين المهملة، وهو تصحيف.

(٥٥) إلى بين السورين: أي إلى هذه المحلة المسماة بهذا الاسم في بغداد.

(٥٦) في «أ»: «نحوه»، وفي «ب»: «نخرة»، وهو تحريف في كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا، أي لا أملك ما أفجر به فجرة واحدة مع الشيطان. ويشبهون العجَلة في السجود بنقر الغراب، فيريد بالعبارة الثانية أنه لا يملك سجدة مستعجلة مع الغراب تشبه نقرة من نقراته. ويريد بالعبارتين أنه لا يملك عملًا خبيثًا ولا طيبًا مهما قلَّا. هذا ما يلوح لنا من معنى هاتين العبارتين.

(٥٧) في الأصول: «والرق به يتسع الحظ ما لا تسع ... إلخ»، وهو تحريف. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

الليلة التاسعة والثلاثون

وقال الوزير ليلة: يعجبني الجواب الحاضر واللفظ النادر، والإشارة الحلوة والحركة الرضية والنغمة المتوسطة، لا نازلةً إلى قعر الحلق ولا طافحةً على الشفة.

فكان من الجواب: اقتراح الشيء على الكمال سهل، ولكن وجدانه على ذلك صعب، لأن التمني صفوُ النفس الحسية، ونيل المتمنَّى في الفرصة[١] المحشوَّة بالحيلولة.

وقد قال المدائني: أحسن الجواب ما كان حاضرًا مع إصابة المعنى وإيجاز اللفظ وبلوغ الحجة.

وقال أبو سليمان شارحًا لهذا: أمَّا حضور الجواب فلِيكون الظفر عند الحاجة، وأما إيجاز اللفظ فلِيكون صافيًا من الحشو، وأما بلوغ الحجة فلِيكون حسمًا للمعارَضة.

قال: ما أحسن ما وشَّح هذه الفقرة بهذه الشَّذْرة!

وحكى المدائني قال: قال مسلمة بن عبد الملك: ما من شيء يؤتاه العبد بعد الإيمان بالله أحبُّ إليَّ من جوابٍ حاضر، فإن الجواب إذا تُعُقِّب لم يكن له وقع.

وحكى المدائني بإسناده عن عبد الرحمن بن حوشب أن رسول الله ﷺ قال لعمرو بن الأهتم التميمي: أخبرني عن الزِّبْرقان بن بدر، فقال: مطاعٌ في أدنيه، شديد العارضة، مانعٌ لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني. فقال عمرو: أما والله يا رسول الله إنه لزَمِر[٢] المروءة، ضيق العطن، لئيم الخال، أحمق الوالد، وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى، ولقد رضيت فقلت أحسن ما علمت، وسخطت فقلت أسوأ ما علمت. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحِكَمًا.»

وقال أبو سليمان: السحر بالقول الأعم والرسم المفيد على أربعة أضرب: سحرٌ عقلي وهو ما بدر من الكلام المشتمل على غريب المعنى في أي فن كان، وسحرٌ طبيعي وهو ما يظهر من آثار الطبيعة في العناصر المتهيئة٣ والمواد المستجيبة،[٣] وسحرٌ صناعي وهو ما يوجد[٤] بخفة الحركات المباشرة وتصريفها في الوجوه الخفية عن الأبصار المحدقة، وسحرٌ إلهي وهو ما يبدو من الأنفس الكريمة الطاهرة باللفظ مرة وبالفعل مرة. وعرض كل واحدٍ من هذه الضروب واسع، وكل حذقٍ ومهارةٍ وبلوغ قاصيةٍ في كل أمر هو سحرٌ وصاحبه ساحرٌ.

وقال المدائني: نظر ثابت بن عبد الله بن الزبير إلى أهل الشام فشتمهم، فقال له سعيد بن عثمان بن عفان: أتشتمهم لأنهم قتلوا أباك؟ فقال: صدقت، ولكن المهاجرين والأنصار قتلوا أباك.

وقال عبد الملك بن مروان لثابت بن عبد الله بن الزبير: أبوك كان أعلم بك حين شتمك. فقال: يا أمير المؤمنين، أتدري لم كان يشتمني؟ إني نهيته أن يُقاتل بأهل مكة وأهل المدينة فإن الله لا ينصره بهما، وقلت له: أما أهل مكة فأخرجوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأخافوه، ثم جاءوا إلى المدينة فأخرجهم منها وشرَّدهم.

فعرَّض بالحَكم بن أبي العاص – وهو جد عبد الملك – وكان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نفاه.

وأما أهل المدينة فخذلوا عثمان حتى قُتل بينهم، لم يروا أن يدفعوا عنه. فقال له عبد الملك: لحاك الله!

وقال عبدُ الرحمن بن خالد بن الوليد لمعاوية: أما والله لو كنتَ بمكة لعلمتَ. فقال معاوية: كنتُ أكون ابن أبي سفيان ينشق عني الأبطح، وكنتَ أنت ابن خالد منزلك أجياد أعلاه مَدَرَة وأسفله عَذِرة.

وقال المدائني: قال ابن الضحاك بن قيس الفهريه لهشام بن عبد الملك قبل أن يملِك – وهو يومئذٍ غلامٌ شاب: يابن الخلائف، لِمَ تطيل شعرك وقميصك؟ قال: أكره أن أكون كما قال الشاعر:

قصير القميص فاحشٌ عند بيته وشر غراسٍ في قريشٍ مركَّبا[6]

قال: وهذا الشعر لأبي خالدٍ[7] مروان بن الحكم هجا به الضحاك ابن قيس.

وحكى أيضًا، قال: مرَّ عطاء بن أبي[8] صيفي بعبد الرحمن بن حسان بن ثابتٍ وعطاءٌ على فرسٍ له، فقال له عبد الرحمن: يا عطاء، لو وجدت زمام زق الخمر خاليًا ما كنتَ تصنع به؟ قال: كنت آتي به دور بني النجار فأعرِّفه فإنه ضالةٌ من ضوالهم، فإن عرفوه[9] وإلا فهو لك لم يَعْدُك، ولكن أخبرني أي جدَّيْك أكبر أُفُرَيْعة أم ثابت؟ قال: لا أدري. قال: فلِمَ يعنيك[10] ما في كنائن الرجال وأنت لا تدري أي جديك أكبر؟ بل فريعة أكبر من ثابت، وقد تزوجها قبله أربعةٌ كلهم يلقاها بمثل ذراع البَكْرِ ثم يطلقها عن قِلًى؟ فقال لها نسوةٌ من قومها: والله يا فريعة إنك لجميلة فما بال أزواجك يطلقونك؟ قالت: يريدون الضِّيق ضيَّق الله عليهم!

وحكى أيضًا قال: قال أبو السَّفَر: بينا رسول الله ﷺ يسير إذ رُفع بين مكة والمدينة قبر أبي سعيد بن العاص، فقال أبو بكر: لعن الله صاحب هذا القبر، فإنه كان يكذب الله ورسوله! فقال [خالد بن] [11] أَسِيد – وهو في القوم: لا، بل لعن الله أبا قحافة! فإنه كان لا يقري الضيف ولا يمنع الضيم، ولا يقاتل مع رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «إذا سبني المشركون فعُمُّوهم بالسب، ولا تسبوا الأموات فإن سب الأموات يغضب الأحياء.»

قال محمد بن عمارة: فذاكرت بهذا الحديث رجلًا من أصحاب الحديث من ولد سعيد بن العاص فعرفه، فقال: فيه زيادة ليست عندكم. قلت: وما هي؟ فقال: قال خالد بن أسيد: يا رسول الله، والذي بعثك

بالحق ما يسرني أنه في أعلى عليين وأن أبا قحافة ولده. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «لا تسبوا الأموات، فإن سبهم يغضب الأحياء.»

وحَكَى قال: رمى عمر بن هبيرة الفزاري إلى عُرام بن شُتَيْر[١٢] بخاتمٍ له فضة – وقد زُوِّج – فعقد عليه عرام سَيْرًا ورده إلى ابن هبيرة. أراد ابن هبيرة قول الشاعر:

لقد زَرِقَتْ عيناك يابن مُلعَّنٍ كما كلُّ ضبِّيٍّ من اللؤم أزرقُ

وعرَّض له عُرام بقول ابن دارة:

لا تأمنن فزاريًّا خلوت به على قلوصك واكتُبها بأسيار[١٣]

وقال المدائني: وكان ابن هبيرة يساير هلال[١٤] بن مكَمِّل النميري، فتقدمتْ بغلة النميري بغلةَ ابن هبيرة. فقال: غض من بغلتك. فالتفت إليه النميري فقال: أصلح الله الأمير، إنها مكتوبة. وإنما أراد ابن هبيرة:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا[١٥]

وأراد النميري قول سالم بن دارة:

لا تأمنن فزاريًّا خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار

وقال الوليد العنبري: [١٦] مرت امرأةٌ من بني[١٧] نمير على مجلسٍ لهم، فقال رجل منهم: أيتها الرسحاء. [١٨] فقالت المرأة: يا بني نمير،

والله ما أطعتم الله ولا أطعتم الشاعر، قال الله عز وجل: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ.

وقال الشاعر:

فغُضَّ الطرف إنك من نميرٍ   فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وقال: مرَّ الفرزدق بخالد بن صفوان بن الأهتم، فقال له خالد: يا أبا فراس، ما أنت الذي فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، فقال له الفرزدق: ولا أنت الذي قالت الفتاة لأبيها فيه: يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ.

قال: ودخل يزيد بن مسلم على سليمان بن عبد الملك، وكان مصفرًّا نحيفًا، فقال سليمان: على رجلٍ أجرَّك رَسَنَك[١٩]وسلَّطك على المسلمين لعنةُ الله. فقال: يا أمير المؤمنين إنك رأيتني والأمر عني مدبرٌ، فلو رأيتني وهو عليَّ مقبلٌ لاستعظمت مني يومئذٍ ما استصغرت اليوم. قال: فأين الحجاج؟ قال: يجيء يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه حيث شئت.

وقال عباد بن زياد: كنت عند عبد الملك بن مروان إذ أتاه أبو يوسف حاجبه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه بثينة. قال: أبثينة جميل؟ قال: نعم. قال: أدخلها. فدخلت امرأةٌ أدماء طويلةٌ يُعلم أنها كانت جميلة، فقال له: يا أبا يوسف، ألق لها كرسيًّا. فألقاه لها. فقال لها عبد

الملك: ويحك! ما رجا منك جميل؟ قالت: الذي رجت منك الأمة حين ولتك أمرها.

وقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان: إن رهطًا من الأنصار دخلوا على معاوية، فقال: يا معشر الأنصار، قريشٌ خيرٌ لكم منكم لهم، فإن يكن ذلك لقتلى أحد فقد قتلتم يوم بدرٍ مثلهم، وإن يكن لإمرةٍ٢٠ فوالله ما جعلتم لي إلى صلتكم سبيلًا، خذلتم عثمان يوم الدار وقتلتم أنصاره يوم الجمل وصَلِيتم بالأمر يوم صفين. فتكلم رجلٌ منهم فقال: يا أمير المؤمنين، أما قولك إن يكن لقتلى أحد، فإن قتيلنا شهيد وحيَّنا تائق. (٢١) وأما ذكرك الإمرة فإن رسول الله ﷺ أمر بالصبر عليها. وأما قولك إنا خذلنا عثمان، فإن الأمر في عثمان إلى قتلته، (٢٢) وأما قولك إنا قتلنا أنصاره يوم الجمل، فذلك ما لا نعتذر منه. وأما قولك إنا صلينا بالأمر يوم صفين، فإنما كنا مع رجل لم نأْلُه خُبْرًا، فإن لمتنا فُربَّ ملومٍ لا ذنب له.

ثم قام هو وأصحابه يجر ثوبه مغضبًا فقال معاوية: ردوهم. فرُدُّوا، فترضاهم حتى رضوا ثم انصرفوا. وأقبل معاوية على رهطٍ من قريشٍ فقال: والله ما فرغ من منطقه حتى ضاق بي مجلسي.

قال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان: دخل قيس بن سعد بن عبادة مع قومٍ من الأنصار على معاوية. فقال معاوية: يا معشر الأنصار، لمَ تطلبون ما قِبلي، فوالله لقد كنتم قليلًا معي كثيرًا عليَّ، ولقد قتلتم جندي(٢٣) يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظَّى في أسنتكم،

وهجوتموني[٢٤] بأشد من وخز الأشافي[٢٥]حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله[٢٦] قلتم: ارع فينا وصية رسول الله ﷺ، هيهات، «أبَى الحَقِين العِذْرَة.» [٢٧] فقال قيس: نطلب ما قِبلك بالإسلام الكافي به اللهُ لا سواه، لا بما تمُتُّ به إليك الأحزاب، وأما عداؤنا لك فلو شئت كففنا عنك، وأما هجاؤنا إياك فقولٌ يزول باطله، ويثبت حقُّه، وأما قتلنا جندك يوم صفين فإنا كنا مع رجل نرى أن طاعته طاعة الله، وأما استقامة الأمر لك فعلى كرهٍ كان منا، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فينا، فمن آمن به رعاها، وأما قولك «أبى الحقين العذرة»، فليس دون الله يدٌ تحجزك، فشأنَك. فقام معاوية فدخل وخرج قيسٌ ومن كان معه.

وقال محمد بن خالد القرشي: دَخَل زُفَرُ بن الحارث الكلابي على عبد الملك بن مروان وعنده خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد وأمية بن عبد الله بن خالد، فقال زفر: لو كان لعبد الله سخاء مصعب وكان لمصعب عبادة عبد الله لكانا ما شاء المتمني. فقال عبد الملك: ما كان سخاء مصعب إلا لعبًا، ولا كانت عبادة عبد الله إلا عبثًا، ولكن لو كان للضحاك بن قيسٍ مثل رجال مروان لكانت قيس أربابًا بالشام، فقال زفر: لو كانت لمروان صحبة الضحاك لكان، فقال عبد الملك: والله ما أحب له مثلَ صحبته ومصرعه، فقال خالد: لولا أن أمير المؤمنين لا يبصر مرعًى[٢٨] لما تركناك والكلامَ. فقال زفر: اربَعا[٢٩] على أنفسكما، ودعانا وخليفتنا واسحبا ذيولكما على خيانة خراسان وسجستان والبصرة.

وقال المدائني: غاب مولى للزبير عن المدينة حينًا، فقال له رجل من قريش لما رجع: أما والله لقد أتيت قومًا يبغضون طلعتك، وفارقت قومًا لا يحبون رجعتك. قال المولى: فلا أنعم الله ممن قدمت عليه عينًا، ولا أخلف الله على من فارقتُ بخير.

قال المدائني: كان مَرْثَد بن حوشب عند سليمان بن عبد الملك، فجرى بينه وبين أبيه كلامٌ حتى تسابَّا، فقال له أبوه: والله ما أنت بابني، قال: والله لأنا أشبه بك منك بأبيك، ولأنت كنت أغير على أمي من أبيك على أمك. فقال له سليمان: قاتلك الله، إنك لابنه.

وسابَّ مرثد أخاه ثمامة، فقال له ثمامة: يا حَلَقِيُّ. (٣٠) فقال له مرثد: يا خبيث، أتسابُّني مُسابَّة الصبيان؟ فوالله إنك لابني، ولقد غلبني حوشب على أمك، وقد ألقحتها بك. (٣١)

وقال ابن عياش المَنْتُوف(٣٢) لأبي شاكر بن هشام بن عبد الملك: لو قصَّرت قميصك، قال له: ما يضرك من طوله؟ قال: تدوسه في الطين، قال: وما ينفعك من دوسه؟

وقال: كان على تبالة(٣٣) رجل من قريش، فقال لرجل من باهلة: من الذي يقول:

إن كنت ترجو أن تنال غنيمةً   في دور باهلة بن يعفر فارحل

قومٌ قتيبة أمهم وأبوهمُ   لولا قتيبة أصبحوا في مجهلِ

فقال الباهلي: ما أدري غير أني أظنه الذي يقول:

يـا شـدةً مـا شـددنا غيـر كاذبـةٍ على سخينةَ لولا الليل والحرمُ(٣٤)

قال: وتكلم ابن ظبيان التيمي يومًا فأكثر، فقال له مالك بن مِسْمَع: إيهًا أبا مطر،(٣٥) فإن للقوم في الكلام نصيبًا. فقال: والله ما إليك جئت، ولو أن بكر بن وائل اجتمعت في بيت بقالٍ لأتيتهم. فقال له مالك: إنما أنت سهمٌ من سهام كنانتي. فقال ابن ظبيان: أنا سهمٌ من سهام كنانتك؟ فوالله لو قمتُ فيها لطلتُها ولو قعدتُ فيها لخرقتها، وايم الله ما أراك تنتهي حتى أرميك بسهمٍ لم يُرَش،(٣٦) تذبل به شفتاك ويجف له ريقك.

وقال رجلٌ للأحنف: بأي شيء سُدتَ تميمًا؟ فوالله ما أنت بأجودهم ولا أشجعهم ولا أجملهم ولا أشرفهم. قال: بخلاف ما أنت فيه. قال: وما خلاف ما أنا فيه؟ قال: تركي ما لا يعنيني من أمور الناس كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

ووفد عُليم بن خالد الهجيميُّ على هشامٍ وعنده الأبرش [الكلبي]، فقال له الأبرش الكلبي: يا أخا بني الهُجيم، من القائل:

لـو يسـمعون بأكلـةٍ أو شـربةٍ بعمـان أصـبح جمعهـم بعمـان

ألكم يقوله؟ قال: نعم، لنا يقوله ولكنكم يا معشر كلبٍ تُعبِرون(٣٧) النساء وتجزُّون(٣٨) الشاء وتكدرون العطاء، وتؤخرون العشاء وتبيعون

الماء. فضحك هشام فلما خرجا قال الأبرش: يا أخا بني الهجيم، أما كانت عندك بقية؟ قال: بلى، لو كان عندك بقية.

قدَّمت امرأةٌ زوجها إلى زياد تنازعه، وقد كانت سِنُّه أعلى من سنها، فجعلت تعيب زوجها وتقع فيه، فقال زوجها: أيها الأمير، إن شر شطري المرأة آخرها وخير شطرَي الرجل آخره. المرأة إذا كبرت عقمت رحمُها، وحدَّ لسانُها، وساء خلُقها، وإن الرجل إذا كبرت سنُّه استحكم رأيُه وكثر حلمُه وقلَّ جهله.

وقال أعشى هَمْدان لامرأته: إنكِ لَسَلِسَة الثَّقْبة، سريعة الوثبة، حديدة الركبة. فقالت: والله إنك لسريع الإراقة بطيء الإفاقة قليل الطاقة.[٣٩] فطلقها وقال:

تقادم عهدُك أمَّ الجلالِ　　وطاشتْ نبالُك عند النضال

وقد بُتَّ[٤٠] حبلك فاستيقني　　بأني طرحتُك ذات الشِّمال[٤١]

وأن لا رجوع فلا تكذبيـ　　ـن ما حنَّتِ[٤٢] النِّيبُ إثر الفصال

قال الغلابيُّ عن غيره: قال رجل لامرأته: أما إنك ما علمتُ لسئولٌ مُنَعة جزوعٌ هلعة، تمشين الدِّفقِيَّ[٤٣] وتقعدين الهبنقعة. فقالت: أما والله إن كان زادي منك لهدية[٤٤] وإن كانت حُظوتي منك لحَذِيَّة،[٤٥] فإنك لابن خبيثة يهودية.

وقال المدائني: قبض كسرى أرضًا لرجل من الدهاقين وأقطعها البحرجان،[٤٦] فقدم صاحب الأرض متظلمًا فأقام بباب كسرى، فركب كسرى يومًا فقعد له الرجل على طريقه يكلمه، فلما حاذاه شد عليه حتى صك بصدره ركبته، ووضع يده على فخذه، فوقف له كسرى وكلمه، فقال له: أرضٌ كانت لأجدادي ورثتها من آبائي قبضتها فأقطعتها البحرجان؟ ارددها عليَّ، فقال له كسرى: مذ كم هذه الأرض في أيدي أجدادك وآبائك؟ فذكر دهرًا طويلًا، فقال له كسرى: والله لقد أكلتموها دهرًا طويلًا، فما عليك في أن تدعها في يد البحرجان عارِيَّةً سُنَيَّاتٍ يستمتع بها ثم يردها عليك، فقال: أيها الملك، قد علمت حسن بلاء بهرام جور في طاعتكم أهل البيت، وما كفاكم من حد عدوكم، ودفعه عنكم كيد الترك، وحسن بلاء آبائه قبل ذلك في طاعة آبائك، فما كان عليك لو أعرته ملكك سنياتٍ يستمتع به ثم يرده إليك؟ فقال كسرى: يا بحرجان، أنت رميتني بهذا السهم اردد عليه أرضه [فردها].

قال رجل من القحاطنة[٤٧] لرجل من أبناء الأعاجم: ما يقول الشعر منكم إلا من كانت أمه زنى بها رجلٌ منا فنزع إلينا. فقال له الثنوي: وكذلك كل من [لم] يقل الشعر منكم، فإنما زنى بأمه رجلٌ منا فحملت به فنزع إلينا، فمن ثم لم يقل الشعر.

وقال رجلٌ من العرب لرجلٍ من أبناء العجم: رأيت في النوم كأني دخلت الجنة فلم أر فيها ثنويًّا. فقال له الثنوي: أصعدت الغرف؟ قال: لا. قال: فمن ثم لم ترهم، هم في الغرف.

قال ابن عياش: ما قطعني إلا رجلٌ من قريشٍ من آل أبي مُعَيْط، وكان ماجنًا[٤٨] شارب خمرٍ، وذاك أني وقفت على بيان التبان[٤٩] الذي أتى[٥٠] به ابن هبيرة الفزاري فأمر بصلبه، فقال لي: ما وقوفك ها هنا يا أبا الجراح؟ قلت: أنظر إلى هذا الشقي الذي يقول إنه نبي. قال: وما أتى به في نبوته؟ قلت: بتحليل الخمر والزنا – وأنا أعرِّض به – فقال: لا، والله لا يُقبل ذلك منه حتى يبرئ الأكمه والأبرص.

قال المدائني: ابن عياش أبرص.

وقال: دخل أبو الأسود الدؤلي على عبيد الله بن زيادٍ، فقال له ابن زياد – وهو يهزأ به: [أمسيت يا أبا الأسود العشية جميلًا، فلو علقت تميمةً تنفي بها عنك العين؟ فعرف أنه يهزأ به]، فقال: أصلح الله الأمير!

أفنى الشباب الذي فارقتُ بهجته مرُّ الجديدين من آتٍ ومنطلقِ

لم يتركا لي في طول اختلافهما شيئًا تُخاف عليه لدغةُ[٥١] الحَدَقِ

وقال المدائني: وقع بين العريان بن الهيثم النخعي وبين بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كلامٌ بين يدي خالد بن عبد الله القسري[٥٢] وخالدٌ يومئذٍ على العراق – وكان متحاملًا على بلال، وكان العريان على شُرطة خالد – فقال العريان لبلال: إني والله ما أنا بأبيض الراحتين ولا منتشر المنخرين، ولا أروَح القدمين ولا محدَّد الأسنان ولا جعدٍ قَطَط. فقال بلال: يا عريان، أتعنيني[٥٣] بهذا؟ قال: لا والله، ولكن كلامٌ يتلو بعضه بعضًا. فقال بلال: يا عريان، أتريد أن تشتم أبا بردة

وأشتم أباك، وتشتم أبا موسى وأشتم جدك؟ هذا والله ما لا يكون. فقال العريان: إني والله ما أجعل أبا موسى فداء الأسود ولا أبا بردة فداء الهيثم، فمثَلي ومثلك في ذلك كما قال مسكينٌ الدارمي: (٥٤)

أنا مسكينٌ لمن أنكرني ولمن يعرفني جِدُّ نَطِقْ(٥٥)

لا أبيع الناس عرضي إنني لو أبيع الناسَ عرضي لنَفَقْ

قال المدائني: جرى بين وكيع بن الجراح وبين رجل من أصحابه كلامٌ في معاوية واختلفا، فقال الرجل لوكيع: ألم يبلغك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن أبا سفيان ومعاوية وعتبة فقال: لعن الله الراكب والقائد والسائق؟ فقال وكيع: إن رسول الله ﷺ قال: «أيما عبدٍ دعوتُ عليه فاجعل ذلك - له أو عليه - رحمةً!» فقال الرجل: أفيسرك أن رسول الله ﷺ لعن والديك فكان ذلك لهما رحمةً؟ فلم يَحر إليه جوابًا.

تكلم صعصعة عند معاوية فعَرق، فقال: وبَهَرَك القول يا صعصعة؟ فقال: إن الجياد نضَّاحةٌ بالماء.

هكذا قال لنا السيرافي، وقد قرأتُ عليه هذه الفِقَر كلَّها، وإنما جمعتها للوزير بعد إحكامها وروايتها.

قال علي بن عبد الله: شهدت الحجاج خارجًا من عند عبد الملك بن مروان، فقال له خالد بن يزيد بن معاوية: إلى متى تقتل أهل العراق يا

أبا محمد؟! فقال: إلى أن يكفوا عن قولهم في أبيك إنه كان يشرب الخمر.

قال المدائني: أَسَرَتْ مزينة حسان بن ثابتٍ – وكان قد هجاهم – فقال:

مزينـــة لا يُـــرى فيهـــا خطيـــبُ ... ولا فَلِـــجٌ يُطـــاف بـــه خضـــيبُ

أنـــاسٌ تَهْلِـــك الأحســـابُ فـــيهم ... يـــرون التـــيس يعدلـــه الحبيـــب

فأتتهم الخزرج يفتدونه فقالوا: (٥٦) نفاديه بتيس. فغضبوا وقاموا، فقال لهم حسان: يا إخوتي، خذوا أخاكم وادفعوا إليهم أخاهم.

وقال المدائني: فرَّق عمر بن الخطاب بين منظور بن أبان وبين امرأته – وكان خَلَف عليها بعد أبيه – فتزوجها طلحة بن عبد الله، فلقيه منظور فقال له: كيف وجدتَ سُؤْري؟ فقال: كما وجدتَ سُؤْر أبيك. فأفحمه.

وقال حاطب بن أبي بلتعة: بعثني النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى المقوقِس ملك الإسكندرية، فأتيته بكتاب رسول الله ﷺ وأبلغته رسالته، فضحك ثم قال: كتب إليَّ صاحبك أن أتبعه على دينه، فما يمنعه إن كان نبيًّا أن يدعو الله أن يسلط عليَّ البحر فيغرقني فيكتفي مئونتي ويأخذ ملكي؟ قلت: فما صنع عيسى إذ أخذته اليهود فربطوه في حبل وحلقوا وسط رأسه، وجعلوا عليه إكليل شوك، وحملوا خشبته التي صلبوه عليها على عنقه، ثم أخرجوه وهو يبكي حتى نصبوه على الخشبة،

ثم طعنوه حيًّا بحربة حتى مات، هذا على زعمكم، فما منعه أن يسأل الله فينجيه ويهلكهم فيكفى مئونتهم ويظهر هو وأصحابه عليهم؟ وما منع يحيى بن زكريا حين سألت امرأة الملكِ الملكَ أن يقتله فقتله وبعث برأسه إليها حتى وُضع بين يديها؛ أن يسأل الله تعالى أن ينجيه ويُهلك الناس؟ فأقبل على جلسائه وقال: إنه والله لحكيمٌ، وما يخرج الحكيم إلا من عند الحكماء.

قال المدائني: أبطأ على رجلٍ من أصحاب الجنيد بن عبد الرحمن ما قِبَله(٥٧) – وهو على خراسان – وكان يقال للرجل زامل بن عمرٍو من بني أسد بن خزيمة، فدخل على الجنيد يومًا فقال: أصلح الله الأمير! قد طال انتظاري، فإن رأى الأمير أن يضرب لي موعدًا أصير إليه فعل. فقال: موعدك الحشر. فخرج زاملٌ متوجهًا إلى أهله، ودخل على الجنيد بعد ذلك رجلٌ من أصحابه فقال: أصلح الله الأمير!

أرحني بخير منك إن كنتَ فاعلًا وإلا فميعادٌ كميعاد زاملِ

قال: وما فعل زامل؟ قال: لحق بأهله. فأبرد الجنيد في أثره بريدًا وبعث يُعْهده إلى الكورة(٥٨) التي يُدرَك بها، [فأُدْرِك] (٥٩) بنيسابور فنزلها.

وامتدح رجلٌ الحسن بن علي عليه السلام بشعرٍ، فأمر له بشيء، فقيل: (٦٠) أتعطي على كلام الشيطان؟ فقال: أبتغي الخير لنفي الشر.

قال المدائني: أتى العبْدانيُّ حمادَ بن أبي حنيفة وقد ملأ عينه كحلًا قد ظهر من محاجر عينه، وعند حمادٍ جماعةٌ. فقال له حماد: كأنك

امرأة نُفَساء. قال: لا، ولكني ثَكلى. قال: على من؟ قال: على أبي حنيفة.

وقال مروان بن الحكم ليحيى: [٦١] إن ابنتك تشكو تزويجك وتزعم أنه[٦٢] يبول في دِثاره. [٦٣] قال: فهو يبول منها فيما هو أعظم من دثاره. [٦٣]

وقال معاوية: هذا عقيلٌ عمه أبو لهب. فقال عقيل: هذا معاوية عمته حمالة الحطب.

قال: ودخل معن بن زائدة على أبي جعفرٍ فقارب في خطوه، فقال أبو جعفر: كبرت سنك يا معن. قال: في طاعتك. قال: وإنك لجَلْد. قال: على أعدائك. قال: إن فيك لبقية. قال: هي لك يا أمير المؤمنين.

قال المنصور لسفيان بن معاوية المهلَّبي: ما أسرع الناسَ إلى قومك! قال سفيان:

إن العَــرانين[٦٤] تلقاهــا محسَّــدةً ولــن تــرى للئــام النــاس حُسَّــادا

فقال: صدقتَ.

قال المدائني: حضرَ قومٌ من قريش مجلس معاوية وفيهم عمرو بن العاص وعبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال عمرو: احمدوا الله يا معشر قريش إذ جعل والي أموركم

من يغضي[٦٥] على القذى، ويتصامم عن العوراء، ويجر ذيله على الخدائع. قال عبد الله بن صفوان: لو لم يكن هذا لمشينا إليه الضَّرَاء، ودبينا[٦٦] له الخمر، وقلبنا له ظهر المِجَنِّ، ورجونا أن يقوم بأمرنا من لا يطعمك مال مصر.

وقال معاوية: يا معشر قريش، حتى متى لا تنصفون من أنفسكم؟

فقال عبد الرحمن بن الحارث: إن عَمرًا وذوي عمرٍو أفسدوك علينا وأفسدونا عليك، ما كان لو أغضيت على هذه؟ فقال: إن عَمرًا لي ناصح. قال: أطعمنا مما[٦٧] أطعمته ثم خذنا بمثل نصيحته، إنك يا معاوية تضرب عوامَّ قريشٍ بأياديك في خواصها كأنك ترى أن كرامها جارَوْك[٦٨] دون لئامها، وايم الله إنك لتفرغ[٦٩] من إناء فَعْم في إناء ضخم، ولكأنك بالحرب قد حُلَّ عقالها ثم لا تُنْظرك. فقال معاوية: يابن أخي،[٧٠] ما أحوج أهلك إليك! ثم أنشد معاوية:

أغرَّ رجالًا من قُريشٍ تشايعوا ... على سفهٍ منا الحيا والتكرُّم؟

وقال المدائني: كان عروة بن الزبير عند عبد الملك بن مروان يحدثه – وعند الحجاج بن يوسف – فقال له عروة في بعض حديثه: قال أبو بكر – يعني عبد الله بن الزبير – فقال الحجاج: أعند أمير المؤمنين تكنى ذلك الفاسق؟ لا أمَّ لك! فقال عروة: ألي تقول هذا لا أمَّ لك، وأنا ابن عجائز الجنة خديجة وصفية وأسماء وعائشة؟! بل لا أم لك أنت يابن المستفرمة[٧١] بعَجَم زبيب الطائف.

وقال: لما صنع هشام بن عبد الملك بغيلان الواعظ ما صنع، قال له رجلٌ: ما ظلمك الله ولا سلط عليك أمير المؤمنين إلا وأنت مستحق، فقال غيلان: قاتلك الله! إنك جاهلٌ بأصحاب الأخدود.

قال عمرو بن العاص: أعجبتني كلمةٌ من أمةٍ، قلت لها ومعها طبق: ما عليه يا جارية؟ قالت: فلِمَ غطيناه إذن؟

وقع ابن الزبير في معاوية ثم دخل عليه فأخبره معاوية ببعضه، فقال: أنى علمتَ ذلك؟ فقال معاوية: أما علمتَ أن ظن الحكيم كهانة؟

وقيل لعمر بن عبد العزيز: ما تقول في علي وعثمان وفي حرب الجمل وصفين؟ قال: تلك دِماءٌ كفَّ الله يدي عنها، فأنا أكره أن أغمس لساني فيها.

وقال: طلق أبو الخِنْدف امرأته أم الخندف، فقالت له: يا أبا الخندف، طلقتني بعد خمسين سنة؟! فقال: ما لك[٧٢] عندي ذنْبٌ غيره.

وقال: لقي جريرٌ الأخطل فقال: يا مالك، ما فعلتْ خنازيرك؟! قال: كثيرةٌ في مرجٍ أفيح، فإن شئت قريناك منها. ثم قال الأخطل: يا أبا حَزْرة، ما فعلتْ أعنازك؟ قال: كثيرةٌ في وادٍ أروح، فإن شئتَ أنزيناك[٧٣] على بعضها.

وقال الشعبي: ذَكر عمرو بن العاص عليًّا فقال: فيه دعابةً، فبلغ ذلك عليًّا فقال: زعم أن النابغة أنى تَلْعابةٌ تَمْراحةٌ ذو دعابةٍ أُعافِس وأُمارس، هيهات! يمنع من العِفاس والمِراس ذكر الموت وخوف البعث

والحساب ومن كان له قلبٌ ففي هذا عن هذا له واعظ وزاجر، أما وشر القول الكذب، إنه ليعد فيُخلف، ويحدِّث فيكذب، فإذا كان يوم البأس فإنه زاجرٌ وآمرٌ ما لم تأخذ السيوف بهام الرجال، فإذا كان ذاك فأعظم مكيدته في نفسه أن يمنح القوم استَه.

قال المدائني: بعث المفضَّل [الضبي] إلى رجل بأضحية، ثم لقيه فقال: كيف كانت أضحيتك؟ فقال: قليلة الدم. وأراد قول الشاعر:

ولو ذُبِح الضبي بالسيف لم تجد   من اللؤم للضبي لحمًا ولا دما

وقال المدائني: مر عقيل بن أبي طالب على أخيه علي بن أبي طالب عليه السلام ومعه تيسٌ، فقال له علي: إن أحد ثلاثتنا أحمق. فقال عقيل: أما أنا وتيسي فلا.

وكلم عامر بن عبد قيسٍ حُمران يومًا في المسجد. فقال له حمران: لا أكثر الله فينا مثلك! فقال عامر: لكن أكثر الله فينا مثلك! فقال له القوم: يا عامر، يقول لك حمران ما لا تقول مثلَه؟ فقال: نعم، يكسحون طرقنا ويحوكون(٧٤) ثيابنا ويخرزون خفافنا. فقيل له: ما كنا نرى أنك تعرف مثل هذا! قال: ما أكثر ما نعرف مما لا تظنون بنا!

وقال: مَرَّ جرير بن عطية على الأحوص وهو على بغلٍ، فأدلى البغلُ فقال الأحوص: بغلك يا أبا حزرة على خمس قوائم. قال جرير: والخامسة أحب إليك.

ومر جريرٌ بالأحوص[٧٥] وهو يفسق بامرأة وينشد:

يقـــر بعينـــي مـــا يقـــر بعينهـــا	وأحسـن شـيء مـا بـه العين قـرتِ

فقال له جرير: فإنه يقر بعينها أن تقعد على مثل ذراع البَكْر، أفتراك تفعل ذلك؟

فقال الوزير: من رأيت من الكبار[٧٦] كان يحفظ هذا الفن وله فيه غزارةٌ وانبعاثٌ وجسارةٌ على الإيراد؟ قلت: ابن عباد على هذا، ويبلغ من قوته أنه يفتعل[٧٧] أشياء شبيهةً بهذا الضرب على من حضر. فقال: الكذب لا خير فيه ولا حلاوة لراويه ولا قبول عند سامعيه.

وقال: أرسل بلال بن أبي بردة إلى أبي علقمة فأتاه، فقال: أتدري لأي شيء أرسلتُ إليك؟ قال: نعم، لتصنع بي خيرًا. قال: أخطأتَ ولكن لأسيء بك. فقال: أما إذ قلت ذاك لقد حكَّم المسلمون حكمين، فسخر أحدهما بالآخر. فقال الوزير: أيقال سَخِر به؟! فكان الجواب أن أبا زيد حكاه وصاحب التصنيف قد رواه، وسخر منه أيضًا كلامٌ، وإنما يقال هو أفصح لأنه في كتاب الله عز وجل وإلا فكلاهما جائز.

وقال حمزة بن بيض الحنفي للفرزدق: يا أبا فراس، أيما أحب إليك أن تسبق الخير أم يسبقك؟ قال: ما أريد أن أسبقه ولا أن يسبقني، بل نكون معًا. ولكن حدِّثني أيما أحب إليك: أن تدخل منزلك فتجد رجلًا على حرامك، أو تجدها قابضةً على قُمُدِّ الرجل؟ فأفحمه.

فلما قرأت الجزء في ضروب الجواب المفحم. قال: ما أفتح[٧٨] هذا النوع من الكلام لأبواب[٧٩] البديهة! وأبعثه لرواقد الذهن! وما يتفاضل الناس عندي بشيء [أحسن] [٨٠] من هذه الكلمات الفوائق الروائق، ما أحسن ما جمعتَ وأتيت به!

هوامش

(١) في «أ»: «في العرضة»، وفي «ب»: «في العرض»، وهو تحريف فيهما.

(٢) في كلتا النسختين: «زمن» بالنون، وهو تحريف. وزمر المروءة: قليلها.

(٣) ورد في «ب» هذان اللفظان «المتهيئة» و«المستجيبة» مهملة حروفهما من النقط تتعذر قراءتهما.

(٤) في «أ»: يؤخذ.

(٥) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «العنزي»، وهو تحريف.

(٦) المركب: الأصل والمنبت. وفي «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «فركيا»، وهو تحريف لا معنى له. وفيها أيضًا: «فراش» مكان «غراس»، وهو تحريف.

(٧) لم نجد في الكتب التي بين أيدينا أن أبا خالد كنية لمروان بن الحكم.

(٨) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: قال ابن عطاء: مر ابن صيفي. وفي العبارة اضطراب ظاهر لا يستقيم به المعنى كما لا يخفى.

(٩) حُذف الجواب هنا للعلم به وهو: «فهو لهم.»

(١٠) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «ينهيك»، وهو تحريف.

(١١) هذه التكملة التي بين مربعين لم ترد في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة، والسياق يقتضي إثباتها إذ إن أسيدًا أبا خالد لم يكن مع القوم.

(١٢) كذا في تاريخ الطبري طبع أوروبا. والذي في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «شنير» بالنون، وهو تصحيف.

(١٣) اكتبها بأسيار: أي اخزم حياءها لئلا ينزي عليها.

(١٤) في العقد الفريد: «سنان بن مكمل»، وفي نهاية الأرب: «أيوب بن ظبيان»، وفي كتاب الكناية والتعريض للثعالبي: «شريك بن محمد.»

(١٥) البيت لجرير.

(١٦) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة «الغيديُّ»، ولم نجد الغيديَّ هذا ضمن أسماء الرواة، والذي وجدناه في أسمائهم الوليد العنبري كما في تاريخ الطبري.

(١٧) في نهاية الأرب: مرت امرأة من العرب بمجلس من مجالس بني نمير، وهو أنسب.

(١٨) الرسحاء: التي خفَّ لحم إليتيها ووركيها.

(١٩) أجرك رسنك: أي تركك وشأنك تفعل ما تشاء. والرسن: المِقْوَد تقاد به الدابة.

(٢٠) في «أ» التي ورد فيها وحدها دون «ب» هذا الكلام: «لدهره»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يؤخذ مما يأتي بعد في جواب الأنصار من قولهم: وأما ذكرك الإمرة ... إلخ. ويريد بالإمرة أنه لا يوليهم الأعمال.

(٢١) تائق: أي إلى أن يُستشهَد. وفي «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة وردت تلك الكلمة مهملة الحروف من النقط. ولعل الصواب ما أثبتنا أو لعل صوابها: «مائت».

(٢٢) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «قلمنا»، وهو تحريف.

(٢٣) في «أ»: «جدي»، وهو تحريف.

(٢٤) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «ولهجوتموني»، وهو تحريف.

(٢٥) في «أ»: «الأثافي» بالثاء، وهو تحريف.

(٢٦) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «مثله» بالثاء، وهو تصحيف. والتصحيح عن العقد الفريد، ج٢، ص١٤٦، طبع بولاق.

(٢٧) وردت هذه العبارة في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «بأي الحقين الغدرة؟» وهو تحريف كما ترى، والتصحيح عن مجمع الأمثال. والحقين: اللبن المحقون، والعِذرة: العذر. وأصله أن رجلًا نزل بقوم فاستسقاهم لبنًا، فاعتلوا عليه وزعموا أن لا لبن عندهم، وكان اللبن محقونًا في وطاب عندهم، فقال هذا المثل. وهو مثل يُضرب للكاذب الذي يعتذر ولا عذر له. يقول: إن اللبن المحقون لديكم يكذبكم في عذركم. والذي في العقد الفريد: «أبى الخبير العذرة.»

(٢٨) يشير خالد بهذه العبارة إلى قول زفر بن الحارث:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وهذا البيت من أبيات قالها زفر حين فرَّ بعد وقعة مرج راهط التي قُتل فيها الضحاك وانتصر فيها مروان، وكان زفر من أصحاب الضحاك.

(٢٩) اربعا: يخاطب خالدًا وأخاه أمية.

(٣٠) يتهمه بداء قبيح، ويقال: أتان حلقية، إذا تداولتها الحُمُر فأصابها داء في رحمها. والحلاق في الأتان ألا تشبع من السِّفاد.

(٣١) يتضح من القصة أن مرثدًا وثمامة أخوان لأب، وبذلك يستقيم الكلام.

(٣٢) كذا في تاريخ الطبري، طبع أوروبا. والذي في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «المشبوق»، وهو تحريف.

(٣٣) كذا في تاريخ الطبري، طبع أوروبا. والذي في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «المشبوق»، وهو تحريف.

(٣٤) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «تأييده» مكان قوله «يا شدة»، و«على سجية» مكان قوله «على سخينة»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين صوابه ما أثبتنا نقلًا عن الأغاني، ج١٩، ص٧٦، طبع بولاق. والبيت لخداش بن زهير. والسخينة: طعام يُتَّخذ من الدقيق وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء. وهو لقب لقريش كانت تعيَّر به لكثرة اتخاذهم لهذا الطعام. وهذا البيت من أبيات أربعة وردت في الأغاني في خبر طويل فانظره ثَم. وها هي ذي الأبيات الثلاثة بعد هذا البيت:

إذ يتقينا هشام بالوليد ولو ... أنا ثففنا هشامًا شالت الخدم

بين الأراك وبين المرج نبطحهم ... زرق الأسنة في أطرافها السمم

فإن سمعتم بجيش سالك شرفًا ... وبطن مر فأخفوا الجرس واكتتموا

(٣٥) في «أ»: «إنها أبا فطر»، وهو تحريف. وقد أثبتنا هذه الكنية عن الكامل للمبرد. والذي في «ب»: إنما ينتظر القوم.

(٣٦) يقال: راش السهم يريشه، إذا وضع عليه الريش ليكون أسرع له. ويريد هنا سهمًا من القول.

(٣٧) تعبرون النساء: أي تتركون ختانهن، يقال: امرأة معبرة، إذا طال بظرها. وفي الأصل: تعيرون بالياء المثناة، وهو تحريف.

(٣٨) في كلتا النسختين: «وتجرون»، وهو تحريف، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٣٩) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «الطاعة»، وهو تحريف.

(٤٠) في رواية: فحنى حنينك.

(٤١) ورد هذا الشطر في «أ» التي وردت فيها هذه الأبيات:بأني فرضتك داب التبال

وهو تصحيف لا معنى له. والتصويب عن شعر أعشى همدان المطبوع في أوروبا ضمن شعر الأعشين.

(٤٢) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه الأبيات: «ما حييت للبنت»، وهو تحريف. والتصحيح عن شعر أعشى همدان المطبوع في أوروبا ضمن شعر الأعشين. والنيب: جمع ناب، وهي المسنة من النياق.

(٤٣) يقال: مشى الدفقي، كزمكي، إذا مشى مسرعًا. وجلس الهبنقعة، إذا جلس مزهوًّا أو جلس متربعًا مادًّا إحدى رجليه في تربعه.

(٤٤) تريد بهذه العبارة أن ما تناله من طعام لدى زوجها يشبه الهدية في ندرته وازدهائه بإطعامها كما يزدهي صاحب الهدية بما أهدى، وأن زوجها يرى أن إطعامها غير واجب، بل هو من قبيل الهدية. هذا ما يلوح لنا من معنى هذه العبارة إن لم يكن فيها تحريف.

(٤٥) في الأصل: «تحدية»، ولعل الصواب ما أثبتنا. والحذية: من معانيها القسمة من الغنيمة، أي إنه كان يعطيها القليل مما يغنم. وقد تكون «الجدية» بالجيم والدال، ومعناها القطعة من الكساء تحت السرج، أي الشيء التافه.

(٤٦) يريد بالبحرجان هنا صاحبَ سفن كسرى ورئيس الملاحين، وهي كلمة فارسية معناها النوتي، كما في المعجم الفارسي الإنجليزي لاستاينجاس.

(٤٧) في «أ»: القحاطبة، وفي «ب» وردت هذه الكلمة مهملة الحروف من النقط.

(٤٨) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «ما حاربا»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٤٩) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «ابن بيان»، ولم نجده فيما راجعناه من الكتب، ولعل الصواب ما أثبتنا نقلًا عن الكامل لابن الأثير والفرق بين الفِرق وعيون الأخبار. وبيان هذا: هو ابن سمعان التميمي، وهو أول من قال بخلق القرآن وغير ذلك من المقالات الزائغة، وكان يقول إنه المشار إليه بقوله تعالى: هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ.

(٥٠) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «أرى»، وهو تحريف. والذي وجدناه في الكتب أن الذي صلب بيانًا هذا هو خالد بن عبد الله لا ابن هبيرة الفزاري، وكان ذلك سنة ١١٩هـ.

(٥١) في رواية: «لذعة».

(٥٢) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «القشيري»، وهو تصحيف.

(٥٣) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «استعن»، وهو تحريف إذ لا يناسب معناه سياق الكلام.

(٥٤) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «الدانقي»، وهو تحريف.

(٥٥) ورد هذا البيت في «أ» التي ورد فيها وحدها هذان البيتان:

أيـــا مســـكين لمـــن تعرفنـــي ولمـــن تبـــادر لـــي حـــد نطـــق؟

وهو تحريف. والتصحيح عن الأغاني في ترجمة مسكين الدارمي.

(٥٦) «فقالوا»: أي آسروه، وهم بنو مزينة.

(٥٧) ما قبله: أي ما قبل الجنيد من العطاء.

(٥٨) بعث يعهده إلى الكورة: أي بعث إلى الكورة التي يُدرك بها يؤمِّنه. يقال: أعهده، إذا أمَّنه وكفله.

(٥٩) لم ترد هذه الكلمة في «أ» التي وردت فيها وحدها دون «ب» هذه القصة، وسياق الكلام يقتضي إثباتها.

(٦٠) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «فقال»، وهو خطأ، أو لعل اسم القائل قد سقط من الناسخ كما يظهر لنا.

(٦١) يريد يحيى بن الحكم أخا مروان.

(٦٢) أنه: أي زوجها.

(٦٣) في «أ» التي وردت فيها وحدها دون «ب» هذه القصة: «داره»، في كلا الموضعين، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٦٤) عرانين القوم: عليتهم، تشبيهًا بعرانين الأنوف.

(٦٥) في نسخة: «يقضي على الهدى».

(٦٦) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام دون «ب»: «ووهنا له الحمى»، مكان «ودبنا له الخمر»، وهو تحريف من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق، يقال: مشى إلى خصمه الضراء ودب إليه الخمر بفتح الخاء والميم، إذا مشى إليه مستخفيًا ليختله. والضراء: الشجر الملتف. والخمر: ما واراك من جرف ونحوه.

(٦٧) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «منذ»، وهو تحريف.

(٦٨) كذا في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة. وجاروك: أي جروا معك فيما تريد. وفي بعض الكتب: حاربوك، يريد أنه يعطي كرامهم خوفًا منهم واتقاءً لحربهم.

(٦٩) في «أ» التي وردت فيها هذه القصة وحدها: «لتغرغر»، ولم نتبين له معنى. والصواب ما أثبتنا كما في العقد الفريد.

(٧٠) في الأصل: «يا براح» مكان «يابن أخي»، ولم نفهم له معنًى. والصواب ما أثبتنا كما في العقد الفريد. وبعد قوله: «ما أحوج أهلك إليك!» قوله: «فلا تفجعهم بنفسك.»

(٧١) المستفرمة بعجم زبيب الطائف: عبارة كان عبد الملك بن مروان قد شتم بها الحجاج في بعض كتبه إليه. وعجم الزبيب: نواه. ويريد أن أمَّه كانت تستفرم به، أي تضعه في فرجها ليضيق.

(٧٢) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «تبًّا لك!»

(٧٣) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «أقريناك» بالقاف والراء، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٧٤) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «ويحولون»، ولا يخفى ما فيها من تحريف ظاهر.

(٧٥) عبارة «ب»: «ومر جرير بالأحوص وهو ينشد»، ثم ذكر البيت.

(٧٦) في «ب»: «الكتاب».

(٧٧) في «أ»: «ينقل»، وهو تحريف.

(٧٨) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «ما أصح»، وهو تحريف.

(٧٩) في «ب»: «لأنواع»، وهو خطأ من الناسخ.

(٨٠) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد في كلتا النسختين، والسياق يقتضيها إذ لا تتم العبارة بدونها.

الليلة الأربعون

وقال مرة أخرى: حدِّثني عن اعتقادك في أبي تمامٍ والبحتري. فكان الجواب: إن هذا الباب مختلفٌ فيه، ولا سبيل إلى رفعه، وقد سبق هذا من الناس في الفرزدق وجريرٍ ومن قبلهما في زهير والنابغة حتى تكلم على ذلك الصدر الأول، مع علو مراتبهم في الدين والعقل والبيان، لكن حدثنا أبو محمد العروضي عن أبي العباس المبرد قال: سألني عبيد الله بن سليمان عن أبي تمام والبحتري، فقلت: أبو تمام يعلو علوًّا رفيعًا، ويسقط سقوطًا قبيحًا، والبحتري أحسن الرجلين نمطًا، وأعذب لفظًا. فقال عبيد الله:

قد كان ذلك ظني ... فعاد ظني يقينا

فقلت: وهذا أيضًا شعر. فقال: ما علمتُ.

فقال: هذه حكايةٌ مفيدةٌ من هذا العالم المتقدم وحكمٌ يلوح منه الإنصاف، وقد أغنى هذا القول عن خوضٍ كثير.

ودَعْ ذا، من أين دخلت الآفة على أصحاب المذاهب حتى افترقوا هذا الافتراق، وتباينوا هذا التباين، وخرجوا إلى التكفير والتفسيق وإباحة الدم والمال ورد الشهادة وإطلاق اللسان بالجرح وبالقَذْع والتهاجر والتقاطع؟!

فكان الجواب: إن المذاهب فروع الأديان والأديان أصول المذاهب، فإذا ساغ[1] الاختلاف في الأديان – وهي الأصول – فلم لا يسوغ في المذاهب وهي الفروع؟

فقال: ولا سواء،[2] الأديان اختلفت بالأنبياء وهم أرباب الصدق والوحي الموثوق به والآيات الدالة على الصدق، وليس كذلك المذاهب.

فقيل: هذا صحيح ولا دافع[3] له، ولكن لما كانت المذاهب نتائج الآراء، والآراء ثمرات العقول والعقول منائح الله للعباد، وهذه النتائج مختلفةٌ بالصفاء والكدر، وبالكمال والنقص وبالقلة والكثرة وبالخفاء والوضوح؛ وجب أن يجري الأمر فيها على مناهج الأديان في الاختلاف والافتراق وإن كانت تلك منوطةً بالنبوة. وبعد، فما دام الناس على فطرٍ كثيرةٍ، وعاداتٍ حسنةٍ وقبيحة، ومناشئ محمودةٍ ومذمومة، وملاحظاتٍ قريبةٍ وبعيدة؛ فلا بدَّ من الاختلاف في كل ما يُختار ويُجتنب، ولا يجوز في الحكمة أن يقع الاتفاق فيما جرى مجرى المذاهب والأديان، ألا ترى أن الاتفاق لم يحصل في تفضيل أمة على أمة، ولا في تفضيل بلدٍ على بلد، ولا في تقديم رجلٍ على رجل؟ ولو لم يكن في هذا الأمر إلا التعصب واللجاج والهوى والمحك والذهاب مع السابق إلى النفس، والموافق [للمزاج] والخفيف على الطباع والمالك للقلب؛ لكان كافيًا بالغًا بالإنسان كل مبلغ.

وشيخنا أبو سليمان يقول كثيرًا: إن الدين موضوعٌ على القبول والتسليم والمبالغة في التعظيم،[4] وليس فيه «لِمَ» و«لا» و«كيف» إلا

بقدر ما يؤكد أصله ويشد أزره وينفي عارض السوء عنه، لأن ما زاد على هذا يوهن [الأصل] بالشك، ويقدح في الفرع بالتهمة.

قال: وهذا لا يخص دينًا دون دين، ولا مقالةً دون مقالة ولا نحلةً دون نحلة، بل هو سارٍ في كل شيء في كل حالٍ في كل زمان، وكل من حاول رفع هذا فقد حاول رفع الفطرة ونفي الطباع وقلب الأصل، وعكس الأمر، وهذا غير مستطاع ولا ممكن، وقد قيل: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.»

وقال لنا القاضي أبو حامد المروَرُّوذي: أنا منذ أربعين سنةً أجتهد مع أصحابنا البصريين في أن أصحح عندهم أن بغداد أطيب من البصرة، وأنا اليوم في كلامي معهم كما كنت في أول كلامي لهم، وكذلك حالهم معي، فهذا هذا. أنظر إلى فضل ومرعوش – وهما من سقط الناس وسِفلتهم – كيف لهج الناس بهما وبالتعصب لهما حتى صار جميع من ببغداد إما مرعوشيًّا وإما فضليًّا؟

ولقد اجتاز ابن معروف وهو على قضاء القضاة بباب الطاق فتعلق بعض هؤلاء المجَّان بلجام بغلته، وقال: أيها القاضي، عرِّفنا أنت مرعوشي أم فضلي، فتحير وعرف ما تحت هذه الكلمة من السفه والفتنة، وأن التخلص بالجواب الرفيق أجدى عليه من العنف والخرق وإظهار السطوة، فالتفت إلى الحراني – وكان معه وهو من الشهود – فقال: يا أبا القاسم، نحن في محلة من؟ قال: في محلة مرعوش، فقال

ابن معروف: كذلك نحن – عافاك الله – من أصحاب محلتنا لا نختار على اختيارهم ولا نتميز فيهم. فقال العَيَّار: امشِ أيها القاضي في ستر الله، مثلك من تعصب للجيران.

فقال الوزير – أحسن الله توفيقه: هذا كله تعصبٌ وهوًى وتماحك[٥] وتكلفٌ. قيل: هذا وإن كان هكذا فهو داخلٌ فيما عداه من حديث الدين والمذهب والصناعة والبلد.

قال أبو سليمان: ولمصلحةٍ عامةٍ نُهي عن المراء والجدال [في الدين] على عادة المتكلمين، الذين يزعمون أنهم ينصرون الدين،[٦] وهم في غاية العداوة للإسلام والمسلمين وأبعد الناس من الطمأنينة واليقين.

ثم حدث فقال: اجتمع رجلان أحدهما يقول بقول هشام، والآخر يقول بقول الجواليقي، فقال صاحب الجواليقي لصاحب هشام: صف لي ربك الذي تعبده، فوصفه بأنه لا يد له ولا جارحة ولا آلة ولا لسان، فقال الجواليقي: أيسرك أن يكون لك ولدٌ بهذا الوصف؟! قال: لا، قال: أما تستحي أن تصف ربك بصفةٍ لا ترضاها لولدك؟! فقال صاحب هشام: إنك قد سمعت ما نقول، صف لي أنت ربك، فقال: إنه جعدٌ قطط في أتم القامات وأحسن الصور والقوام. فقال صاحب هشام: [٧] أيسرك أن تكون لك جاريةٌ بهذه الصفة تطؤها؟! قال: نعم. قال: أفما تستحي من عبادة من تحب مباضعة مثله؟! وذلك لأن من أحب مباضعته فقد أوقع الشهوة عليه.

فقال: هذا من شؤم الكلام ونكد الجدل، فلو كان هناك دين لكان لا يدور هذا في وهم[٨] ولا ينطق به لسان.

وحكى أيضًا قال: ابتُلي غلامٌ أعجمي بوجع شديد فجعل يتأوه ويتلوى ويصيح. فقال له أبوه: يا بني اصبر واحمد الله تعالى. فقال: ولماذا أحمده؟! قال: لأنه ابتلاك بهذا. فاشتد وجع الغلام ورفع صوته بالتأوه أشد مما كان، فقال له أبوه: ولم اشتد جزعك؟! فقال: كنت أظن أن غير الله ابتلاني بهذا، فكنت أرجوه أن يعافيني من هذا البلاء ويصرفه عني، فأما إذ كان هو الذي ابتلاني به فمن أرجو أن يعافيني؟! فالآن اشتد جزعي وعظمت مصيبتي. قال: ولو علم أن الذي ابتلاه هو الذي استصلحه بالبلاء ليكون إذا وهب له العافية شاكرًا له عليها بحسٍّ صحيحٍ وعلمٍ تامٍّ؛ لكان لا يرى ما قاله وتوهمه لازمًا.

وحكى أيضًا أن رجلًا من العجم حج وتعلق بأستار الكعبة فطفق يدعو ويقول: يا من خلق السباع الضارية، والهوام العادية، وسلطها على الناس، وضربهم بالزمانة والعمى والفقر والحاجة، فوثب الناس عليه وسبوه وزجروه وقالوا: ادعُ الله بأسمائه الحسنى. فأظهر لهم الندامة والتقارف[٩] فخلوا عنه بعد ما أرادوا الوقيعة به، فرجع وتعلق بأستار الكعبة، وجعل ينادي: يا من لم يخلق السباع الضارية ولا الهوام، ولا سلطها على الناس، ولم يضرب الناس بالأوجاع والأسقام. فوثبوا [عليه] أيضًا وقالوا له: لا تقل هذا فإن الله خالق كل شيءٍ، فقال: ما أدري كيف أعمل؟! إن قلتُ: إن الله خالق هذه الأشياء وثبتم عليَّ، وإن قلت: [إن

الله] لم يخلقها وثبتم عليَّ، فقالوا: هذا ينبغي أن تعلمه بقلبك ولا تدعُ الله به.

قال أبو سليمان: وهذا أيضًا من شؤم الكلام وشُبَه المتكلمين الذين يقولون: لا يجوز[١٠] أن يُعتقد شيءٌ بالتقليد ولا بدَّ من دليل، ثم يدللون ويختلفون ثم يرجعون إلى القول بأن الأدلة متكافئة.

وكان ابن البقال يجهر بهذا القول، فقلت له مرة: لم ملت إلى هذا المذهب؟ فقال: لأني وجدت الأدلة متدافعةً في أنفسها، ورأيت أصحابها يزخرفونها ويموهونها لتقبل منهم، وكانوا كأصحاب الزيوف الذين يغشون النقد ليَنفُق عندهم وتدور المغالطة[١١] بينهم. فقلت له: أما تعرف بأن الحق حق والباطل باطل؟ قال: بلى، ولكن لا يتبين[١٢] أحدهما من الآخر. قلتُ: أفلأنه لا يتبين لك الحق من الباطل تعتقد أن الحق باطل وأن الباطل حق؟ قال: لا أجيء إلى حق أعرفه بعينه فأعتقد أنه باطل، ولا أجيء أيضًا إلى باطل أعرفه بعينه فأعتقد أنه حق، ولكن لما التبس الحق بالباطل والباطل بالحق قلت: إن الأدلة عليهما ولهما متكافئة، وإنها موقوفةٌ على حذق الحاذق في نصرته، وضعف الضعيف في الذب عنه. قلت: فكأنك قد رجعت عن اعترافك بالحق أنه حق وبالباطل أنه باطل. قال: ما رجعت. قلت: فكأنك تدعي الحق حقًّا جملةً والباطل باطلًا جملةً من غير أن تميز بالتفصيل. قال: كذا هو. قلت: فما نفعك[١٣] بالاعتراف بالحق وأنه متميزٌ عن الباطل في الأصل، وأنت لا تميز بينهما في التفصيل؟ قال: والله ما أدري ما نفعي منه. قلت: فلمَ لا

تقول: الرأي أن أقف فلا أحكم على الأدلة بالتكافؤ، لأن الباطل لا يقاوم الحق، والحق لا يتشبه بالباطل، إلى أن يفتح الله بصري فأرى الحق حقًّا في التفصيل، والباطل باطلًا على التحصيل، كما رأيتهما في الجملة، وأن الذي فتح بصري على ذلك في الأول هو الذي غض بصري عنه في الثاني؟ قال: ينبغي أن أنظر فيما قلت. فقلت: انظر إن كان لك نظر، ولا تتكلف النظر ما دام بك عمًى أو عشًا أو رمد.

وحكى لنا أبو سليمان قال: وصف لنا بعض النصارى الجنة فقال: ليس فيها أكلٌ ولا شربٌ ولا نكاح. فسمع ذلك بعض المتكلمين فقال: ما تصف إلا الحزن والأسف والبلاء.

وقال أبو عيسى الوراق – وكان من حذاق المتكلمين –إن الآمر بما يعلم أن المأمور لا يفعله سفيه، وقد علم الله من الكفار أنهم لا يؤمنون، فليس لأمرهم بالإيمان وجهٌ في الحكمة.

قال أبو سليمان: انظر كيف ذهب عليه السر في هذه الحال، من أين أتوا؟ وكيف لزمتهم الحجة؟

وقال أبو عيسى أيضًا: المعاقب الذي لا يستصلح بعقوبته من عاقبه، ولا يستصلح به غيره، ولا يشفي غيظه بعقوبته؛ جائر، لأنه قد وضع العقوبة في غير موضعها. قال: لأن الله تعالى لا يستصلح أهل النار ولا غيرهم، ولا يشفي غيظه بعقوبتهم، فليس للعقوبة وجهٌ في الحكمة. هذا غرض كتابه الذي نسبه إلى الغريب المشرقي.

وقال أبو سعيد الحضرمي – وكان من حذاق المتكلمين ببغداد، وهو الذي تظاهر بالقول بتكافؤ الأدلة: إن كان الله عدلًا كريمًا جوادًا عليمًا رءوفًا رحيمًا فإنه سيصيِّر جميع خلقه إلى جنته، وذلك أنهم جميعًا على اختلافهم يجتهدون في طلب مرضاته، فيهربون من وقع سخطه بقدر علمهم ومبلغ عقولهم، وإنما تركوا اتباع أمره لأنهم خُدعوا، وزُيِّن لهم الباطل باسم الحق، ومثلهم في ذلك مثل رجل حمل هديةً إلى ملك، فعرض له في الطريق قومٌ شأنهم الخداع والمكر والاستلال(١٤) فنصبوا له رجلًا، وسموه باسم الملك الذي كان قصَده، فسلم الهدية إليهم، فالملك الذي قصده إن كان كريمًا فإنه يعذره ويرحمه ويزيد في كرامته وبره حين يقف على قصته، وهذا أولى به من أن يغضب عليه ويعاقبه.

وقال أبو سليمان: ذكروا أن رجلًا رأى قومًا يتناظرون، فجلس إليهم فرآهم مختلفين، فأقبل على رجل منهم فقال: أتلزمني أن أقول بقولك وأنا لا أعلم أنك محق، فإن قلتَ: نعم، قلتُ لك: إن بعض جلسائك يدعونني إلى مخالفتك واتباعه، وليس عندي علمٌ بالمحق منكم، وإن ألزمتني أن أتبع كلكم فهذا محال، وإن قلت: لا يلزمك أن تتبعني ولا غيري إلا بعد العلم بالمحق منكم، لم يخل العلم بذلك من أن يكون فعلي أو فعل غيري، فإن كان العلم فعلًا لغيري فقد صرت مضطرًّا، ولا أستوجب عليه حمدًا ولا ذمًّا [وإن كان الفعل لي] فمن أعظم جهالةً ممن يفعل ما يلزمه الأمر والنهي به، وإن قصَّر صيره ذلك إلى العطب والهلاك؟ مع أن هذا القول يؤدي إلى أن أكون أنا المعترض على نفسي، لأنه إنما يلزمني ذلك إذا علمت أني أقدر أن أعلم وألا أعلم.

وحكى لنا أيضًا قال: سُئل عندنا رجلٌ من المتحيرين بسجستان فقيل له: [ما دليلك على صحة مقالتك؟ فقال: لا دليل ولا حجة. فقيل له:] وما الذي أحوجك إلى هذا؟ قال: لأني رأيت الدليل لا يكون إلا من وجوه ثلاثة: إما من طريق النبوة والآيات، فإن كان إنما يثبت من هذه الجهة فلم أشاهد شيئًا من ذلك ثبتت عندي مقالته.

وإما أن يكون ينبت بالكلام والقياس، فإن كان إنما يثبت بذلك فقد رأيتني مرةً أَخصِم ومرةً أُخصَم، ورأيتني أعجِز عن الحجة فأجدها عند غيري، وأتنبه إليها من تلقاء نفسي بعد ذلك، فيصح عندي ما كان باطلًا، ويفسد عندي ما كان صحيحًا، فلما كان هذا الوصف على ما وصفت لم يكن لي أن أقضي لشيء بصحةٍ من هذه الجهة، ولا أقضي على شيء بفسادٍ لعدم الحجة.

وإما أن تكون ثبتت بالأخبار عن الكتب فلم أجد أهل ملةٍ أولى بذلك من غيرهم، ولم أجد إلى تصديق كلهم سبيلًا. وكان تصديق الفرقة الواحدة دون ما سواها جورًا، لأن الفرق متساويةٌ في الدعوى والحجة والذب والنصرة. فقيل له: فلم تدين بدينك هذا الذي أنت على شعاره وحليته، وهديه وهيئته؟

فقال: لأن له حرمةً ليست لغيره، وذاك أني وُلدت فيه ونشأت عليه، وتشربت حلاوته وألفت عادة أهله، فكان مثلي كمثل رجلٍ دخل خانًا يستظل فيه ساعةً من نهار والسماء مصحيةٌ، فأدخله صاحب الخان

بيتًا من البيوت من غير تخبرٍ ولا معرفةٍ بصلاحه، فبينا هو كذلك إذ نشأت سحابةٌ فمطرت جَودًا، ووكف البيت، فنظر إلى البيوت التي في الفندق فرآها أيضًا تَكِف، ورأى في صحن الدار ردغة، ففكر أن يقيم مكانه ولا ينتقل إلى بيتٍ [آخر] ويربح الراحة، ولا يلطخ رجليه بالردغة والوحل اللذين في الصحن، ومال إلى الصبر في بيته، والمقام على ما هو عليه، وكان هذا مثلي، وُلدت ولا عقل لي، ثم أدخلني أبواي في هذا الدين من غير خبرةٍ مني، فلما فتشت عنه رأيت سبيله سبيل غيره، ورأيتني في صبري عليه أعز مني في تركه، إذ كنت لا أدعه وأميل إلى غيره إلا باختيار مني لذلك، وأثَرةٍ له عليه، ولست أجد له حجةً إلا وأجد لغيره عليه مثلها.

وحكى لنا ابن البقال – وكان من دهاة الناس – قال: قال ابن الهيثم: جُمع بيني وبين عثمان بن خالد، فقال لي: أحب أن أناظرك في الإمامة. فقلت: إنك لا تناظرني وإنما تشير عليَّ. فقال: ما أفعل ذلك ولا هذا موضع مشورة، وإنما اجتمعنا للمناظرة. فقلت له: فإنا قد أجمعنا على أن أولى الناس بالإمامة أفضلهم، وقد سبقنا القوم الذين يُتنازع في فضلهم، وإنما يُعرف فضلهم بالنقل والخبر، فإن أحببت سلمتُ لك ما ترويه أنت وأهل مذهبك في صاحبك، وتسلم لي ما أرويه أنا وفرقتي في صاحبي، ثم أناظرك في أي الفضائل أعلى وأشرف. قال: لا أريد هذا، وذاك أني أروي مع أصحابي أن صاحبي رجلٌ من المسلمين يصيب ويخطئ، ويعلم ويجهل، وأنت تقول في صاحبك: إنه معصومٌ من الخطأ، عالمٌ بما يحتاج إليه. فكيف أرضى هذه الجملة؟ قلت: فأقبل كلَّ شيء

ترويه أنت وأصحابك في صاحبي من حمدٍ أو ذم، وتقبل أنت كل شيء أرويه أنا وأصحابي في صاحبك من حمدٍ أو ذم. قال: هذا أقبح من الأول، وذلك أني وأصحابي نروي أن صاحبك مؤمنٌ خيِّرٌ فاضل، وأنت وأصحابك تروون أن صاحبي كافرٌ منافق، فكيف أقبل هذا منك وأناظرك عليه؟

قال ابن الهيثم: فلم يبق إلا أن أقول: دع قولك وقول أصحابك، واقبل قولي وقول أصحابي. قال: ما هو إلا ذاك. قلت: هذه مشورة وليست مناظرة. قال: صدقت.

وحكى لنا الزهيري قال: سأل رجلٌ آخر فقال: أتقول إن الله نهانا أن نعبد إلهين؟ قال: نعم. قال: [وأمرنا أن نعبد إلهًا واحدًا؟ قال:] نعم. قال: فالاثنان اللذان نهانا عن عبادتهما معقولان هكذا؟ وأشار بإصبعيه، قال: نعم. قال: فالواحد الذي أمرنا بعبادته معقولٌ هكذا؟ وأشار بإصبع واحدة. قال: لا. قال: فقد نهانا عما يُعقل وأمرنا بما لا يُعقل، وهذا يُعلم ما فيه فانظر حسنًا.

وحكى لنا الزهيري قال: حدثنا ابن الأخشاد قال: تناظر رجلان في وصف الباري سبحانه، واشتد بينهما الجدال، فتراضيا بأول من يطلع عليهما ويحكم بينهما، فطلع أعرابي، فأجلساه وقصَّا قصتهما، ووصفا له مذهبيهما، فقال الأعرابي لأحدهما – وكان مشبِّهًا: أما أنت فتصف

صنمًا. وقال للثاني: وأما أنت فتصف عدمًا، وكلاكما تقولان على الله ما لم تعلما.

وقال لنا الأنصاري أبو كعب: قال ابن الطحان الضرير البصري – وكان يقول بقول جهم: إذا كان يوم القيامة بدل الله سيئات المؤمنين حسنات، فيندمون على ما قصروا فيه من تناول اللذات، وقضاء الأوطار بالشهوات، لأنهم كانوا يتوقعون العقاب، فنالوا الثواب، وكان يتلو عند هذا الحديث قول الله عز وجل: فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ.

وحكى لنا ابن الثلَّاج قال: قال أبو عثمان الآدمي: إن الجنة لا ساتر فيها، وذلك لأن كل ساتر مانع، وكل مانع آفة، وليست في الجنة آفة، ولهذا رُوي في الحديث: إن الحور يُرى مخُّ ساقها من وراء سبعين حلةً سوى ما تحت ذلك من اللحم والعظم، كالسلك في الياقوت، فقال له قائل: الجنة إذن أولى من الحمام، إذ قيل: بئس البيت الحمام! يُذهب الحياء، ويُبدي العورة.

وحكى لنا ابن ربَّاطٍ الكوفي – وكان رئيس الشيعة ببغداد، ولم أر أنطق منه – قال: قيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من أين جاء اختلاف الناس في الحديث؟ فقال: الناس أربعة: رجلٌ منافقٌ كذب على رسول الله ﷺ متعمدًا، فلو عُلم أنه منافقٌ ما صُدِّق[١٥] ولا أُخِذ عنه. ورجلٌ سمع رسول الله ﷺ يقول قولًا أو رآه يفعل فعلًا ثم غاب ونُسخ ذلك من قوله أو فعله، فلو علم أنه نُسخ ما حدث ولا

عمل به، ولو علم الناس أنه نُسخ ما قبلوا منه ولا أخذوا عنه، ورجلٌ سمع رسول الله ﷺ يقول قولًا فوَهِم فيه، فلو علم أنه وَهِم ما حدَّث ولا عمل به. ورجلٌ لم يكذب ولم يَهِم وشَهِد ولم يغب.

قال: وإنما دل بهذا على نفسه؛ ولهذا قال: كنتُ إذا سئلت أجبت، وإذا سكتُّ ابتُدئت.

وحكى لنا ابن زرعة النصراني قال: قيل للمسيح: ما بال الرجلين يسمعان الحق فيقبله أحدهما ولا يقبله الآخر؟ فقال: مثل ذلك مثل الراعي الذي يصوت بغنمه فتأتيه هذه الشاة بندائه ولا تأتيه هذه.

قال أبو سليمان: هذا جوابٌ مبتور، وليس له سَنن، ولعل الترجمة قد حافت عليه والمعنى انحرف عن الغاية، وليس يجوز أن يكون حال الإنسان كيف كان حالَ الشاة في إجابة الداعي وإبائها،[١٦] فإن له دواعي وموانع عقليةً [وحسية].

فقال الوزير: هذا أيضًا بابٌ قد مضى مستوفًى، ما الذي سمعتَ اليوم؟ فقلتُ: رأيت ابن برمويه في دعوة، وترامى الحديث فقال: رأيت اليوم الوزير شديد العبوس، أهو هكذا أبدًا أم عرَض له هذا على بختي؟ فقال ابن جبلة: لعله كان ذاك لسبب، وإلا فالبِشر غالبٌ على وجهه والبشاشة مألوفةٌ منه. فقال ابن برمويه: ما أحسن ما قال الشاعر:

أخو البِشر محمودٌ على حسن بشره ... ولن يَعدم البغضاءَ من كان عابسا

فقال علي بن محمد – رسول سجستان: ما أدري ما أنتما فيه، ولكن يقال: ما أرضى الغضبان ولا استعطف السلطان، ولا ملَك الإخوان، ولا استُلت الشحناء، ولا رُفعت البغضاء، ولا تُوقي المحذور، ولا اجتُلب السرور، بمثل البشر والبر والهدية والعطية.

وقال الوزير: هات ملحة المجلس. (١٧)

فكان الجواب: قال أبو همام ذات يوم: لو كان النخل لا يحمل بعضُه إلا الرطب، وبعضُه [إلا] البُسْر، وبعضه إلا الخلال، (١٨) وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرةً خلق الله مكانها بسرتين، ما كان بذلك بأس.

ثم قال: أستغفر الله، لو كنتُ تمنيت بدل نواة التمر زبدةً كان أصوب.

وسأل الوزير: هل يقال في النساء رَجُلة؟

فكان الجواب: حدثنا أبو سعيد السيرافي قال: كان يقال في عائشة بنت أبي بكرٍ الصديق [رضي الله عنهما]: «كانت رجلة العرب»، وإنما ضاعت هذه الصفة على مر الأيام بغلبة العجمان، فقال: إنها والله لكذلك، ولقد سمعت من يقول: كان يقال: لو كان لأبيها ذَكَرٌ مثلها لما خرج الأمر منه.

قال: هل تحفظ من كلامها شيئًا؟ فقلت: لها كلامٌ كثيرٌ في الشريعة، والرواية عنها شائعةٌ في الأحكام، ولقد نطقت بعد موت أبيها بما حُفظ وأذيع، لكني أحفظ لها ما قالته لما قُتل عثمان:

خرجتْ والناس مجتمعون وعليٌّ فيهم، فقالت: أقُتل أمير المؤمنين عثمان؟ قالوا: نعم، قالت: أما والله لقد كنتم إلى تسديد الحق وتأكيده أحوج منكم إلى ما نهضتم إليه، من طاعة من خالف عليه، ولكن كلما زادكم الله صحةً في دينه، ازددتم تثاقلًا عن نصرته طمعًا في دنياكم، أما والله لهدم النعمة أيسر من بنيانها، وما الزيادة إليكم بالشكر بأسرع من زوال النعمة عنكم بالكفر. أما لئن كان فَنِي أكله، واختُرم أجله، إنه لصهر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مرتين، وما علمنا [خَلقًا] تزوج ابنتَي نبي غيره، ولو غير أيديكم قرعتْ صفاته لوُجد عند تلظِّي الحرب متجردًا[١٩] ولسيوف النصر متقلدًا، ولكنها فتنةٌ قُدحت بأيدي الظلمة. أما والله لقد حاط الإسلامَ وأكده، وعضد الدين وأيده، ولقد هدم الله به صياصي أهل الشرك ووقم[٢٠] أركان الكفر. لله المصيبة به ما أفجعها! والفجيعة به ما أوجعها! صدَّع والله مقتله صفاة الدين وثلمت مصيبته ذروة الإسلام، تبًّا لقاتله! أعاذنا الله وإياكم من التلبس بدمه والرضا بقتله!

فقال الوزير: ما أفصح لسانها وأشجع جنانها، في ذلك المحفل الذي يتبلبل فيه كل قُلقُل! [٢١]

ورُوِّيتُ أيضًا أنها قالت: مكارم الأخلاق عشر: صدق الحديث وصِدق البأس[٢٢] وأداء الأمانة وصلة الرحم، وبذل المعروف والتذمم للجار والتذمم للصاحب والمكافأة بالصنائع وقِري الضيف، ورأسهن الحياء.

فقال: والله لكأنها نغمات النبي ﷺ، ما كان أشهمها وأعلى نظرها وأبين جوابَها!

وحدَّثني أن امرأةً تظلمت إلى مسلم بن قتيبة بخراسان، فزبرها ولم ينظر في قصتها، فقالت له: إن أمير المؤمنين بعثك إلى خراسان لتنظر هل تثبت خراسان بلا عاملٍ أم لا. فقال لها مسلم: اسكتي ويلك! فظلامتك مسموعة وحاجتك مقضية.

وقال مسلم: ما وخز قلبي قط شيءٌ مثل قول هذه المرأة، ولقد آليتُ ألا أستهين بأحدٍ من ذكرٍ أو أنثى.

وشبيهٌ بهذا قول المعلَّى بن أيوب: رأيت في دار المأمون إنسانًا فازدريته، فقلت: لأي شيء تصلح أنت؟ على غيظٍ مني وتغضب، فقال: أنا أصلح لأن يقال لي: هل يصلح مثلك لما أنت فيه أو لا. قال: فوالله ما وقرتْ كلمته في أذني حتى أظلم عليَّ الجو ونكرت نفسي.

وكان عبد الملك بن مروان إذا كان له خصي وضيءٌ أمر أن يُحجب عن نسائه، وقال: هو رجلٌ وإن قُطع منه ما قُطع، وربما اجتزأت امرأةٌ بمثلها وللعين حظها.

قال عبد الرحمن بن سعيد القرشي: كان لهشام بن عبد الملك خصي يقال له خالد، وكان وضيئًا تأخذه العين، مديد القامة فخمًا أبيض، فأمر هشامٌ مسلمة بالغدو عليه فغدا، فقيل: استأذن لأخي أمير المؤمنين

عليه، فاستخف وقال كلمةً سمعها مسلمة، فحقدها عليه، فلما دخل مسلمة إلى هشام لم يزل يذاكره شيئًا، ويشير عليه حتى حُط عن فرشه وجلسا على البساط ومسلمة في ذلك يرمق الخصي متى يمر به، فلم يلبث أن مر معممًا بعمامة وشْي، فقال مسلمة: يا أمير المؤمنين، أي فتياننا هذا؟ قال: غفر الله لك يا أبا سعد! هذا خالد الخصي. قال: فقال: يا أمير المؤمنين، لضمةٌ من هذا خيرٌ من مجامعة رجل، فقلق هشامٌ وجعل يتضوَّر حتى قام مسلمة، ثم أمر بالخادم فأُخرج من الرصافة، فاتصل ببعض بنيه، فكتب إليه هشام: إني نحيته لما بلغك، فجفاه، فلحق الخادم بالثغر.

وجرى حديث النفس وأنها كيف تعلم الأشياء، فقيل: النفس في الأصل علَّامة، والعلم صورتها، لكنها لما لابست البدن، وصار البدن بها إنسانًا، اعترضت حجبٌ بينها وبين صورتها كثيفةٌ ولطيفة، فصارت تخرق الحجب بكل ما استطاعت لتصل إلى ما لها من غيبها، فصارت تعلم الماضي بالاستخبار والتعرف والبحث والمسألة والتنقير، وتعلم الآتي بالتلقي والتوكُّف والتبشير والإنذار، وتعلم الحاضر بالتعارف(٢٣) والمشاهدة ومجال الحس، وهذه المعلومات كلها زمانية؛ ولهذا انقسم بين الماضي والآتي والحاضر.

فأما ما هو فوق الزمان فإنها تعلمه بالمصادفة الخارجة من الزمان العالية على حصر(٢٤) الدهر، وهذه عبارةٌ عن وجدانها لما لها في غيبها بالحركة اللائقة بها، أعني الحركة التي هي في نوع السكون، وأعني بهذا

السكون الذي هو في نوعِ الحركة، ولما فُقد الاسم الخاص بهذا المعنى، ولم يُعرف في الإخبار والاستخبار إلا ما كان مألوفًا بالزمان؛ التبست العبارة عنه باعتماد السكون فيما يُلحظ منه الحركة، واعتمادِ الحركة فيما يُلحظ منه السكون، فصار هذا الجزء(٢٥) كأنه ناقضٌ ومنقوض، وهذا لجذب(٢٦) محلِّ الحس من نبت(٢٧) العقل، وخصب(٢٨) مَرَاد العقل بكل ما علق بالموجود الحق.

فقال الوزير: ما أعلى نجد هذا الكلام! وما أعمق غورَه! وإني لأعذِر كلَّ من قابل هذا المسموعَ بالرد، واعترض على قائله بالتكبر. ولعمري إذا تعايت الأشياء بالأسماء والصفات، وعرض العجز عن إبانتها بحقائق الألقاب؛ حار العقل الإنساني وحُيِّر الفهم الحسي، واستحال المزاج البشري وتهافت التركيب الطيني، وقدَّر الناظر في هذا الفن، والباحثُ عن هذا المستكن أنه حالم وأن الحُلم لا ثمرة له ولا جدوى منه.

وهذا كله هكذا ما دام مقيسًا إلى الأمور القائمة(٢٩) بشهادة الإحساس. فأما إذا صفا الناظر، أعني ناظر العقل من قذى الحس، فإن المطلوب يكون حاضرًا أكثر مما يكون غيره ظاهرًا مستبانًا، وليست شهادة العبد كشهادة المولى، ولا نور السُّهى كنور القمر.

قال: أنشِدني أبياتًا غريبةً جزْلة. فأنشدتُ [لهدبة العُذْري]:

سآوي إلى خيرٍ فقد فاتني الصِّبا وصِيح برَيْعان الشبابِ فنُفِّرا

أمورٌ وألوانٌ وحالٌ تقلبت بنا وزمانٌ عُرْفه قد تنكرا

أُصبنا بما لو أن سلمى أصابه ... تسهَّل من أركانه ما توعَّرا

وإن ننج من أهوال ما خاف قومُنا ... علينا فإن الله ما شاء يسَّرا

وإن غالنا دهرٌ فقد غال قبلنا ... ملوك بني نصرٍ وكسرى وقيصرا

وذي نَيْرَبٍ[٣٠] قد عابني لينالني ... فأعيا مداه عن مداي فأقصرا

فإن يك دهر نالني فأصابني ... بريبٍ فما تُشْوي[٣١] الحوادثُ معشرا

فلستُ إذا الضراء نابت بجُبَّإٍ[٣٢] ... ولا جَزِعٍ إن كان دهرٌ تغيَّرا

فقيل: ما الجُبَّأ؟ فقال: الجبان.

قال أبو سعيد: حكى العلماء أن فلانًا جُبَّأٌ، إذا نكل.

فقال: ما أمتن هذا الكلام، وألطف هذا الجَدَد! وما أبعده من تلفيق الضرورة وهُجْنة التكلف، ولولا أن سامعه ربما تطيَّر به وانكسر عليه.

فكان الجواب: قد مرَّ في الفأل والزجر والطيرة والاعتياف ما إذا تُحقِّق لم يُعَج على مثل هذا الاستشعار. ولعمري إن المذكور والمسموع إذا كان حسنًا وجميلًا ومحبوبًا ومُتمنًّى، كان أخفَّ على القلب، وأخلط بالنفس، وأعبث بالروح، وكذلك[٣٣]إذا كان ذلك على الضد، فإنه يكون أزوى للوجه وأكرب للنفس، ولكن الأمور في الخيرات والشرور ليست فاشية من الطِّيَرة والعيافة، ولا جارية على هذه الحدود المعروفة، وهي على مقاصدها التي هي غاياتها، ومتوجَّهاتها التي هي نهاياتها. وإنما هذه

الأخلاق عارضةٌ للنساء وأشباه النساء، ومَن بنيته[٣٤] ضعيفة ومادته من العقل طفيفة وعادته الجارية سخيفة، وإلا فبأي برهانٍ صح أن الكلام الطيب يجلب المحبوب ويكون علةً له، وأن اللفظ الخبيث يجلب المكروه ويكون علةً له؟! هذا خورٌ في طباع قائله وتأنثٌ[٣٥] في عنصر مستشعِره. ولو سلك العلماء والبصراء هذا الطريق في كل حالٍ وفي كل أمرٍ لأدى ذلك إلى فسادٍ عام. وآثر[٣٦] ما في هذه القصة أن الإنسان إن أعجبه شيءٌ من هذا لا يعوِّل عليه، وإن ساء منه شيءٌ لا يحط إليه، بل يكون توكُّله على ربه في مسرته ومساءته أكثر من تفرده بحوله وقوته في اختياره وتكرُّهه، وهذا يحتاج إلى عقلٍ رصين وهمةٍ٣٧ صاعدة وشكيمةٍ شديدة، وليس يوجد هذا عند كل أحد، ولا يصاب مع كل إنسان.

فقال الوزير: قد أخذت المسألة بحقها، والمستزيد منها ظالم، والزائد عليها متكلف.

وقال أيضًا: أريد أن أسألك عن ابن فارسٍ أبي الفتح – فقد كنتَ عنده بقَرْمِيسين[٣٨] أيامًا – وما وضَح لك من تقدمه وتأخره في صناعته وبضاعته.

فكان من الجواب: إنه شيخٌ فيه محاسن ومساوئ، إلا أن الرجحان لما يُذَمُّ به لا لما يُحمد عليه، فمن ذلك أن له خبرة بالتصرف، وهناك[٣٩] أيضًا قسطٌ من العلم بأوائل الهندسة وتشبُّه[٤٠] بأصحاب البلاغة ومذاكرةٌ في المحافل صالحة، إلا أن هذا كله مردودٌ بالرعونة

والمكر[٤١] والإيهام والخسة والكذب والغيبة، وقد كان قرينه بقرميسين يظن به خيرًا، ويلحظه بعينٍ ما، فلما سبره ذمه وكره أن يعاجله بالصرف لئلا يحكم على اختياره بالخطأ، وعلى تصرفه بالهوى. وللكبراء وذوي القدرة زلاتٌ فاحشة وفَعَلاتٌ موحشة، ولكن ليس لهم [عليها] معيِّر للخوف منهم، فلما تمادى قليلًا وجَّه ابن وصيفٍ حتى صرفه،[٤٢] وقيَّده [بعدما وبخه وفنده]، وها هو ذا أُلقي ها هنا لا يُقبل بقَبْصة[٤٣]ولا يُلتفت إليه بلحظة، ومع ذلك يظن أن فقر الدولة إلى نظره كفقر المُدْنَف إلى عافيته.

وله مع طاهر بن محمد بن إبراهيم شِرار[٤٤] وقَبْقَبة[٤٥] وتنديد وشُنعة.

وحدثني ابن أحمد أمس أن ابن فارس شارعٌ في أمور خبيثة وعازمٌ على أشياء قبيحةٍ، ومُضرِّبٌ بين أقوامٍ ضمَّتهم الألفة، واستحكمت بينهم الثقة، وخلصوا[٤٦]حفظةً للدولة، وحرسًا للنعمة، وعلموا أن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم، وما أخوفني على إخواننا الذين بهم عذُب شربنا، وأمن سربنا كفانا الله فيهم وكفاهم فينا كلَّ مكروه!

فقال: هو أضيق مبعرًا وأقمأ منظرًا وأذل ناصرًا من ذاك، والله لو نفختُ عليه لطار ولو هممت به لبار.

وأما ما قلتَ لي أيها الشيخ[٤٧] إنه ينبغي أن تكتب رسائلك إلى الوزير حتى أقف على مقاصدك فيها، وأستبين براعتك وترتيبك[٤٨] بها؛ فأنا أفعل ذلك في هذه الورقات، ولم أكتب في طول هذه المدة مع هذه

الأحوال العجيبة إلا رقعتين ورسالتين، فأما الرقعة الواحدة فإنها تضمنت حديث الخادم وما عزم عليه، وقد شافهتك به. وأما الأخرى فحوت حديث ابن طاهر وصاحب الرصافة، وقد سمعته مني.

رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

أما الرسالة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم حلِّني بالتوفيق وأيدني بالنصرة واقرن منطقي بالسداد، واجعل لي من الوزير وزير الممالك عُقْبى فارجةً[٤٩] من الغُمم، وخاتمةً موصولةً بالنجاح، فإنك على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

كنتُ وصلتُ إلى مجلس الوزير وفزت بالشرف منه وخدمت دولته، وعلاه من صدري بخبيئته ومن فؤادي بمحيضته، وتصرفتُ من الحديث بإذنه في شجونه وفنونه. كل ذلك آملًا في جدوى آخذها وحظوةٍ أحظى بها وزلفى أَمِيس معها، ومَثالةٍ أُحسد عليها. فتقبل ذلك كله ووعد عليه خيرًا ولم يزل أهله، وانقلبتُ إلى أهلي مسرورًا بوجهٍ مسفر ومُحيًّا طلق وطرْفٍ عازم،[٥٠] وأملٍ قد سد ما بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس: هذا مَعَان الوزير ومَعمره وجنابه ومحضره، [فانشرحي مستفتحة وتيمَّني مقترحة واطمئني راضيةً مرضية، لا كدرة الشرب ولا مذعورة السرب،] حصلتُ من ذلك الوعد والضمان على بعض فَعَلات الزمان. ولا عجب في ذلك من الزمان فهو بمثله مليء وله فعول. وبقيتُ

محمولًا بيني وبين إذكاره – قرن الله ساعاته بسعاداته ووصل عز[٥١] يومه بسعادة غده وغدَه بامتداد يده – حيرانَ لا أَرِيش ولا أبرى، ثم رفعتُ ناظري وسدَّدت خاطري، وفصَّلت الحساب لي وعليَّ؛ فوضح العذر المبين المانع من استزادة المستزيدين، وذلك أني رأيت أعباء الوزارة تئود[٥٢] سره وتُتعب[٥٣] باله، والمملكةَ تفزع وَلْهى عليه وتُلقي بجِرَانها[٥٤] له بين يديه، والدولة تستمده التدبيرَ الثاقب والرأي الصائب، سوى أمورٍ في خلاف ذلك لا يحررها رسم راسم، ولا يقرِّرها قسم قاسم ولا يحويها وهم واهم، ولا يفوز بها سهم مساهم، وهو يخطر في حواشي هذه الأحوال، متأبطًا بواهظ الأثقال مفتتحًا عويص الأقفال،[٥٥] سامي الطرف فسيح الصدر بسامًا على العلات، غير مكترثٍ بهاك وهات يتلقَّى ما أعيا من ذلك باللَّيِّ،[٥٦] وما أشكل بالإيضاح وما عسر بالتدبير، وما فسد بالإصلاح وما أُرِقَّ بالعتق، وما خُرِق بالرَّتْق، وما خَفِي بالتكشيف، وما بدا بالتصريف، وما أَوِد بالتثقيف، وما لَبَس بالتعريف، حتى أجمع على هواه قاصيها ودانيها، وجرى على مراده خافيها وباديها، واستجاب لأمره أبيُّها ومنقادها، وأتلف بلفظه نادرُها ومعتادُها. فلما تيقنتُ[٥٧] ذلك كله وقتلتُه خبرًا، أمسكت عن إذكاره – نفَّس الله مدته – سالفَ عهده ومتقدِّم وعده، عالمًا بأن أسرَّهما[٥٨] مَرْعيٌّ عنده في صدر الكرم، ومكتوبٌ لديه في صحيفة المجد، وثابتٌ قِبَله في ديوان الحُسْنى.

ولكن كان ذلك الامتنان[٥٩] على رغمٍ مني؛[٦٠] لأني قتلتُ في أثنائه بين جنبيَّ قلبًا مغرور الرجاء ومنزُور العزاء، على عوارض لم تسنَح في خَلَدي، ولم أعقد على شيء منها يدي.

فالحمد لله الذي جعل معاذي إلى الوزير الكريم البَرِّ الرحيم، والمنة لله الذي جعلني من عُفاة جوده وناشئة عُرفه، ووارد عِدِّه وقادحي زَنْده، ومقتبِسي نوره ومُصطَلي ناره وحاملي نعمته وطالبي خدمته، وجعل خاصتي وخالصتي من بينهم رواية مناقبه باللسان الأبين، ونشر فضائله بالثناء الأحسن، وذكْر آلائه باللفظ الأفصح، والاحتجاج لسداد آرائه بالمعنى الأوضح. فلا زال الوزير – وزير الممالك – ممدوحًا في أطوار الأرض على ألسنة الأدباء والحكماء، وفي نوادي الرؤساء والعظماء، ما آب آئب(٦١) وغابَ غائب بمنه ولطفه.

قد ناديتُ الوزير حيًّا سامعًا وخيرًا جامعًا، وهززتُ منه صارمًا قاطعًا وشهابًا ساطعًا، واستسقيتُ من كرَمه سحابًا هاطلًا ونُقاخًا(٦٢) سائلًا، وأسأله أن يجنِّبني مرارة الخيبة وحسرة الإخفاق وعذاب التسويف، فقد تلطَّفت بالسحر الحلال والعذب الزلال جهد المقل المحتال، وهو أولى بمجده في تدبير عبده إن شاء الله تعالى.

هذا آخر الرسالة الأولى.

وحضر وصولها إليه بهرام – لعنه الله – وتكلم بما يشبه نذالته وخسته ونَتْن نيته، فما كنت آمَنه،(٦٣) وما أشد إشفاقي على هذا الوزير الخطير من شؤم ناصية بهرام وغل صدره، وقلة نصيحته ولؤم طبعه وخُبْث أصله وسقوط فرعه، ودمامة منظره ولآمة مخبره، حرس الله العباد من شره، وطهر البلاد من عُرِّه وضره!

وأما الرسالة الثانية فهي التي كانت في هذه الأيام بعد استئذاني إياه في المخاطبة بالكاف، حتى يجري الكلام على سنن الاسترسال، ولا يُعثر في طريق الكتابة بما يزاحَم عليه من اللفظ واللفظ، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الوزير، جعل الله أقدار دهرك جاريةً على تحكم آمالك، ووصل توفيقه بمبالغ مرادك في أقوالك وأفعالك، ومكَّنك من نواصي أعدائك، وثبَّت أواخِيَ دولتك على ما في نفوس أوليائك.

يجب على كل من آتاه الله رأيًا ثاقبًا، ونصحًا حاضرًا وتنبهًا نافعًا، أن يخدمك متحريًا لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك،(٦٤) قاضيًا بذلك حق الله عليه في تقويتك وحياطتك. وإني أرى على بابك جماعةً ليست بالكثيرة – ولعلها دون العشرة – يؤثِرون لقاءك والوصول إليك لما تُجِنُّ صدورهم من النصائح النافعة، والبلاغات المجدية والدلالات المفيدة، ويرون أنهم إذا أُهِّلوا لذلك فقد قضوا حقك، وأدوا ما وجب عليهم من حرمتك، وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك وتقديمك وتكريمك، والحجاب قد حال بينهم وبينك، ولكل منهم وسيلةٌ شافعةٌ وخدمةٌ للخيرات جامعةٌ، منهم – وهو أهل الوفاء – ذوو كفايةٍ وأمانةٍ ونباهةٍ ولباقة، ومنهم من يصلح للعمل الجليل ولرتق الفتق العظيم، ومنهم من يمتِع إذا نادم ويشكر إذا اصطنع ويبذل المجهود إذا رُفِع، ومنهم من ينظم الدر إذا مدح ويُضحك الثغر إذا مزح، ومنهم من قعد به

الدهر لسنه العالية وجلابيبه البالية، فهو موضع الأجر المذخور وناطقٌ بالشكر المنظوم والمنثور، ومنهم طائفةٌ أخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يعنيهم من أحوال أنفسهم، في تزجية عيشهم وعمارة آخرتهم، وهم مع ذلك من وراء خصاصةٍ مُرة ومؤنٍ غليظة وحاجاتٍ متوالية، ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة، ولو وثقوا بأنهم إذا عَرَضوا أنفسهم عليك، وجهَّزوا ما معهم من الأدب والفضل إليك حظُوا منك واعتزُّوا بك، لَحضَروا بابك وجَشِموا المشقة إليك. لكن اليأس قد غلب عليهم وضعفت مُنَّتهم، وعُكس أملهم ورأوا أن سفَّ التراب أخفُّ من الوقوف على الأبواب إذا دنوْا منها دُفعوا عنها. فلو لحظْتَ هؤلاء كلَّهم بفضلك وأدنيتَهم بسعة ذَرْعك وكرم خِيمِك، وأصغيت إلى مقالتهم بسمعك وقابلتَهم بملء عينك؛ كان في ذلك بقاءٌ للنعمة عليك وصيتٌ فاشٍ بذكرك، وثوابٌ مؤجَّلٌ(٦٥)في صحيفتك وثناءٌ معجَّلٌ عند قريبك وبعيدك. والأيام معروفةٌ بالتقلب والليالي ماخضةٌ بما يتعجب منه ذو اللب والمجدود مَن جُدَّ في جده، أعني من كان جَدُّه في الدنيا موصولًا بحظه من الآخرة، ولأنْ يُوكَل العاقل بالاعتبار بغيره خيرٌ من أن يُوكَل غيرُه بالاعتبار به.

أيها الوزير، اصطناع الرجال صناعةٌ قائمةٌ برأسها، قلَّ من يفي بربها(٦٦)أو يتأتى لها أو يعرف حلاوتها، وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة والحساب.

وسمعتُ ابن سُورين يقول: آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب واهتزَّ للمديح، وطرب على نغمة السائل واغتنم خَلَّة المحتاج وانتهب الكرم انتهابًا، والتهب في عشق الثناء التهابًا؛ أبو محمد المهلَّبي، فإنه قدَّم قومًا ونوَّه بهم ونبه على فضلهم وأحوج الناظرين في أمر المُلك إليهم وإلى كفايتهم، منهم أبو الفضل العباس بن الحسين، ومنهم ابن معروف القاضي، [ومنهم أبو عبد الله اليَفُرَني]، ومنهم أبو إسحاق الصابئ وأبو الخطاب الصابئ، [ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد، ومنهم أبو أحمد ابن الهيثم، وابن حفصٍ صاحب الديوان]، وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء(٦٧) [كأبي تمام الزينبي، وأبي بكر الزهري]، وابن قريعة، وأبي حامد المرْورُّوذي، [وأبي عبد الله البصري]، وأبي سعيد السيرافي، [وأبي محمد الفارسي]، وابن دَرَسْتويه، [وابن البقَّال]، والسري، ومن لا يُحصى كثرةً من التجار والعُدول.

وقال لي [ابن سورين]: كان أبو محمد يطرب على اصطناع الرجال كما يطرب سامع الغناء على الشبابير،(٦٨) ويرتاح كما يرتاح مدير الكأس على العشائر. وقال عنه [إنه] قال: والله لأكونن في دولة الديلم أول من يُذكر، إن فاتني أن كنتُ في دولة بني العباس آخر من يُذكر.

فلولا أنك – أدام الله دولتك – أذنتَ لي أن أكتب إليك كلَّ ما هجس في النفس، وطلع به الرأي مما فيه مردٌّ على ما أنت فيه من هذا الثقل الباهظ، وتنبيهٌ على ما تباشره بكاهلك الضخم؛ لم يكن خطري

يبلغ مواجهتك بلفظٍ يثقل، وإشارةٍ تغلظ، وكنايةٍ تخدش،[٦٩] لكنك والله يأخذ بيدك، ويَقْرن الصنعَ الجميل بظاهرك وباطنك، قد رخَّصت لي في ذلك، وخصصتني به من بين غاشية بابك وخدم دولتك، فلذلك أقول ما أقول معتمدًا على حسن تقبلك،[٧٠] وجميل تكفُّلك[٧١] ومنتظَر تفضلك. وليس في أبواب السياسة شيءٌ أجدى وأنفع وأنفى للفساد وأقمع من الاعتبار الموقظ للنفس، الباعث على أخذ الحزم وتجريد العزم، فإن الوِكال[٧٢] والهُوَيْنا قلَّما يفضيان بصاحبهما إلى درْك مأمول ونيل مراد وإصابة متمنًّى. وقد قال رجلٌ كبير الحكمة معروف الحنكة: المعتبَر كثير والمعتبِر قليل. وصدق هذا الرجل الصالح وهو الحسن البصري.

لو اعتبر من تأخر بمن تقدم لم يكن من يتحسر في الناس[٧٣] ويندم، ولكن الله بنى هذه الدار على أن يكون أهلها بين يقظةٍ ونوم، وبين فرحٍ وترح، وبين حيطةٍ[٧٤] وورطة، وبين حزمٍ وغفلة، وبين نزاعٍ وسَلْوة، لكن الآخذ بالحزم – وإن جرى عليه مكروه – أعذر عند نفسه وعند كل من كان في مَسْكه، من المُلْقي بيده والمتدلِّي بغروره والساعي في ثُبوره. وما وهب الله العقل لأحدٍ إلا وقد عرَّضه للنجاة، ولا حلَّاه بالعلم إلا وقد دعاه إلى العمل بشرائطه، ولا هداه الطريقين (أعني الغَيَّ والرُّشد) إلا ليزحف إلى أحدهما بحسن الاختيار.

هذا بالأمس أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير – وهو في وزارته وبسطة أمره ونهيه – قيل له ذات يوم: هذا التركي ساسنكر[٧٥]

تفيأ بظله، واعتصم بحبله واستَسق بسجْله، وارتو من سؤره، ولا يبلغه عنك ما يوحشه منك ويُجفيه[٧٦] عليك. وقد قيل:

اسجُدْ لقِرد السوء في زمانه

وإذا لم تقدر على قطع يدٍ جائرةٍ فقبِّلها مُتْهِمةً٧٧ مُنجدةً غائرة. فلم يفعل حتى وجد أعداؤه طريقًا إليه فسلكوه وأوقعوه.

ثم قيل له في الوزارة الثانية: قد ذُقْت مرارة النكبة وتحرقتَ بنار الشماتة، وتأرَّقتَ على فرَطات[٧٨] العجز والفَسَالة، وقد كان من ذلك كله ما كان، ودار لك بما تمنيت[٧٩] الزمان، فانظر إلى أين تضع الآن قدمك، وبأي شيء تدير لسانك وقلمك، فإن مخلِّصك من ورطتك بالمرصاد، وقد وعدتَ من نفسك إن أعاد الله يدك[٨٠] إلى البسطة، وردَّ حالك إلى السرور والغبطة؛ أنك تُجْمل المعاملة، وتنسى[٨١] المقابلة، وتَلقَى وليَّك وعدوك بالإحسان إلى هذا والكفِّ عن هذا، حتى يتساويا بنظرك، ويتعبَّدا لك بتفضلك.

فكان من جوابه ما دل على عتوِّه وثباته؛[٨٢] لأنه قال: أما سمعتم الله تعالى حيث يقول: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؟

وقال لي القومسي[٨٣] – ولم يعلم ما في فحوى هذا الكلام: ما ذاك؟ قلتُ: فحواه ولو عادوا إلى ما نُهوا عنه لعدنا إلى مقابلتهم بما استحقوا عليه.

وصدق ما قال الله عز وجل، ما لبث ذلك الإنسانُ بعد هذا الكلام إلا قليلًا حتى أورده[٨٤] ولم يصدره، وأعثره ولم يُنْعشه، وسُلِّم إلى عدوه حتى استل روحه من بين جنبيه شافيًا به ومُشْتفيًا منه، وكان عاقبة أمره خُسْرًا، ولو اتقى الله لكان آخر أمره يسرًا. والله المستعان.

وهذا بعده محمد بن بقية طغى وبغى، واقتحم ظلمات الظلم والعسْف، وطار بجناح اللهو والعزف والشرب والقصف، وملَّ نعمة الله عليه وضلَّ بين إمهال الله وإملائه، فحاق به ما ذهبت عليه نفسه وماله وخُرِّب بيته وافتَضَح أهله، وكيف كان يسلم، أم كيف كان ينجو وقد قَتَل ابنَ السراج بلا ذنب، والجَرْجرائيَّ[٨٥] بلا حجة، وضرب ابن معروفٍ بالسياط وأبا القاسم – أخًا لأبي محمد القاضي – وشهَّره على جملٍ في الجانب الشرقي؟!

والتشفي حلو العلانية ولكنه مُرُّ العاقبة، وكأن الحفيظة إنما خُلقت لتُعتقد،[٨٦] والحقد إنما وُجد ليُبلَغ به ما يسر الشيطان.

وكأن العفو حرام والكظم[٨٧] محظور والمكافأة مأمورٌ بها.

وهذا بالأمس علي بن محمد ذو الكفايتين اغترَّ بشبابه، ولها عن الحزم والأخذ به فيما كان أولى به، وظن أن كفايته تحفظه ونسبَه من أبيه يكنفه، وبراءتَه تحتجُّ له وذنوبه الصغيرة تغتفر، لبلائه المذكور وغَنائه المشهور، ومشى فعثر وراب[٨٨] فخثر، والأول يقول:

مـــن ســـابق الـــدهر كبـــا كبـــوةً لـــــم يســـــتَقلْها آخـــــر الـــــدهرِ

فـــاخطُ مـــع الـــدهر إذا مـــا خطـــا واجـــرِ مـــع الـــدهر كمـــا يجـــري

وقال لي الخليل – وكان لطيف المحل عنده لما كان يرى من اختصاص أبيه له، ولما يظهر من فضله عنده: قلت له يومًا: يا هذا، في أي شيء أنت؟! وبأي شيء تَعَلَّل؟! وقد شُحِذت المواسي وحُدِّدت الأنياب وفُتلت المرائر[٨٩] ونُصبت الفخاخ، والعيون محدِّقةٌ نحو القطيعة والأعناق صورٌ[٩٠] إلى الفظيعة، وأنت لاهٍ ساهٍ عما يراد بك بعد، يسبيك[٩١] هذا المزرفن[٩٢] وهذا المُرْخي[٩٣] وهذا المعرَّض[٩٤] وهذا الحليق، وهذا النتيف وهذا المعقرَب الصُّدغ وهذا المصفوف الطُّرَّة، وبالكاس[٩٥] والطاس والغناء والقصف، والناي والعود، والصبوح والغبوق والشراب المروَّق العتيق، والله ما أدري ما أصنع إن سكتُّ عنك كمدتُ، وإن نصحتُك خفتُ منك، ونعوذ بالله من اشتباه الرأي واشتباك الأمر وقلة الاحتراس، والإعراض عما يجري من أفواه الناس!

يا هذا، سوء الاستمساك خيرٌ من حسن الصَّرْعة، وتلقِّي الأمر بالحزم والشهامة أولى من استدباره بالحسرة والندامة، ومن لا تجربة له يقتبس ممن له تجربة، فإذا نقب الخُفُّ دَمِي الأظل. فقال: قد فرغ الله مما هو كائن، وإذا جاء أجلهم لا يسْتَأْخرون ساعة ولا يستَقدِمون.

قال: قلتُ له: ما أطلعك الله على كائنات الأمور ولا أعلمك بعواقب الأحوال، وإنما عرَّفك حظك بعد أن[٩٦] وفَّر عقلك، وأحضرك استطاعتك، وأوضح لقلبك ما عليك ولك، حتى يستشف ويستكشف،

وملَّكك النواصي حتى تمُنَّ[٩٧] وترسل، وما طالبك إلا بعد أن أزاح علَّتك، ولا عاقبك إلا بعد أن أنذرك وأنظرك، وبمثل هذا تطالب أنت من هو دونك من خَدَمك وحشمك، وأوليائك وأعدائك، وهذا الذي أعذُلك عليه هو الذي به تعذُل غيرك وتراه ضالًّا في مسلكه، متعرِّضًا لمهلكه.

فقال: أيظلمني وليُّ نعمتي صُراحًا بلا ذنب، ويجتاحني٩٨ بلا جريمة ويَثْلم دولته بلا حجة؟

قلتُ: الله يقيك ويكفيك، نراك بلا ذنب ونجدك بريئًا من كل عيب، وغيرك لا يراك بهذه العين ولا يحكم لك بهذا الحكم، فإن كنت ترى فرصةً فانتهزها وإن كنت تحلم بغصةٍ[٩٩] فاحترز منها، فأبواب النجاة مفتَّحة وطرق الأمان متوجهة، والأخذ بالاحتياط واجب، قد قرب الشاخص من هذا المكان، والقيامة قد قامت بالإرجاف، والطِيَرة قشعريرة النفس، كما أن القشعريرة طِيَرة البدن، والاسترسال كلال الحس، والفأل لسان الزمان وعنوان الحِدْثان، ولا يقع في الأفواه إلا ما يوجب الحذر ويبعث على الرأي والنظر واستقراء الأثر والخبر.

قال: أما أنا بعد التوكل على الله فقد استظهرتُ بمحمد بن إبراهيم صاحب نيسابور، وبفخر الدولة وهو بهمذان على ثلاثة أيام، وبعز الدولة وهو بمدينة السلام، ومتى حَرَب حارِب وراب رائب أويتُ إلى واحدٍ من هؤلاء.

قال: قلت: ها هنا ما هو أسهل من هذا وإن كان أهول، وأنجى وإن كان أشجى، وأقرب وإن كان أعزب.

قال: ما هو؟ فرِّج عني واهدني.

قلت: لما يدخل هذا الوارد [الدار] ويدنو من طرف البساط تُنْدر رأسه عن كاهله وتُلقي شِلوه في مزبلة، فإن الهيبة تقع والنائرة تخبو والعَجَب يغمر، والظِّنَّة تزول والصدر يَشتفي والاعتذار ينتفي. ويُكتب إلى موفده بأن الرأي أوجب هذا الفعل، لأنه غلب على الظن أنه وافى لكيد يُوصِله إليَّ، وبلاءٍ يُفرغه عليَّ، فأزلتُ هذا الظنَّ باليقين ودفعت الشبهة بالجلاء، واستخلصتُ النور من الظلام. ولأن تُبعد ساقطًا من خدَمك يسوء ظني به من جهتك ويقدح في طاعتي لك، [ويُضرم فيَّ نار التهمة بيني وبينك؛ خيرٌ لي في نصيحتي لدولتك، وخيرٌ لك] في بقائي(١٠٠) على أمرك ونهيك، من أن يلتاث ضميري في سياسة دولتك، وتحُول نيتي(١٠١) عما عهدتَ من القيام بحق جندك ورعيتك، وحفظ قاصيتك ودانيتك.

فقال: هذا أعظم، والله المستعان.

وليتني أصبت بهذا الرأي(١٠٢) امرأً علا عقله فيقبله ببيان أو يرده ببرهان، فكان يقوى أو يضعف، ويقدم عليه أو يحجم عنه، فإن المبرَم أقوى من السحيل والسمين أحمد من النحيل، ثم كان ما كان. وكان مشايخ العراق والجبل يرون ما حدث بذلك الفتى أمرًا فَرِيًّا وظلمًا عبقريًّا.

وحدثني القومسي أنه لم يتقدم بذلك أمر ولا سبق به إذن، ولكن لما حدث ما حدث وقع عنه إمساك وسُترت الكراهية والإنكار.

وللأمور أيها الوزير ظهورٌ وبطون وهوادٍ وأعجاز وأوائل وأواخر، وليس على الإنسان أن يدرك النجاح في العواقب، وإنما عليه أن يتحرَّز في المبادئ، ولهذا قال القائل:

لأمـــرٍ علـــيهم أن تـــتم صـــدوره　　ولـــيس علـــيهم أن تـــتم عواقبـــه

وقال سليمان بن عبد الملك أو غيره من أهل بيته: ما لمتُ نفسي على فوت أمرٍ بدأتُه بحزم، ولا حمدتها على درك أمرٍ بدأته بعجز.

ها هنا ناسٌ إذا تلاقوا ينفُث بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكناية، ويحتاج الأمر إلى ابن يوسف، ويستملي[١٠٣] الخبيث من الجوقال في هذه الليلة: ما رأيتُ من يفي بإحصاءالس فوق مَشْرَعة مكان الروايا.

وليس[١٠٤] يصح كل ما يقال فيُروى على وجهه، وليس يخفى أيضًا كلُّ ما يجري فيمسك عنه، والأمور مَرِجة والصدور حرجة، والاحتراس واجب والنصح مقبول والرأي مشترَك، والثقة بالله من اللوازم على من عرفه وآمن به، وليس من الله عز وجل بدٌّ على كل حال.

والله أسأل الدفاع عنك والوقاية لك في مُصْبحك ومُمْساك، وفي مبيتك ومقيلك وشهادتك وغيبتك، ولذوي مليحا[١٠٥] في هذا الباب نفخٌ وإيقاد وتناقلٌ وائتمار[١٠٦] ومسألةٌ وجواب.

وعند الشيخ أبي الوفاء من هذا الحديث ومن غيره مما يتصل به من ناحية ابن اليزيدي ما يجب أن يُصاخ له بالأذن الواعية، ويقابَل

بالنفس الراعية، ويداوَى بالدواء الناجع، وتحسم مادته من الأصل، فإن الفساد إذا زال حصل مكانه الصلاح. وليس بعد المرض إلا الإفراق ولا بعد النزع إلا الإغراق.

إلى ها هنا انتهى نَفَسي بالنصح وإن كانت شفقتي[١٠٧] تتجاوزه وحرصي يستعلي عليه، لكني خادم وكما يجب عليَّ أن أخدم بِنِيَّات[١٠٨] الصدر فينبغي أن ألزم الحد بحسن الأدب.

والله إني لَوَادٌّ مخلصٌ وعبدٌ طائع، ورجائي اليوم أقوى من رجائي أمس، وأملي غدًا أبسط[١٠٩] من أملي اليوم، أشكو إليك الأرق بالليل فكرًا فيما يقال وتحفظًا[١١٠] مما يُنال، وتوهمًا لما لا يكون [إن كان]، وشر العدا الذين يتمنَّوْن لأولي نعمتهم الردى ويبيِّتون النكائث،[١١١] ويكسرون الأجفان[١١٢] ويتخازرون بالأعين، ويتجاهرون بالأذى إذا تلاقَوا ويتهامسون بالألسن إذا تدانوا، والله يصرع جدودهم ويُضرع خدودهم بين يديك. وهذه الرقة مني والحفاوة وهذه الرِّعشة والقلق، وهذا التقبُّع والتفزُّع كله، لأني ما رأيت مثلك ولا شاهدت شبهك، كرَم خِيم ولين عريكة وجودَ بنان، وحضور بشر وتهلل وجه وحسن وعد، وقرب إنجاز وبذل مال وحبَّ حكمةٍ. [١١٣]

قد شاهدتُ ناسًا في السفر والحضر، صغارًا وكبارًا وأوساطًا، فما شاهدت من يدين بالمجد ويتحلى[١١٤] بالجود، ويرتدي بالعفو

ويتأزَّر[١١٥] بالحلم، ويُعْطِي بالجُزاف ويفرح بالأضياف، ويصل الإسعافَ بالإسعاف، والإتحافَ بالإتحاف؛ غيرك.

والله إنك لتهب الدرهم والدينار وكأنك غضبان عليهما، وتُطْعِم الصادر والوارد كأن الله قد استخلفك على رزقهما. ثم تتجاوز الذهبَ والفضة إلى الثياب العزيزة، والخلع النفيسة والخيل العتاق والمراكب الثقال والغلمان والجواري، حتى الكتب والدفاتر وما يَضنُّ به كلُّ جواد. وما هذا من سجايا البشر إلا أن يكون فاعلُ هذا نبيًّا صادقًا، ووليًّا لله مُجتبى، [فإن الله قد أمَّن هذا الصنف من الفقر، ورفع من قلوبهم عز المال]، وهوَّن عليهم الإفراج عن كل مُنْفِس،[١١٦] ياقوتًا كان أو دُرًّا، ذهبًا كان أو فضة؛ كفاك الله عين الحاسدين ووقاك كيد المفسدين، الذين أنعمت عليهم بالأمس على رءوس الأشهاد، وكانوا كحصًى فجعلتَهم كالأطواد، وهم يكفرون أياديك ويوالون أعاديك، ويتمنوْن لك ما أرجو أن الله يعصبه برءوسهم، وينزله على أرواحهم ويذيقهم وبال أمرهم، ويجعلهم عبرةً لكل من يراهم ويسمع بهم. كان الله لك ومعك وحافظك وناصرك!

أطلتُ الحديث تلذذًا بمواجهتك، ووصلته خدمةً لدولتك، وكررته توقعًا لحسن موقعه عندك، وأعدته وأبديته طلبًا للمكانة في نفسك.

وأرجو إن شاء الله ألا أُحرم هبَّة من ريحك، ونسيمًا من سحرك وخِيرةً بنظرك. لم أُوفق في هذه الكلمة الأخيرة، والله ما يمر بي يأسٌ من

إنعامك فأقوِّيه بالرجاء، ولا يعتريني وهمٌ في الخيبة لديك فأتلافاه بالأمل، إنما قُصارى أمنيتي إذا حُكِّمت أن أُعْطَى فيك سؤلي بالبقاء المديد، والأمر الرشيد، والعدو الصريع، والولي الرفيع، والدولة المستتبة، والأحوال المستحبة، والآمال المبلوغة والأماني المدركة، مع الأمر والنهي النافذين بين أهل الخافقين. والله يبلغني ذلك بطَوْلِه ومنِّه!

وآخر ما أقول أيها الوزير: مُرْ بالصدقات، فإنها مجلبة السلامات والكرامات، مدفعةٌ للمكاره والآفات. واهجر الشراب وأدم النظر في المصحف، وافزع إلى الله في الاستخارة وإلى الثقات بالاستشارة، ولا تبخل على نفسك برأي غيرك وإن كان خاملًا في نفسك قليلًا في عينك، فإن الرأي كالدرة التي ربما(١١٧) وُجدت في الطريق وفي المزبلة، وقل من فزع إلى الله بالتوكل عليه وإلى الصديق بالإسعاد(١١٨) منه إلا أراه الله النجاح في مسألته والقضاء لحاجته. والسلام.

فقال لي الوزير بعدما قرأ الرسالة: يا أبا مزْيَد(١١٩) بيَّضتُها وعجبتُ من تشقيق القول فيها ومن لطف(١٢٠) إيرادك لها ومن بِلَّة ريقك بها.

والله يحقق ما نأمله له ونرجوه لأنفسنا، وينحسر عنَّا هذا الضباب الذي ركد علينا، ويزول الغيم الذي استعرض في أمرنا، وعلى الله توكُّلنا، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ.

رسالة في شكوى البؤس ورجاء المعونة وجَّه بها المؤلف إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس الذي كتب له المؤلف هذا الكتاب. وختم كتابه بها:

أيها الشيخ، سلمك الله بالصنع الجميل وحقق لك وفيك وبك غاية المأمول!

هذا آخر الحديث وختمتُه بالرسالتين، ويتقرر جميع ما جرى ودار[١٢١] على وجهه، إلا ما لممت به شعثًا وزينت[١٢٢] به لفظًا وزيَّدتُ منقوصًا، ولم أظلم معنى بالتحريف ولا ملتُ فيه إلى التحوير،[١٢٣] وأرجو أن يبيض وجهي عندك بالرضا عني، فقد كاد وعدك في عنايتك[١٢٤] يأتي عليَّ، وأنا أسال الله أن يحفظ عنايتك عليَّ كسابق اهتمامك بأمري[١٢٥] حتى أملك بهما[١٢٦] ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذي قد أشبع كل جائع، وكسا كلَّ عارٍ وتألف كل شاردٍ وأحسن إلى كل مسيء،[١٢٧] ونوه بكل خامل ونفَّق[١٢٨] كل هزيل وأعز كل ذليل، ولم يبقَ في هذه الجماعة على فقره وبؤسه ومُره ويأسه غيري، مع خدمتي السالفة والآنفة، وبذلي كل مجهودٍ ونسخي كل عويص وقيامي بكل صعب، والأمور مقدرة والحظوظ أقسام والكدح لا يأتي بغير ما في اللوح.

فصل

خَلِّصني أيها الرجل[١٢٩] من التكفف، أنقذني من لُبْس الفقر، أطلقني من قيد الضر، اشترني بالإحسان، اعتَبِدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني مئونة الغداء والعشاء.

إلى متى الكسيرة اليابسة والبُقَيلة الذاوية، والقميص المرقَّع وباقلَّى درب الحاجب، وسَذاب درب الروَّاسين؟

إلى متى التأدم بالخبز والزيتون؟ قد والله بُحَّ الحلق، وتغير الخُلْق، الله الله في أمري! اجبُرني فإنني مكسور، اسقني فإنني صدٍ، أغثني فإنني ملهوف، شهِّرني فإنني غُفْل، حلِّني فإنني عاطل.

قد أذلَّني السفر من بلدٍ إلى بلد وخذلني الوقوف على بابٍ باب، ونكرني العارف بي وتباعد عني القريب مني.

أغرَّك مسكويه حين قال لك: قد لقيتُ أبا حيان، وقد أخرجتُه مع صاحب البريد إلى قَرْمِيسين؟!

والله ثم وحياتِك التي هي حياتي، ما انقلبتُ من ذلك بنفقة شهر، واللهُ نظر لي بالعود، فإن الأراجيف اتصلت والأرض اقشعرت والنفوس استوحشت، وتشبَّه كل ثعلبٍ بأسد وفتَل كل إنسانٍ لعدوه حبلًا من مسد.

أيها الكريم، ارحم، والله ما يكفيني ما يصل إليَّ في كل شهرٍ من هذا الرزق المقتَّر الذي يرجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهمًا مع هذه المئونة الغليظة، والسفر الشاق[١٣٠] والأبواب المحجبة والوجوه المقطبة، والأيدي المسمَّرة والنفوس الضيقة والأخلاق الدنيئة.

أيها السيد، أقصر تأميلي، ارعْ ذمام الملح بيني وبينك، وتذكر العهد في صحبتي، طالبْ نفسك بما يقطع حجتي، دعني من التعليل الذي لا مرد له والتسويف الذي لا آخر معه.

ذكِّر الوزيرَ أمري وكرِّر على أذنه ذكري، وأملِ عليه سورةً من شكري وابعثه على الإحسان إليَّ.

افتح عليه بابًا يُغري[١٣١] الراغب في اصطناع المعروف لا يستغني عن المرغب، والفاعل للخير لا يستوحش من الباعث عليه.

أنفق جاهك فإنه بحمد الله عريض، وإذا جُدتَ بالمال فجد أيضًا بالجاه، فإنهما أخوان.

سرِّحني رسولًا إلى صاحب البطائح أو[١٣٢] إلى أبي السؤْل الكردي[١٣٣] أو إلى غيره ممن هو في الجبال، هذا إن لم تؤهلني برسالةٍ إلى سعدٍ المعالِمي بأطراف الشام، وإلى البصرة، فإني أبلغ في تحمل ما أحمل وأداء ما أؤدي وتزيين ما أزيِّن؛ حدًّا[١٣٤] أملك به الحمد، وأُعرف فيه بالنصيحة وأستوفي فيه على الغاية. دع هذا ودع لي ألف درهم، فإني أتَّخذ رأس مال وأشارك بقال المحلة في درب الحاجب، ولا أقل من ذا، تقدَّم إلى كسج[١٣٥] البقال حتى يستعين بي لأبيع الدفاتر. قلتَ: الوزيرُ مشغول. فما أصنع به إذا فرغ، فالشاعر يقول:

تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

قد والله نسيت صدر هذا البيت، وما بال[١٣٦] غيري ينوِّله ويموِّله مع شغله[١٣٧] وأُحرم أنا؟! أنا كما قال الشاعر:

وبرقٌ أضاء الأرض شرقًا ومغربًا   وموضــع رجلــي منــه أســود مظلــمُ

والله إن الوزير مع أشغاله المتصلة وأثقاله الباهظة، وفكره المفضوض[١٣٨] ورأيه المشترك؛ لكريمٌ ماجد ومفضلٌ محسن، يرعى القليل من الحرمة، ويعطي الجزيل من النعمة، ويحافظ على اليسير من الذمام ويتقبل مذاهب الكرام، ويتلذذ بالثناء إذا سمع، ويتعرض للشكر من كل منتجِع، ويزرع الخير ويحصد الأجر ويواظب على كسب المجد، ويثابر على اجتلاب الحمد وينخدع للسائل، ويتهلل في وجه الآمل ولا يتبوأ من الفضائل إلا في ذراها، رحيم بكل غادٍ ورائح ولكل صالحٍ وطالح.

وأنا الجار القديم والعبد الشاكر والصاحب المخبور، ولكنك مقبلٌ كالُمعرض ومقدِّمٌ كالمؤخِّر[١٣٩] وموقدٌ كالمُخمد، تدنيني إلى حظي بشمالك وتجذبني عن نيله بيمينك، وتغدِّيني بوعدٍ كالعسل وتعشيني بيأس كالحنظل، «ومن[١٤٠] كان عتبه علي مظنة عيبك، فليس ينبغي أن يكون تقصيره على تيقنه[١٤١] بنصرك.»

نعم، عتبتُ فأوجعت وعرفت البراءة فهلَّا نفعت! والله ما أدري ما أقول، إن شكرتك على ظاهرك الصحيح لذعتُك لباطنك السقيم، وإن حمدتك على أولك الجميل أفسدت لآخرك الذي ليس بجميل.

قد أطلت ولكن ما شُفيت، ونهلت وعللت ولكن ما رَوِيت.

وآخر ما أقول: افعل ما ترى واصنع ما تستحسن وابلغ ما تهوى، فليس والله منك بدٌّ ولا عنك غنى.

والصبر عليك أهون من الصبر عنك؛ لأن الصبر عنك مقرونٌ باليأس، والصبرُ عليك ربما يؤدي إلى رفع هذا الوسواس. والسلام لأهل السلام.

صورة ما كتبه الناسخ في آخر النسخة المرموز إليها بحرف «أ»

تم الجزء الثالث من كتاب «الإمتاع والمؤانسة» بحول الله وحسن توفيقه، في شوال سنة خمس عشرة وثمانمائة، على يد أضعف العباد شرف بن أميرة، أصلح الله شأنه! في مصر المحروسة حماها الله تعالى من الآفات والعاهات ومن عوادي الزمان. آمين يا رب العالمين!

هوامش

(١) في «ب»: «شاع»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٢) في «أ»: ولا سيما، وهو تحريف إذ لا يستقيم به سياق الكلام.

(٣) في «أ»: «ولا رابع»، وهو تحريف.

(٤) في كلتا النسختين: «والتعظيم» بالواو، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٥) في «أ»: «وتماسك»، وهو تحريف.

(٦) في «ب»: «الجدل» مكان «الدين»، وهو خطأ من الناسخ.

(٧) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه العبارة: «الجواليقي» مكان «هشام»، وهو خطأ من الناسخ، والسياق يقتضي ما أثبتنا. وعبارة «ب»: «فقال له»، ثم ذكر كلامه.

(٨) في «ب»: «في خاطر»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٩) عبارة «أ»: «وفارق مجلوا عنه»، وهو تحريف. والتقارف: التقارب والمداناة.

(١٠) كذا في «أ». والذي في «ب»: «لا يجب»، ولعلها محرفة عن «لا يُحبُّ» بالبناء للمجهول.

(١١) كذا في «أ». والذي في «ب»: «المعاملة».

(١٢) في كلتا النسختين: «يبين» بسقوط «لا»، والصواب ما أثبتنا كما يؤخذ مما يأتي بعد.

(١٣) في «أ»: «تفعل»، وهو تحريف.

(١٤) في «أ»: «والاسترلال»، وفي «ب»: «والاسترسال»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(١٥) كذا في «ب». والذي في «أ»: «ما حدث».

(١٦) كذا في «أ». والذي في «ب»: «وإتيانه»، وهو تحريف.

(١٧) في «ب»: «الوداع» مكان قوله: «المجلس».

(١٨) الخلال بفتح الخاء: البسر إذا اخضرَّ واستدار.

(١٩) في «أ»: «متحركًا»، وهو تحريف.

(٢٠) وقم أركان الكفر: كسرها وأذلَّها.

(٢١) القلقل: السريع الخفيف المعوان.

(٢٢) في «أ»: «الناس» بالنون. ووردت هذه الكلمة في «ب» لا نقط فيها. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٢٣) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول، ولا معنى للتعارف هنا.

(٢٤) في «ب»: «حصن».

(٢٥) في «ب»: «الخبر» مكان قوله «الجزء».

(٢٦) في «أ»: «الجزء» مكان قوله «الجدب».

(٢٧) في «أ»: «ثبت». وقد وردت هذه الكلمة في «ب» مهملة الحروف من النقط.

(٢٨) كذا في «ب». والذي في «أ»: «وخصت مواد العقل»، وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام.

(٢٩) في نسخة: «الغائبة» مكان «القائمة».

(٣٠) النيرب: الحقد. والذي في «أ»: «ثيرب»، وفي «ب»: «سرب»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٣١) تشوي: تخطئ.

(٣٢) في «أ»: «محييًا»، وفي «ب»: «محبًّا»، وهو تحريف في كلتا النسختين، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٣٣) كان الأولى أن يقول: «ولا كذلك» أو «وليس كذلك» أو «وعكس ذلك»، فإن الآتي بعد ليس كالذي ذكره قبل.

(٣٤) كذا في «ب». والذي في «أ»: «نفسه».

(٣٥) في كلتا النسختين: «وثابت»، وهو تحريف.

(٣٦) في كلتا النسختين: «وأكثر»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٣٧) عبارة «أ»: «ومدة متباعدة» مكان قوله «وهمة صاعدة»، ومعناها لا يناسب سياق الكلام هنا.

(٣٨) قرميسين: بلد قرب الدينور بين همذان وحلوان.

(٣٩) في «أ»: «وهذا» مكان «وهناك»، وهو خطأ من الناسخ.

(٤٠) في «أ»: «ونسبة»، وهو تحريف.

(٤١) في كلتا النسختين: «والفكر»، وهو تحريف.

(٤٢) كذا في «ب». والذي في «أ»: «ضربة».

(٤٣) في كلتا النسختين: «لا يقلب بقبضة»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين. والقبصة: ما أُخذ بأطراف الأصابع، كما سبق ذلك في تفسير المؤلف لهذا اللفظ نقلًا عن بعض اللغويين في الجزء السابق من هذا الكتاب. ويريد بهذه العبارة أنه رخيص.

(٤٤) شرار: أي مشارة بتشديد الراء. وفي نسخة: «سرار» بالسين المهملة.

(٤٥) من معاني القبقبة: الهدير، وصوت أنياب الفحل، والحمق. فلعله يريد ما تفيده هذه المعاني من أن بينهما مغاضبة وملاحاة وخصومة. وفي «أ»: «وفتنة» مكان «وقبقبة»، «وتبديل» مكان «وتنديد»، وهو تحريف في كلا اللفظين.

(٤٦) في كلتا النسختين: «وحصلوا»، وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٤٧) يريد بالشيخ أبا الوفاء المهندس.

(٤٨) في كلتا النسختين: «برأيك» مكان «براعتك». وفي «أ»: «وقرنيتك» مكان «وترتيبك».

(٤٩) في «أ»: «نازحة»، وهو تحريف.

(٥٠) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول، ولعلها تحريف إذ لم نتبين معنى وصف الطرف بهذا الوصف.

(٥١) في «ب» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «عن» مكان «عز»، وهو تحريف.

(٥٢) في «ب» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «تود»، وهو تحريف.

(٥٣) في «ب» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «وتستعين» مكان «وتتعب»، وهو تحريف.

(٥٤) في «ب» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «بحرانها»، وهو تصحيف.

(٥٥) في الأصول: «الأفعال»، وهو تصحيف.

(٥٦) في كلتا النسختين: «بالكي» بالكاف، وهو تحريف لا معنى له هنا، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٥٧) في الأصل: «نفثت»، وهو تحريف.

(٥٨) في كلتا النسختين: «أيسرهما»، والياء زيادة من الناسخ.

(٥٩) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول، ولا معنى للامتنان هنا، ولعل صوابه الكتمان أو «الإمساك» أو ما يفيد ذلك، أخذًا من قوله قبل: فأمسكت عن إذكاره.

(٦٠) في «أ»: «على زعم من أبي فلبث إلى أنيابه»، مكان قوله: «على رغم مني لأني قتلت في أثنائه.»

(٦١) في كلتا النسختين: «وغلب غالب»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٦٢) ورد هذا اللفظ بالياء والفاء، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٦٣) في كلتا النسختين: «آمله» باللام، وهو تحريف. والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٦٤) في كلتا النسختين: «وزيادتك» بالزاي المعجمة، وهو تصحيف.

(٦٥) في الأصول: «بوجد»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد: «معجل».

(٦٦) في «أ»: «يسقى تربها» مكان «يفي بربها»، وفي «ب»: «بريها» بالياء المثناة، وهو تصحيف في كلتا النسختين. يقال: رب الصنيعة يربها، بضم الراء، إذا نمَّاها وتعهدها.

(٦٧) في «ب» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «هذا إلى غير هذا.»

(٦٨) في كلتا النسختين: «الستاير»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام. والشبابير: جمع شبور، وهو من آلات الموسيقى.

(٦٩) في كلتا النسختين: «تخرس»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق ما قبله.

(٧٠) في كلتا النسختين: «تقلبك»، وهو تحريف.

(٧١) في «ب»: «تكلفك»، وهو تحريف.

(٧٢) في «أ»: «الوكان» بالنون، وفي «ب»: «الوكاك» بالكاف، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٧٣) في «ب»: «في الدنيا».

(٧٤) في كلتا النسختين: «غبطة»، ولعله تحريف إذ الغبطة لا تقابل الورطة، والذي يقابلها الحيطة كما أثبتنا.

(٧٥) لم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من معجمات الأعلام التركية، والذي وجدناه «سنجر» بالسين والجيم وبلا سين وألف في أوله.

(٧٦) في «أ»: «ويخيفه»، وهو تحريف.

(٧٧) في كلتا النسختين: «بهمه»، وهو تحريف.

(٧٨) في كلتا النسختين: «فطرات»، والظاهر أن في حروفه قلبًا وقع من الناسخ. كما أن في كلتا النسختين: «وأرقت» مكان «وتأرقت». وما أثبتناه أولى للملاءمة بينه وبين قوله قبل: «وتحرقت».

(٧٩) في «ب»: «ظننت»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٨٠) في «ب»: «أعاد الله بك أيامك البسيطة»، وفي بعض كلماتها تحريف لا يخفى.

(٨١) كذا في «أ». والذي في «ب»: «وتسيء»، وهو تحريف. وتنسى المقابلة: أي لا تقابل الذنب بما يستحقه من عقوبة بل تعفو.

(٨٢) وثباته: أي ثباته على ما كان عليه من سوء السياسة.

في كلتا النسختين: «المسي»، وهو تحريف كما ترى، صوابه ما أثبتنا.

(٨٣) أورده ولم يصدره: فاعل الفعلين ضمير يعود على الكلام السابق ذكره، أي أورده كلامه ... إلخ.

(٨٤) في «أ»: «الجرجاني».

(٨٥) في «أ»: «لتعتد»، وفي «ب»: «لتنفذ». وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٨٦) في كلتا النسختين: «واللطم»، وهو تحريف.

(٨٧) في «أ»: «وداب فخسر»، وفي «ب»: «وذاب فخثر»، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٨٨) في «أ»: «وقبلت»، وفي «ب»: «وقتلت»، وهو تصحيف في كلتا النسختين. وفي «أ»: «المدابر» مكان «المرائر»، وهو تحريف أيضًا. والمرائر: الحبال، جمع مريرة.

(٨٩) صور: أي مائلة. إلى الفظيعة: أي إلى النكبة الفظيعة. وفي كلتا النسختين: «العظيمة». وما أثبتناه هو ما يستقيم به السجع الذي التزمه المؤلف في بعض فقراته.

(٩٠) في «أ»: «يعد تشبثك»، وفي «ب»: «يعد بسيبك»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٩١) المزرفن: الذي يجعل صدغيه كالزرفين، وهي الحلقة.

(٩٢) كذا في «ب». والذي في «أ»: «المزرجن»، ولا معنى له هنا.

(٩٣) المعرض بتشديد الراء: الذي نبت شعر عارضيه. كما يقال عذَّر الغلام بتشديد الذال: إذا نبت شعر عذاره.

(٩٤) وبالكاس: متعلق بقوله قبل: «لاهٍ».

(٩٥) كذا في «ب». والذي في «أ»: «مقدار» مكان «بعد أن»، وهو تحريف.

(٩٦) في «أ»: «تمل وترشد»، وفي «ب»: «تمد» مكان «تمل»، وهو تحريف في كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا. وتمن وترسل: أي تمن بالعفو عمن أساء وترسل من أمسكته، أي تطلقه.

(٩٧) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «يجنبينا».

(٩٨) في «أ»: «بعض» بالعين والضاد، وفي «ب»: «بقصة» بالقاف والصاد. وهو تحريف صوابه ما أثبتنا.

(٩٩) كذا في «ب». والذي في «أ»: «ثنائي»، وهو تحريف.

(١٠٠) في كلتا النسختين: «بيني»، وهو تصحيف.

(١٠١) وردت هذه العبارة في كلتا النسختين هكذا: «وليتني أصبت من أمر بهذا الرأي على عقله»، وفيها تقديم وتأخير وتحريف، إذ لا معنى لها على هذا الوجه. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(١٠٢) عبارة «أ»: «ومسلم الخبيث من الحالين فوق مشرعة»، وفيها تحريف ظاهر. وفي «ب»: «الحبيب» مكان «الخبيث»، وهو تصحيف أيضًا. ويريد بالخبيث ابن يوسف.

(١٠٣) ورد في «أ» قبل قوله «وليس يصح» قولُه «فصل».

(١٠٤) كذا وردت هذه العبارة في «ب»، ولم نتبين من هم ذوو مليحا.

(١٠٥) في كلتا النسختين: «وتثاقل وإثمار»، وهو تصحيف.

(١٠٦) في كلتا النسختين: «شفتي»، وهو تحريف.

(١٠٧) في «أ»: «تبيان»، وفي «ب»: «بثبات»، وهو تصحيف.

(١٠٨) في «ب»: «أنشط».

(١٠٩) في «ب»: «وغيظًا».

(١١٠) في «ب»: «البيايت»، وهو تحريف.

(١١١) في «أ»: «الأظفار»، وهو تحريف.

(١١٢) كذا في «ب». والذي في «أ»: «وبذل ما أوجب حكمة»، وهو تحريف كما لا يخفى.

(١١٣) في كلتا النسختين: «وينتحل»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، إذ ليس انتحال الجود مما يُمدح به.

(١١٤) في كلتا النسختين: «ويبارز»، وهو تحريف.

(١١٥) كذا في «أ». والذي في «ب»: «معسر»، ولا يستقيم معه الكلام الآتي بعد.

(١١٦) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «إنما»، وهو تحريف. والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(١١٧) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «بالإشهاد»، وهو تحريف. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(١١٨) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «يا أبا فريد».

(١١٩) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «لفظ»، وهو تحريف.

(١٢٠) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «ودان»، وهو تحريف.

(١٢١) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «ورتبت»، وهو تحريف.

(١٢٢) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «التجويز»، بالجيم والزاي. وهو تحريف.

(١٢٣) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «غنائك»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام.

(١٢٤) وردت هذه العبارة في «أ»، التي ورد فيها وحدها هذا الكلام، هكذا: «بأمر يرجى»، ولا معنى لها على هذا الوجه. والصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(١٢٥) بهما: أي بالعناية والاهتمام.

(١٢٦) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «شيء»، وهو تحريف.

(١٢٧) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «وفتق»، وهو تحريف.

(١٢٨) يريد بالرجل أبا الوفاء، وهو الذي قربه إلى الوزير.

(١٢٩) وردت هذه العبارة في «أ»، التي ورد فيها وحدها هذا الكلام، هكذا: «والسعر الشاري»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذًا من سياق الكلام.

(١٣٠) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «يغنى» بالنون، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا.

(١٣١) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «لوالي»، وهو تحريف.

(١٣٢) كذا ورد هذا الاسم في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام دون «ب». ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه.

(١٣٣) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «جدًّا» بالجيم، وهو تصحيف.

(١٣٤) كذا ورد هذا الاسم بالكاف والسين والجيم في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام. ولم نقف على وجه الصواب فيه.

(١٣٥) وردت هذه العبارة في «أ»، التي ورد فيها وحدها هذا الكلام، هكذا: «وما نال غيري سؤل وتحول مع شغله وآخر من أنا»، وفيها تحريف ظاهر لا يستقيم به المعنى.

(١٣٦) ينوِّله ويموِّله: أي ينوله الوزير ويموله. مع شغله: أي مع شغل الوزير.

(١٣٧) المفضوض: أي المتفرق غير المجتمع.

(١٣٨) في «أ» التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «ومؤخر كالمقدم»، وفي كلتا الكلمتين تقديم وتأخير من الناسخ، والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(١٣٩) كذا ورد هذا الكلام في الأصل، وفيه تحريف ظاهر لم نهتدِ إلى وجه الصواب فيه.

(١٤٠) على تيقُّنه: أي مع تيقنه. و«يكون» هنا تامة.

الفهرس

الليلة التاسعة والعشرون.. ٣٩
الليلة الثلاثون... ٤٨
الليلة الواحدة والثلاثون.. ٥٥
الليلة الثانية والثلاثون.. ٩٢
الليلة الثالثة والثلاثون....................................... ١٥١
الليلة الرابعة والثلاثون ١٧٧
الليلة الخامسة والثلاثون...................................... ٢٠٠
الليلة السادسة والثلاثون...................................... ٢٢٥
الليلة السابعة والثلاثون ٢٢٧
الليلة الثامنة والثلاثون ٢٥٣
الليلة التاسعة والثلاثون ٢٧٢
الليلة الأربعون.. ٣٠٢